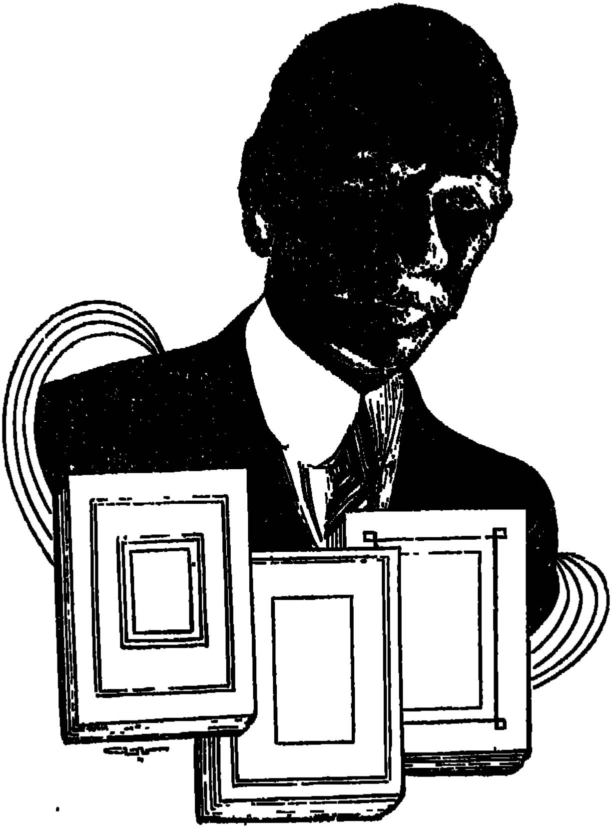
مبادئ
في السياسة والأدب والاجتماع

للأستاذ الجليل
أحمد لطفي السيد

تقديم وتعليق
طاهر الطناحي



تقديم

بقلم طاهر الطناحى

استوفى أستاذ الجيل احمد لطفى السيد حياته المجيدة فى هذه الدنيا قبل بضعة أشهر مضت . وقد عاش لمصر وللعروبة واللغة العربية وللسياسة والادب والاجتماع ، وامتدت حياته الى ما أناف فى عدد السنين على التسعين ، ولكنها كانت حياة خصبة ، ليست كحياة غيره من المعمرين الذين يطوون الاعوام تلو الاعوام ، ولا ينتجون شيئا ، ولايقومون بعمل نافع لامتهم وبلادهم، ولا يشغلون الناس بنبوغهم فى علم من العلوم ، ولا فى فن من الفنون ، ولا يخدمون الحياة الانسانية خدمة باقية تضاف الى خدمات النوابغ والعباقرة الذين شادوا للفكر الانسانى ، ولحضارة الانسان ومدنيته ، بناء عظيم الشأن متين البنيان

ان أحمد لطفى السيد لم يكن فردا فى امة ، ولكنه كان رجل أمة ، وصاحب مبادىء عاش لهـا زمنا سعيدا ، واداها لأمته وبلاده احسن الاداء . ولقد رأى قراء « سلسلة كتاب الهلال » فى كتابه « قصة حياتى » الذى نشرناه له فى العام الماضى كيف بدات حياته وكيف تعلم ، وكيف جاهد طويلا فى الصحافة والسياسة والتعليم

وكيف عمل طويلا لنهضة الجيل منذ أوائل القرن العشرين حتى دعى بحق « أستاذ الجيل » وبقى هذا اللقب وقفا عليه طول حياته لا ينازعه فيه منازع ، لانه اول من بشر بالمبادىء الديموقراطية ، وأول من وجه الشبيبة المصرية الى معانى الحرية والاستقلال ، واسس مدرسة فكرية جديدة تخرج فيها شبان ذلك الجيل الذين أصبح منهم أساتذة نوابغ لجيلنا الجديد نهضوا بالحياة السياسية والعلمية والادبية نهضة مباركة ، وأحدثوا فى مجتمعنا العربى ثورة جديدة .. وكان «أرسطو» ذلك الجيل الذى تخرج فيه هؤلاء النوابغ

ومن المعروف عند علماء النفس وعلماء الاجتماع « أن المبادىء والافكار هى امهات الاعمال » وقد كانت مبادىء لطفى السيد فى السياسة والادب والفلسفة والاخلاق والاجتماع والتعليم هى أهم الدعائم الكبرى التى قامت عليها نهضتنا الحديثة منذ أوائل القرن العشرين ، وكانت هى المبادىء المثلى التى قامت عليها نهضات الامم الراقية التى تعرف حقها فى الحياة وحقها فى الحرية والكرامة ، والتى ظفرت بشخصية قوية لا تعتمد على غيرها ، ولكنها تنبع من صفاتها ومقوماتها وتصدر عن أهدافها الحرة المستقلة ، وتجعل لها مكانة محترمة فى الميدان الدولى

وكان أول من حارب التبعية السياسية فى الوقت الذى كان زعماء الوطنية ينادون بتبعية مصر لتركيا ، وأول من دعا الى « مذهب الحرية » فى الشرق العربى . وكان على صواب حين فرق بين « الحريين » و « الاحرار » فى الجماعات والافراد والاحزاب لان الناس قد يكونون احرارا أى ليسوا عبيدا لأحد ، ولكنهم ليسوا بحريين اى من دعاة الحرية كالمحافظين فى بريطانيا ، وقد يكون

الناس بطبيعتهم أحرارا ، ولكن حريتهم معطلة عن الاستعمال باستبداد حاكم مستبد ، أو سيطرة متسلط عليهم يكبت أنفاسهم ، ويعطل حريتهم ، لمصلحة حكمه وتوطيد سلطانه ، فلا تصبح حريتهم حرية ؛ بل تصبح قيدا في أيديهم ونيرا في أعناقهم ، لان الحرية اللازمة للانسان التي تجعل منه انسانا حرا ، لا تسمى «حرية» الا اذا كان ميسرا له استعمالها في فكره وقلمه ولسانه وكل شأن من شئون حياته في حدود القوانين .. فالمرء لا يكون حرا — كما قال لطفي السيد في بعض كتاباته — الا بمقدار ما يملك من وسائل هذه الحرية ، كما أنه لايكون حيا الا بمقدار ما جاز له الاستمتاع بالحياة .. والحرية حياة ، والحياة لا تصلح ولا تفيد الا بالحرية ، والحرية الناقصة حياة ناقصة ، وفقدان الحرية هو الموت .. !

وقد علم الشعب في كتاباته معاني الديموقراطية ، ومعاني الحكم الديموقراطي ، وحارب الحكم الشخصي والحكم القائم على المنافع الشخصية كحكم المماليك والامراء المستبدين من حكام الشعوب ، وكتب في «الحرية» اكثر من خمسة عشر مقالا بعدة عناوين ، منها : « معنى الحرية » و « الحرية الشخصية » و «الحرية والاحزاب» و « الحرية وحقوق الأمة » و « الحرية ومذاهب الحكم » و « حرية التعليم » و « حرية القضاء » و « سلطة التشريع » و « حرية الصحافة » و « حرية الخطابة » و« حرية الاجتماع »

وكان أول من بشر « بالجامعة المصرية » في السياسة ، وفي التعليم ..!

ففي «السياسة» ، كان يدعو الى أن تكون مصر للمصريين ، لا أن تكون داخلة ضمن جامعة عثمانية ، وقد عرف عنه

رأيه فى القضية المصرية ، وهو أن تكون مصر مستقلة استقلالا تاما ، لا تابعة لدولة أخرى ، وحارب فكرة الاعتماد فى تحقيق الاستقلال المصرى على تركيا او فرنسا

وفى « التعليم » كان أول من دعا الى انشاء جامعة مصرية تقوم بقسطها فى خدمة العلوم والآداب فى العالم ، وتؤدى رسالتها الاصيلة فى خلق جيل جديد يخدم وطنه . وقد أعان على تحقيق فكرة الجامعة بانشاء « قاعة محاضرات » فى صحيفة « الجريدة » يلقى فيها محاضرات على شبيبة ذلك الجيل هو وبعض كبار العلماء والادباء ورجال السياسة ، وكان يحضرها عدد كبير من طلاب المدارس العليا

وكانت الجريدة مدرسة لتخريج جيل واع جديد من المثقفين الذين اصبحوا فيما بعد من كبار الادباء كالدكتور محمد حسين هيكل ، والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ على عبد الرازق ، ومصطفى صادق الرافعى ، وطه حسين ، ومحمد السباعى ، واسماعيل مظهر ، وعبد القادر حمزة ، وتوفيق دياب

وكان أول من دعا الى تقوية الوحدة القومية بين المسلمين والاقباط فى مصر بتوحيد عنصرى الأمة ، حتى لا يجد المحتلون ثغرة سياسية ينفذون منها الى استغلال الخلاف بين العنصرين لمصلحتهم ، وتحطيم اليقظة الوطنية

وكان أول من دعا الى تقوية الشخصية الوطنية ، والنظر فى الامور السياسية من وجهة المصلحة القومية وحدها ومصلحة أبناء البلاد .. وقد عنى كل العناية بتدعيم الكرامة الشخصية والكرامة الوطنية . وقد

حفـز الشباب الى الاخذ باســـباب التقدم ، والتذود ما استطاعوا من منـــاهل العلوم والفنـــون والاداب ، والاسهام فى الابحاث العلمية والمؤتمـرات العالمية ، وكان يحضهم على الصراحة والشجـاعة . وكان هو شـجاعا صريحا فى الدفاع عن الكرامة القومية ، وعما يعتقـده من أفكار وآراء . ولم تكن هنـــاك قوة تحول بينه وبين المجاهرة بمبـادئه ونزعاته . ولو كانت تلك القـوة قوة الحكومة ، أو قوة المستعمرين ، أو كان الوزير الـذى يعارضه من أصدق أصدقائه ..!

وهنا نذكر حادثا وقع بينه وبين صديقه احمد حشمت « باشا » وهو عم صـــديقه الحميم عبد العزيز فهمى « باشا » . وكان وقتئذ وزيرا للمعارف المصرية ، وقد أعد مشروعا يخول وزارة المعارف مراقبة معاهد التعليم الحر . وكان هـذا المشروع يتضمن أمورا لم تصـادف موافقة لراى أحمد لطفى السـيد ، لانهـا تنـافى حرية التعليم ، فعارضـها فى جريدته بعدة مقـالات اغضبت حشمت باشا .. !

ولم يكتف لطفى السيد بالكتابة معارضا لهذا المشروع، بل ذهب الى اللورد كتشنر ـ المعتمد البريطانى فى ذلك الحين ـ لعلمه أن الوكالة البريطانية وقتئذ هى مصـدر الموافقة على هذه المشروعات التى تقيد حرية البلاد

ولما لم يكن اللورد كتشنر موجودا ، فقد قابله المستر ستورس السكرتير الشرقى للوكالة البريطانية ، واخبره أن اللورد كتشنر اطلع على مقالاته ، ويريد منه أن يناقش حشمت باشا فى المشروع .. وزاد المستر ستورس على ذلك أن اللورد كتشـنر خاطب حشمت باشـا فى هـذا الموضوع ، فاظهر استعداده لمقابلته فى الوزارة ومناقشته

فى اعتراضاته !

وفى اليوم الثانى قصد لطفى السيد نظارة المعارف وفاء بوعده ، واستبقاء لوعد حشمت باشا ، واستأذن فى مقابلته ، فأخبره مدير مكتبه « رشدى بك » ان سعادة الناظر حشمت باشا يعتذر اليوم عن مقابلته لضيق وقته — وكان هذا الاعتذار غريبا — فسأله لطفى السيد أن يطلب منه تحديد موعد آخر ، فعاد يقول له أن سعادة الناظر لا يستطيع الان تحديد موعد لمقابلته ، فادرك مدير تحرير « الجريدة » معنى هذه الصيغة المألوفة لرفض المقابلة .. ذلك الرفض الذى لم ينتظره من صديق يكبره فى السن ، ولا يكبره فى المكانة الاجتماعية والعلمية ، ولو كان من الوزراء ... !

عاد احمد لطفى السيد الى مكتبه فى « الجريدة » غاضبا ، وشاء أن ينقل غضبه واحتجاجه الى الوزير الصديق باسلوبه الخاص ، فكتب اليه خطابا تاريخيا حمل فيه حملة شعواء ، والقى عليه درسا فى المبادىء التى يجدر بوزير المعارف أن يتبعها ، وأن يعامل بها الناس . وقد أطلعنى — رحمه الله — على هذا الكتاب الذى أبى أن ينشره فى كتابه « قصة حياتى » ، لأنه كان يرى أن حشمت باشا — وقد انتقل الى جوار ربه — لا يجمل ان ينتقده أو يذكره بسوء ، وانه من الاحترام للأموات الا يقدم هو على نشره مادام حيا !

ولكننى وقد توفى لطفى السيد الى رحمة الله انشر للتاريخ جانبا من هذا الخطاب ..

قال لطفى السيد معاتبا حشمت باشا بعد سطور ذكر فيها وعده للورد كتشنر بمقابلته ، واخلافه لهذا الوعد بالصورة المؤلمة التى لا تليق بمثله :

« .. فان كنت اردت أن تحط من كرامتى ، فقد اخطأت الفهم ، لانه يستحيل أن يحط منها عمل غيرى ، ولا اظن ان هذه الاهانة الا لاحقة بشخصك ، وبفخامة اللورد كتشنر الذى لولا انى اتبعت مشورته ، ولولا ان سكرتيره أخبرنى بوعدك بمقابلتى لما اتعبت نفسى بزيارتك ... »

ثم قال فى عبارة قاسية :

«.. ومن المحزن ان يكون مظهر قدرة الوزير حاجبا يمنع طلاب الخير ، ومبلغ حريته من العمل أن يرفض مقابلة من لا يشتهى مقابلته ، فان اقصر الناس باعا لا يعجز عن التمتع بهذه الحرية وتلك القدرة .. !»

الى أن قال فى تهكم وسخرية بالغة :

« اوليس من المحزن ايضا ان يكون العامل الاكبر من تقدير رجالنا التفاوت فى الالقاب ، وان تكون فكرتنا من الحياة الانسانية سطحية ساذجة ، الى حد ان ينزل الرجل فيها عن شخصيته ، فيحب لا بدافع ذاتى ، بل عن غيره ، ويبغض لا بدافع ذاتى ، ولكن بالوكالة عن غيره ايضا ..!

« والا ، فقل لى ياسعادة الباشا : ماالذى غير بيننا ما كان من المجاملة والمعاملة ؟!.. غير انك ظننت ان ابواب عابدين موصدة دونى ..!

« وهب أنها كذلك ، فهل يليق ؟!

« على أن أبواب عابدين مفتوحة لى ، كما هى مفتوحة لك .. وان كنت فى شك من ذلك ، فاسأل بعض زملائك .. »

هذه سطور من ذلك الكتاب الخاص الذى يصور غضبة لطفى السيد لكرامته ، وهو يسعى فى سبيل الخير العام ، ويدافع عن الحرية . ولقد كانت مقالاته فى الجريدة على بلاغتها ووقارها تتضمن فى نقدها ايلاما بليغا ..! وحدث حوالى سنة ١٩٠٨ أن عين الانجليز المستر هيل ناظرا لمدرسة الحقوق ، ولم يكن هذا الناظر حائزا على شهادة الحقوق ، فصار يسافر كل عام الى فرنسا ليؤدى الامتحان فيها ، فكان لضعفه يرسب فى القانون الجنائى ، فاخذ لطفى السيد ينتقد تعيين المستر هيل ناظرا لمدرسة لا يفقه العلوم التى تلقى فيها ، ولكن الانجليز لم يذعنوا لمعارضته ، فأراد أن يحاربهم بطريقة ايجابية .. فعمد الى انشاء فصل فى دار الجريدة لتعليم طلبة الحقوق مادة القانون الجنائى على أشهر المحامين المصريين . وكان من هؤلاء الطلبة محمد حسين هيكل ، ومحمد كامل البندارى وغيرهما . وقد سمعت الدكتور محمد حسين هيكل يقول فى ذلك : « لقد كان لطفى السيد يدرس لنا بعد خروجنا من مدرسة الحقوق على طريقة المشائين « أفلاطون وجماعته » . ويدلنا على الكتب التى نقرؤها وكان هو أكثر من قرأ فى هذا البلد قراءة قيمة منظمة ، فلكانت أحاديثه وتوجيهاته على أحسن ما تكون من السداد والفائدة لنا نحن الشباب فى ذلك الزمان »

ولقد كانت صحيفة « الجريدة » المدرسة الكبرى للمبادىء السياسية والادبية والاجتماعية التى بشر بها بين أبناء العروبة ، وكانت هى الوسيلة التى نشر فيها على الناس مبادئه وأفكاره ، الى ما كان يلقيه من خطب فى القاهرة والاسكندرية فى النوادى والمحافل العامة ،

حتى أثمرت هذه المبادىء ، وكان لها شأنهـا فى الشرق العربى . وقد حادثته يوما وهو وزير الخارجية فى احدى الوزارات السابقة ، فسألته لمـاذا أغلق « الجـريدة » وانصرف عن الصحافة الى ترجمة أرسطو ، فقال :

«لقد قبلت التحرير فى«الجريدة» لانشر فيها المبادىء المثلىالتى آمنت بها لقيام حياة ديموقراطيةسليمة ، فلما انتهيت من نشرها اغلقت « الجـريدة » وانصرفت عن العمل بالصـحافة ، لانني لم اكـن اشتغل بالصحافة محتـرفا ، بل كنت صـاحب رأى وصـاحب مبـادىء ديموقراطية لارشاد الامة الى اسباب الرقى والتقدم »

وقد صدرت « الجريدة » فى مارس ١٩٠٧م ، واغلقت فى نوفمبر سنة ١٩١٥ م ، أى انه ظل يدعو الى مبـادئه نحو ثمانى سنوات وثمانية اشهر ، كان يكتب فيها معظم الافتتاحيات ، ويتناول فيها كثـيرا من الموضـوعات السياسية والاجتمـاعية . وكان الى جانب السـياسة والاجتماع يتناول الكتابة فى العلم والتعليم وفى الفلسفة، والادب والطبيعة ، وكانت مقالاته وخطبه ومحـاضراته مدبجة بأسلوب رفيع كأنها معدة لأن تكون فصولا لمؤلف من المؤلفات ، لا مقالات لصحيفة سيارة ، كبعض الصحف التى لا يعنى كتابها إلا بالاخبار ، أو بملء الأعمدة من هنا وهناك ، دون رابطة بين ما يروى من اخبار وافكـار ، أو كما يعبرون عنها بالدردشـة والاحاديث التى تجـرى فى المجالس ، ثم تنتهى بانتهاء هذه المجالس او تمر مع مرور الايام ، لانها فى الكثير لغو من الكلام

ولقد يعجب القراء اليوم من صحف يعتنى محرروها بالكتابة عن انفسهم او عن صـديقاتهم أو اصـدقائهم ، ويروون من اخبارهم واحوالهم الخاصة ما لا يهم القراء ،

كأنما اصبحت هذه الصحف وسيلة للدعاية لهم ولجماعتهم و « شلتهم » لا وسيلة لخدمة المصلحة العـــامة ، ونشر المبادىء الصالحة والافكار النافعة ، والمعلومات القيمة التى تفيد القراء فى حياتهم السياسية والاجتماعية والأدبية

ولهذا كانت صحيفة الجريدة ـ فى الجيل الماضى ـ كغيرها من صحف ذلك الجيل ، مدارس عامة لابناء البلاد يأخذون عنها مبادىء الوطنية ، ومبادىء الحياة الراقية ، والارشادات الموجهة الى المثل العليـــا . وقد كتب لطفى السيد فى افتتاحية الجريدة يقول عن الصحف :

« الناس بطبائعهم اشتات فى الرأى كما قيل : للناس عدد رءوسهم آراء ٠٠ وهم فى البلاد الحديثة العهد بالرقى ينصرف كل منهم غالبا عن التفكير فى الامور العامة الى تدبير حاجتهم الخاصة ، حتى ترشدهم الصحف كل يوم الى أن لهم وجودا عاما هو غير الاول ، وأن بهذا الوجود العام كمالا يجب ان يرقى اليه بعمل الأفراد

« وعلى هذا تكون الصحافة هى الالة الكبرى للارشاد والرقابة ٠٠ وان أولى الجماعات بواجبات الخدمة القومية، ومراقبة الاحوال العامة ، واقدرها على العمل لتكوين الرأى العام ، جماعة اولى الرأى

« وهم الذين نبهوا ذكرا بعلو الهمة أو بالعلم أو الفضل ٠٠ أولئك اذا انصرفوا عن الاشتغال بحاجات الامة من نشر التعليم والعمل لترقية الصناعة والزراعة والتجارة ، والاخذ بنصيب الرقابة العامة ، وقفت الامة عن التدرج فى مراقى المدنية الصحيحة ، خصوصا فى حالها النظامى، وصار الامر فيها مفوضا الى رغائب الحكام ، يميلون بها حيث يشاءون

ثم قال عن خطة الجـريدة ومبدئها فيمـا تنشره من

بحوث وموضوعات :

« والجريدة مصرية بحتة .. غرضها الدفاع عن المصالح المصرية على اختلاف انواعها ، وارشـــاد الامة بأسرها الى منافعهـــا الحيوية الصحيحة ، ونشر ما فيه فائدة مادية أو أدبية ، ونقد كل عمل له مساس من أى جهة كانت بتلك المنافع والصوالح . سواء اكان هذا العمل عاما ام خاصا ، مهما كان مصدره ، ومهما كانت صفة القائم والآمر به ، وبيان صالح ذلك العمل من فاسده ، وقول الحق فى الحالتين ، حتى يتكون بهذا رأى عام على اساس متين من صدق النظر وحســن التفــكير ، يقول قوله بلسانها ولا تنطق هى الا عنه ، فيتأيد حينئذ جانب المنفعة للامة كلها ، ويصل هذا الصوت الصادر من نظر مجرد عن كل غرض الى الهيئة الحاكمة ، فيحل محل الثقة فيها ، وتتضافر الهيئات على خدمة تلك الصوالح والمنافع ، لا فرق فى ذلك بين الاديان ولا تحيز بين الاجناس .. هذا مع نبذ الشخصيات وعدم الخوض فى المنازعات الدينية المحضة ، وألا تستأجر فى غرض ، وألا تستخدم لاحد مع التزام الاعتدال فى جميع الاحوال » !

هذه هى خطة الجريدة ، ومبدؤها فى ذلك الزمان الذى اذاع فيها مبادئه على الناس فلم تكن « الجريدة » متجرا للاتجار بالحياة العـامة ، وكسب المـال ، ولا أداة لهتك الاعراض ، وافشاء الاسرار العائلية ، ونشر الاخبار المثيرة للفضول ، لا المثيرة للفضائل .. !

ولم تكن وسيلة لاغراء الشــباب ودفعهم الى مواطن الفساد ، ولا معرضا لاجسام الحسان ومفاتن الراقصات ، وغرام الممثلين والممثلات ، كتلك الصحف التى انشأها اليهود فى امــريكا واوربا وقلدها بعض الشرقيين من

الصحفيين لهدم القيم الاخلاقية والمبادىء الدينية واستغلال الافراد والجماعات حبا فى الثراء والغنى المحرم ..!

ولقد كانت كتابات لطفى السيد وبحوثه تهدف دائما الى المصلحة القومية ، ولا تقوم على العواطف الشخصية ، لان السياسة كما عرفها العلماء هى تدبير شئون الامة ، والرجل السياسى هو الذى يعمل لمصلحة الامة بعيدا عن عواطف البغض والكراهية أو عاطفة التحمس الوقتى . ولذلك كان يرى الا تكون الاعمال السياسية العوبة فى ايدى العواطف ، بل يجب ان تكون قاعدتها المنفعة لاننا فى زمان لا يعرف فى السياسة الا المنفعة ..!

وكان يحمل على بعض الكتاب الذين تدفعهم عواطفهم الى الحماسة المطلقة دون النظر الى رعاية المنفعة وتوخى المصلحة العامة فيما ينقدون ويكتبون ، فقال فى احدى مقالاته :

« رحماكم يا أرباب الاقلام ، لا تغرروا بهذه الامة التعسة ، ولا تكونوا للزمان عونا عليها ، وأخلصوا لها النصح ، وذروها فى هذه الفترة هادئة تتكون قوتها من الباقيات الصالحات ، لا من الكلمات الطائشات ، وأعطوا العقول حقها من حرية التفكير ، والالسن قسطها من حرية القول ، والنفوس قسطها من الجرأة ، وبينوا لها الفرق بين مواطن الانتقام ، ومواطن التكريم ، وبين انتقاص الاشخاص ، وانتقاد الاعمال ، ولا تكن الاقلام فى ايديكم كالمعاول يهدم بها بناء الاخلاق ، او كالحجب تستر بها نسياء الحق ، أو السهام تهلهل بها اعراض الاشخاص »

وكان من مبادئه فى الدفاع عن القضية المصرية ــ فى اول حياته السياسية ــ ضد مطامع الانجليز اتباع سياسة المسالمة لا الاستسلام ، لان سياسة العنف من الضعيف

للقوى لا تجدى ، ومعاندة المجرد من السلاح لشاكى السلاح ، المدرع بالقوة ، والمعتمد على العدة والعدد ، لا تؤدى الى الغرض المنشود ، ولذلك كان يقول :

« الانجليز بالامس هم الانجليز اليوم ، وهم الانجليز غدا .. وما زال اصحاب الحاجات يؤمون قصر الدوبارة وما زالت الجرائد تنشر الكتب المفتوحة والمقالات الضافية .. عن مطالب الامة لعميد الاحتلال ، فلا يقع فى الوهم ان وراء الاكمة ما وراءها من تبدل الاحوال ، واحياء الآمال، وبوارق الاستقلال . وسياستنا مع الانجليز لا تخلو من احد وصفين : اما سياسة عناد وعداء واما سياسة مسالمة لا استسلام

« ولا شك أن سياسة المعاندة عقيمة ، اذ كيف يقبل المعاند (بفتح النون) من المعاند (بكسر النون) حسابا على اعماله ؟ .. بل كيف يرجو العدو من العدو اصلاحا لحاله ! فلم تبق اذن الا سياسة المسالمة ، والمحاسنة المقرونة بالمحاسبة »

وهذه السطور التى دبجها هنا لطفى السيد كانت للرد على بعض الجرائد التى حملت على تكريم اللورد كرومر حين خروجه من مصر ، وكان من الداعين لحفلة التكريم عدد من اعضاء حزب الامة التى تنطق باسمه « الجريدة »

وكان هو فى أول عهده بالتحرير يتبع اسلوبا يعنى فيه بالجوهر دون الشكل ، ويميل الى المحاسنة دون العنف والقسوة . وكانت الجريدة حين دافعت عن هؤلاء الذين يدعون لحفلة اللورد كرومر فى اول عهدها بالظهور ، اذ لم يكن قد مضى وقتئذ على اعتزاله منصبه غير أيام

على انه حين قرأ لطفى السيد خطبة اللورد فى دار الاوبرا التى اقيمت فيها حفلة التكريم نهض مسرعا بالرد

عليها فى عدة مقالات رداً لا يقل عنفا عن الجرائد الاخرى ، ان لم يزد عليه قوة حجة وبلاغة منطق . ولذلك قال فى « قصة حياتى » :

« وكان من عادتى أن اكتب افتتاحيات الجريدة ، ولم يمض على صدورها غير ايام حتى انتهت مهمة اللورد كرومر فى مصر ، وخطب خطبته المشهورة فى دار الاوبرا وعلقت « الجريدة » عليها تعليقا لا يقل عنفا عن الجرائد المتصلة بالخديو عباس ، وسارت فى طريقها ، وعلى مبادئها تنقد أعمال السلطة الفعلية التى كانت للانجليز ، كما تنقد اعمال السلطة الشرعية ـ سلطة الخديو عباس »

وقد نهض لطفى السيد بعد ذلك بالرد على كتاب « مصر الحديثة » الذى الفه اللورد كرومر وصدر بعد عام من خروجه من مصر ، بل تناول هذا الكتاب بالنقد البليغ ، ونشر عدة مقالات طويلة فى الجريدة بدأها فى ١٤ ابريل سنة ١٩٠٨ م بعنوان « الانجليز فى مصر » وشاء أن يكون هذا العنوان عنوانا لكتاب يطبعه فيما بعد ، ولذلك قال فى اول مقالة من هذه المقالات :

« هذا عنوان الكتاب الذى نحاول وضعه لبيان خطأ اللورد كرومر فى كتاب مصر الحديثة ، وبيان سياسة الاحتلال فى مصر والسودان ، وهو الذى وعدنا بترجمته الى الانجليزية ، وتوزيعه فى أوربا . وينقسم الى ثلاثة أقسام :

« القسم الاول ـ فى الاسلام ، ويشمل الكلام على مثار الخطأ فى فهم الدين الاسلامى عند الاوربيين الحسنى النية وبيان مقاصد غلادستون واللورد كرومر من الطعن عليه ، والكلام عن الديموقراطية الاسلامية ، وانها تفضل بنظامها كل ديموقراطية أخرى من الوجهة الاجتماعية والسياسية،

والكلام عن المرأة والرق فى الاســــلام ، وما ظنه اللورد مغمزا ، وليس بمغمز

« القسم الثانى ــ الحالة الاجتماعية فى مصر

« القسم الثالث ــ سياسة الانجليز فى مصر والسودان

« وانا ننشر فى الجريدة من هذا الكتاب ما يحتمل المقام نشره فى الجرائد اليومية أو ما يكون للكافة مصــلحة من نشره .. »

وكانت المقــالة الاولى من القسم الاول عن النظــام الاجتماعى الاسلامى ، ومثار خطأ الاوربيين فى فهمه وفهم الدين الحنيف . وقد رد على اخطاء اللورد كرومر واخطاء الاوربيين فى هذا الموضوع رداً قويا مؤيدا بالبراهين فى اســـلوب رفيع يزيده العلم والمنطق والتــاريخ قوة على قوة .. !

ولم تكن المحاسنة والاعتدال سبيلا الى ضعف الحجة ، ولا سببا فى السكوت عن الحق ، بل انه كان فى اول عهده بالكتابة السياسية يتبع المحاسنة فى المســاجلات والمناقشات السياسية كاسلوب فى المناظرة والحوار ، ثم اندفع فى اسلوبه الوطنى بقوة ممزوجة بالادب خاصم بها الخديو عباس وخاصم بها المستعمرين ، وصارت الجريدة لســان الامة كلها لا لسان حاكم واحد او لسان حزب واحد .. فاذا كانت جريدة المؤيد لسان الخديو عباس ، وكانت اللواء لسان الحزب الوطنى برياسة مصطفى كامل ، فقد اصبحت الجريدة بفضل لطفى السيد جريدة الامة المصرية، وجريدة مصر للمصريين ، وعنها اخذت الامة مبــادىء الاستقلال ومبادىء الحرية والدعوة الى النهوض بالتعليم ، واصلاح الحياة الاجتماعية والادبية اصــلاحا لا يناقض الدين ، ولا ينافى كريم الاخلاق

ولقد كانت الخطة التى سار عليها فى سياسته ، ودعا اليها فى بحوثه هى الكفاح باسم الامة ضد الانجليز وضد حكومة الخديو التى كان يدعوها باسم « الحكومة الشخصية » وقد حمل على هاتين السلطتين حملات شعواء ، وخص سياسة الوفاق التى صادفت ظهور الجريدة بالنقد ، لانها كانت على حساب الدستور وهضم حقوق الامة . وكان دائما يطالب بحقوق الامة وينبه الانجليز تارة والخديو تارة ثانية والوزراء تارة اخرى الى هذه الحقوق . وقد تخلل حملاته على هذه الجهات الثلاث دروس القاها على « الانجليز » فى حكم الشعوب ، وعاقبة الاستبداد والاستغلال للامم الضعيفة ، وعلى « الخديو » فيما يجب عليه من توخى المصلحة العامة فيما يتصل بالدستور ، وعلى « الوزراء » فيما يجب عليهم من احترام رغبات الامة

أما الحياة الاجتماعية ، فقد عنى بها لطفى السيد عناية كبيرة ، ولم نر صحيفة أخرى عنيت بالمجتمع المصرى ، وبالحياة المصرية كما عنيت « الجريدة » فقد كانت تتناول بالاصلاح كثيرا من نواحى الحياة الاجتماعية فى مصر — سواء فيما يتعلق بالفرد او العائلة او الجماعة ، وسواء فيما يتعلق بموظفى الحكومة ، ورجال التجارة والصناعة والزراعة — وكان يعنى بتقوية الشخصية الاجتماعية عناية خاصة ، فقد عاب على المجتمع المصرى ضعف الشخصية ، وقال عنه انه مجتمع فاقد الشخصية

وقد اهتم لطفى السيد بحياة المرأة المصرية وحقوقها الشرعية والاجتماعية اهتماما كبيرا ، وناصر « قاسم امين » فى دعوته الى تحرير المرأة واشاد بآرائه ووصفه بأنه فيلسوف مفكر ، وانه بكتابيه « المرأة الحديثة » و « تحرير

المرأة » قد اضاء للمرأة ظلمات الحياة ، ورد اليها حقها في الانسانية واحترام الشخصية

وتناول لطفى السيد التربية والتعليم ، فشغل قلمه ونفسه وفكره بأصلاح التعليم ، واهتم به اهتماما لا يقل عن اهتمامه بالسياستين الداخلية والخارجية • وقد قامت آراؤه فى التعليم على ان الانسان خير (بتشديد الياء) بطبعه، كما قال روسو ، وانه قابل للتربية والتهذيب • وان الغرض من التربية والتعليم هو تحقيق التوازن النفسي والخلقى فى الفرد والامة ، وان التعليم يحقق اكبر قدر ممكن من التشابه بين افراد الامة الواحدة ، وهذا التشابه يحقق الالفة ، والتضامن ووحدة الامة . وهذه الوحدة هي الطريق الوحيد للرقى والتقدم !

وقد خدم لطفى السيد اللغة العربية والادب العربي خدمات جليلة ، وكان له فى هذا الميدان من الاراء والمبادىء ماحققتها الايام فيما بعد ، واخذت بها الاوساط الادبية واللغوية • ولا نكون مبالغين اذا قلنا ان مجمع اللغة العربية قد اخذ بهذه الاراء ـ بعد مضى نحو اربعين عاما عليها ـ وقد دافع عن اللغة العربية دفاعا مجيدا • ودعا الى تطعيمها تطعيما يلائم التطور الحديث

أما الادب ، فقد عنى لطفى السيد بالادب الانشائى ، والتأملات الفلسفية أكثر من عنايته بالادب الوصفى ، ونعنى به ادب النقد والتاريخ •• وان كانت الجريدة قد ظهر فيها من الكتاب الشبان من عنى بالنقد الادبى ونظم الشعر كالشاب طه حسين ، والشاب محمد حسين هيكل وعباس العقاد ، وعبد الرحمن شكرى • وقد كان لطفى السيد مشغولا بالسياسة والدفاع عن حقوق الامة والاصلاح الاجتماعى ، وكان نقده واسلوبه الإنشائي

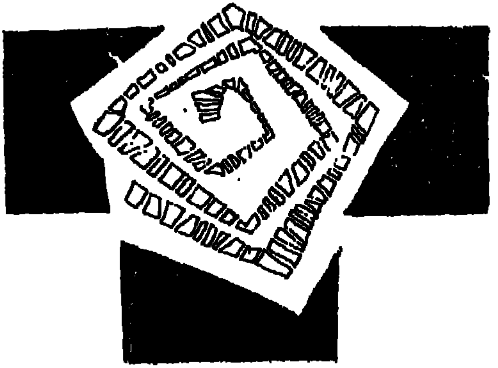
الرفيع يتجه الى الحياة السياسية والاجتماعية اكثر مما يتجه الى الموضوعات الادبية البحتة ، ولكننا رأيناه حين ظهر كتاب « تاريخ آداب العرب » لمصطفى صادق الرافعى سنة ١٩١٢ م ، واحدث فى ذلك الحين ضجة بين الادباء ، تناوله بالعناية وقرر فى بحثه النفيس عن هـذا الكتاب مبادىء فى الادب والاديب وعلم الاخلاق . وقد رسم حدود الادب وعلم الادب ، وحدود الاديب وعلم الاخلاق ، ورأى ان الادب وتاريخ الادب من أقوى مشخصات الامة التى تربط ماضى حياتها بحاضرها ويحدد ماهيتها ، ويميزها عما عداها ، فتستمر شخصيتها ، وتتسع بذلك دائرة المشابهات بين افرادها ، وتقوى روابط التضامن فيهم ، سوى ما يكسبه الباحث فى الادب من رقة العاطفة وحسن الذوق ، والقدرة على جمال التعبير عما فى نفسه من العواطف والافكار ، وحمل الناس على الاصغاء اليه وقبول مذاهبه قبولا حسنا .. فالادب فى كل زمان هو الاداة الاصيلة فى شيوع المذاهب ، فمن الغفلة ان يغمط حقه بين المعلومات الانسانية الاخرى

هذا ، وقد اخترنا فى هذا الكتاب من مبادىء لطفى السيد هذه الفصول التالية التى نعتقد ان ما تحتوى عليه ما زالت ـ ولن تزال ـ مبادىء ثابتة فى السياسة والادب والاجتماع ، وهى تلقى ضوءا على جهاده الطويل فى سبيل الحرية والاستقلال ، وفى سبيل الاصلاح القومى والاجتماعى ، والسعى لرقى بلاده ، ورفعة امته الى ارقى منازل الحياة السياسية والاجتماعية بين الامم

طاهر الطناحى

الفصل الأول

الأمة والحكومة



حقوق الأمة وحقوق الحكومة

لا يظن القارىء أنا نشق عليه بأن ندخل به فى وصف مركز الحكومة المصرية فى نظر القانون الدولى ولا فى اقامة الدليل على انها مستقلة استقلالا نوعيا ، كما يقــول بعض ساسة الانجليز ، أو انها تابعة تبعية كاملة لحكومة جلالة السلطان كما يقول بعض علماء الحقوق من الفرنسيين .. بل نريد من هذا المقال أن نصف حال الحكومة وحال الامة من الوجهة السياسية ، حتى اذا وضح مركز كليهما بالنسبة للاخرى سهل تحديد حقوقهما وواجباتهما كلتيهما نحو الأخرى

كان لمصر حكومة يعرف الناس جميعــا انها كانت مستأثرة بالسلطة دون الامة .. وما كان لهذه قبــل تلك الا الطاعة العمياء . ولم يكن مجلس النواب المصرى فى عهد الخديو اسماعيل ليغير من حالة استئثار الامير بالسلطة ، ولا من حالة الامة من الاستكانة والضعف ، بل كان أعضاؤه كانهم موظفون فى الحكومة . وكلنا يعلم سبب انشاء هذا المجلس وسبب الغائه ــ جاء بعد ذلك دخول أوربا فى الشئون المالية المصرية وشمل نفوذ التاثير فى أمور أخرى ايضا ــ وبقيت الامة المصرية بعيــدة عن أن يكون لها رأى حقيقى فى أدارة البلاد أو شىء من الحياة

(*) نشر بالعدد ١٣ من الجريدة فى ٢٣ من مارس سنة ١٩٠٧

السياسية الى عهد الخديو توفيق فظهر الحزب الوطنى بايعاز فى بادىء الامر : ثم غلا فى مقاصده وطاش سهمه عن القصد ، حتى ان احد زعمائه قال لـ «محمد سلطان باشا» يوم الدار (١) « ان الحزب الحر فى انجلترا عاضد لنا » فأجابه الباشا : « انكم بما تفعلون تعطون مصر بايديكم للانجليز » فقال زعيم آخر : « لاناقة لى فيها ولا جمل » فأجابه المرحوم احمد عبد الغفـــار بك : « اذن فاتركوا مصر لأصحاب النياق والجمال » . ولا يزال بين ظهرانينـــا من شهدوا ذلك فى بيت سلطان باشا يوم دخله الثائرون، وهم يروونه الى الآن

وبالجملة فلم يقو مجلس النواب وقتئذ على اخمـــاد الفتنة ولا كبح جماح الثائرين على الخديو ، بل وافقهم منهم كثيرون ، رغبة فى منافع ، او رهبة مما يجره الخلاف ، وما ثار الثائرون لمصلحة البلاد ، ولكنهم ثاروا ليدفعوا عن انفسهم البلاء ، وكان ما كان من الاحتلال الانجليزى الذى هو باق الى الآن

من ذلك الحين وجد فى البلد سلطتان احداهما السلطة الشرعية القديمة ، والاخرى السلطة الفعلية الجديدة (٢) اتفقتا بادىء الامر ، ثم اختلفتا اختلافا ظهرت اثاره ، ثم زالت او خفيت . ولا تزال تخفى وتظهر بمناسبات الحوادث .. ذلك قول الحق الصراح عن حكاية الواقع وهو ان الامة المصرية كانت ولا تزال بين هاتين السلطتين لاحول لها ولا قوة ، تدفع بها الحوادث مرة ذات اليمين

---

(١) هو يوم اجتماع العرابيين فى دار سلطان باشـــا والد هــدى شعراوى ، وكانوا يجتمعون فيها حين كان سلطان باشا معهم

(٢) يقصـــد بالسـلطة الشرعية حكومة الخديو ، وبالسلطة الفعلية حكومة الاحتلال البريطانى فى مصر ممثلة فى عميدها اللورد كرومر ، ثم خلفائه

واخرى ذات الشمال ، فهى ضائعة بين السلطتين . ولم تنل بفضل احداهما نظاما سياسيا حقيقيا يجعل لها حياة أمية مستقلة عن تأثير السلطة

كانت مصر ولا تزال مستقلة استقلالا اداريا ، أعني ان امراءها لهم الاستقلال الادارى في داخل البلاد عن سلطة الباب العالى (١) ولكن هذا الاستقلال خاص باشخاص الامراء .. فماذا كان للامة معهم من الحق ؟ .. لا شيء ! بل رغبة الامير هى الكل فى الكل

وجدت السلطة الفعلية للاصلاح ولتهيىء الامة لان تحكم نفسها بنفسها ، وما عملت من هذا التهيىء شيئا ، ولا وجد للامة معها نظام يدل على حياة سياسية او مهيىء لتلك الحياة السياسية .. فان قلت : الا ترى مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ؟ .. قلنا : ما اشبه هذه المجالس بمجلس النواب فى عهد الخديو اسماعيل لولا الحرية الشخصية للفرد ، فان هذه المجالس مضى على وجودها نحو ربع قرن ولم تعمل عملا ما للبلاد ، ولا راينا اية نتيجة من وجودها تدلنا على ان الحكومة تعتبر للامة معها شركة فى العمل او حياة سياسية .. على ان الذى نأمله انه كما اهتمت الحكومة بالمالية ، والحرية الشخصية ، تهتم ايضا بالحياة السياسية ، حتى يتحقق بذلك تأهيل الامة لحكم نفسها

هذه المجالس الحاضرة كانت من يوم ان وجدت ولا تزال عديمة الفائدة من كل ناحية ، فلا الحكومة فكرت

---

(١) الباب العالى هو حكومة السلطان العثمانى كما كانت تدعى فى ذلك الحين

فى توسيع اختصاصها بالتدريج ولا ملت تلك المجالس من البقاء غير المفيد ، حتى ان اعضاء مجالس المديريات لم ينفذوا كل ما اعطى لهم من الاختصاص بنص القانون، بل قصر اجتماعهم على نظر اعداد المكعبات اللازمة لتطهير الترع والموافقة عليها . وكذلك الموافقة على انشاء سكة زراعية ، الا ما سمعناه مرة عن مجلس المديرية فى المنوفية ، فانه قرر قرارا من نوع الضرائب ولم ينفذ ذلك القرار .. فاما مجلس الشورى (١) فانه كان احيانا يعرض على الحكومة طلبات واقتراحات وقد تعب من العمل فأعرض عن كل شيء .. فلا تقل لى شيئا عن هذه المجالس ، فانى اكرر لك بانها ليستأشد تأثيرامن مجلس النواب فى عهد الخديو اسماعيل

عرفنا مبلغ حقوق الامة لا بالنظرالى الطبيعةولا بالنظر الى القانون ، ولكن تلك حقوقها الظاهرة أنها لم يكن لها فى الماضى وليس لها فى الحال ، شركة حقيقية معالحكومة .. على ان لكل امة حقا طبيعيا فى ان تشترك حكومتها فى ادارة اعمالها الا ان يكون شكل الحكومة استبداديا صرفا

وهذا النوع من الحكومات تأتى به القوة وتذهب به القوة . وعندنا أن كل حق بنى على القوة ، لا يسمىحقا مطلقا .. اذ القوة تنافى الحق ، تناقضه وتهدمه ، فلا يصح ان يكون الهادم للشىء موجدا له . وعلى ذلك فانا نعنى بالحكومة ، الحكومة التى تتبرأ من هذا الشكل وتميل بقولها وفعلها الى ان تكون مقيدة بالدستور ، وان

---

(١) مجلس الشورى والجمعية العمومية من اختراعات الانجليز كان لهما نوع من حرية الانتخاب ، وجزء من اعضائهما معين فى الجمعية العمومية ورأيهما استشارى صرف

لم تكنها بالفعل

حقوق الامة السياسية هي اشتراكها مع الحكومة فى العمل العام . وهذا الاشتراك فى مثل امتنا وحكومتنا ، يكفي لتحققه ان يحصل منه شيء تدريجي ، بمعنى أن يكون لمجالس المديريات حكم مع المدير فى مديريته فى مسائل معينة ، لا مجرد رأى عديم القيمة .. وأن تكون مدة انعقادها تسع ان يتداولها الاعضاء فيما بينهم فى كل أمر فيه بارقة مصلحة عامة ، وان يجعل لمجلس شورى القوانين اختصاص بان يكون رايه قاطعا فى كثير من المسائل . ولا بأس من ان يكون رايه فى بعض الامور على سبيل الاستشارة (١) بشرط ان الحكومة كلما رفضت طلبا من طلباته تبين له الاسباب وتسمح له بالمناقشة فيها ، فان لم تقنع بمناقشة فلها الامر النهائى بعد ذلك

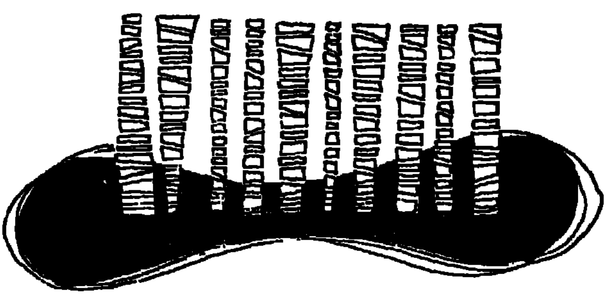
كذلك الامر فى الجمعية العمومية .. بهذا يتحقق معنى المشاركة ما دامت الحكومة عازمة ان تؤهل الامة لتحكم نفسها بنفسها ، لان التأهيل للحكم لا يمكن الا اذا اخذ باسبابه ، وأسباب التأهيل هى جزء منه ، فأما كون الحكومة تظن انها تترك الامة هكذا بعيدة عن كل سلطة وتظن انها يأتي عليها يوم تكون فيه كفؤا تماما لان تحكم نفسها بنفسها ، من غير عسف ولا تخبط ، فهذا مستحيل الوقوع ، بل متى تانس الحكومة من الامة هذه الكفاءة الا بالعمل ؟ ومتى يرى كبراء الامة ان لهم مكانة فى نظر الحكومة فيخلصوا لها ويحبوها ، الا اذا أرتهم بوارق الامل فى انها كما سعت للخير المالى والحرية الشخصية

---

(١) هذا كان رايه يوم كانت الامة مسلوبة الارادة فى كل شيء . وهو من باب « ما لا يدرك كله ، لا يترك جله » !

تسعى ايضا الى الخير السياسى

الامة المصرية أمة تحب السلام والطاعة للقانون كما تحب الاخلاص لحكومتها ، وهى تحترم السلطة الشرعية ولا تنكر السلطة الفعلية .. فنظن انه قد حان الوقت لان تسمح لها السلطتان جميعا بأن يكون لها حياة مستقلة بالذات لكيلا تبقى ضائعة المركز بين السلطتين ، ولتفكر حقيقة فيما ينفعها من حيث هى أمة مستعدة لان تؤهل لحكم نفسها بنفسها ، ولتقوم بواجبات الامم من السعى فى تحسين أحوالها الزراعية والصناعية والتجارية ·· فان القيام بهذا يتوقف غالبا على اعتبار الامة فى نظر نفسها ، وليزول الجفاء بينها وبين الحكومة ، وتتعاونا حقيقة على القيام بالمصلحة العامة



الفوز الصراح

قلنا ان الامة المصرية يجب أن تتخذ لها مركزا ثابتا وسطا بين السلطتين ، والا يدنى بها حب العبودية أو يرمى حب المنفعة الى ان تنسى شخصيتها ، وتلقى بنفسها طائعة غير مكرهة تحت اقدام احد الطرفين(١) ،مع المحافظة دائما على احترام السلطة والقانون . هذا قول حق .. ولكن هل يرضاه سادتنا مرشدو الامة الذين نجد صحفهم محشوة بكلمات الاخلاص والوطنية ، والوطنية الحقة والاستقلال ، والحزب الوطنى الحر والجلاء ، ومجلس نواب فرنسا حقبة .. ومجلس نواب الانجليز حقبة اخرى (٢) ؟ .. لا اعرض لسبب وجود كل

---

* نشر فى العدد ١٤ من الجريدة المؤرخ ٢٤ من مارس سنة ١٩٠٧

(١) المقصود بالطرفين هنا طرف السلطة الشرعية (الخديو) وطرف السلطة الفعلية (الاحتلال) .

(٢) هنا اشارة الى خصومه السياسيين ، وكان فى مصر ثلاثة أحزاب : حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية يمثله الشيخ على يوسف وجريدته المؤيد وهو حزب السراى ، والحزب الوطنى وكان يلجأ الى فرنسا يستعديها على انجلترا مستغلا خلافهما على تقسيم مناطق النفوذ الاستعمارى فى الشرق ، مع القول بالتمسك بعلاقتنا بالاتراك ، وحزب الامة القائل بالاستقلال التام عن الجميع وخطته التدرج والتطور لا الطفرة . وقد اتخذ الانجليز من بعض نسماف الوطنية والمسترزقين بطانة يناوئون بها هذه الاحزاب

صحيفة من هذه الصحف التى نعنيها والتى منهـــا من يروج مصالح الاحتلال ، ومنها من ينفذ الارادات المستترة للمعية السنية (١) .. ولكنا نذكر للقارىء طرفا من آثارها فى الامة وفى الحكومة ونزن لها طرفا من منافعها الصغيرة بما يقابله من مضارها الكبيرة، حتى ينتبه الذين لايزالون على غير بينة من الامر

وقفت الامة المصرية فترة من الزمان موقف الحائر الدهش ، عطشى لمعرفة الصالح لهـــا ان دوختها الايام وعاسرتها الليالى ، ترسف دائما فى اغلال الجور ، فظهر لها المرشدون ليرووا غلتها بفيضان أفكارهم ، ويشفوا علتها بحكمتهم ، فتوجهت اليهم بكليتهـــا توجه البرىء السليم النية ، واعتمدت عليهم فى تقدمها اعتماد الاعمى على عكازه ، فما راعوا فيها ذمة ، ولا اخلصـــوا لهـــا نصحا .. يقبل احدهم عليها فيفت فى عضـدها ، بأن يزين لها القعود عن ان تطالب بحقوقها . فتارة يجرح شعورها غير هياب برميها جميعا احيانا بعدم الكفاءة ، والاخرى بالانحطاط فى الاخلاق ، يزين لها ما يقـع من غلطات، الاحتلال ، ويكسو بحكمته الزلل بكســـاء من السداد ـ كل ذلك ليرضى عنه عميد الاحتلال ، ويجعـل له علينا سلطانا مبينا . ثم جاء بعد الآخرين يزفـــون لها البشرى بتحديد موعد الجلاء اعتمادا على جناب المسيو دولنكل (٢) الذى جاءنا جيئة مباركة ، أقام فيها مدة قصيرة

---

(١) يقصد بالمعية السنية حاشية الخديو عباس حلمى الثانى

(٢) سياسى فرنسى زار مصر سنة ١٩٠٧ م فاحتفى به الحزب الوطنى تنفيذا لسياسة استعداء فرنسا على انجلترا ، وكان لمناورات فرنسا فى مصر وغيرها اثر فى الفاق عقد بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ استقلت فيه فرنسا بشئون المغرب واستقلت فيه انجلترا بشئون مصر

أصاب فيها ما اصاب من حفاوة واجلال ، ونعم وفادة ووداع على صفاء الى الملتقى ..

فما لقينا بعد وما لقينا منه الا كلمة مجـــاملة ردا للزيارة وما الذى يدريكم ان المستر روبرتسون (١) يكون أشبه النواب بالمسيو دولنكل ؟ .. أخذ هؤلاء المرشدون يختلفون مع الاول فى المقدمات ويتحدون معه فى النتيجة، يختلفون معه فى انه يدعو الى الاحتلال ، وهم يدعون الى الرجوع الى ما قبل الاحتلال ، والنتيجة واحدة : هى انصراف الامة بالطريقتين عن التفكير فى تكوين ذاتها ، يختلفون فى تقدير الاشخاص من كبار الموظفين .. فمن اتصل منهم بعابدين كان عدوا لاول المرشدين ، عدوا للعقل والحكمة والحرية محبا للعبودية .. ومن اتصـــل بقصر الدوبارة (٢) كان عند الاخرين مارقا من الوطنية ، خائنا لبلاده

فهل يقول لنا الاول ما ذنب قضـــاة الاستئناف أن يرموا بعدم الاخلاق الا ما اقتضاه من القول ترشـــيح المستر بوند (٣) رئيسا للمحكمة ؟

وهل يقول لنا الاخرون ما ذنب فقيد الحكمة والبلاد المرحوم الشيخ محمد عبده اذ يطعن عليه فى اخلاصـــه ووطنيته الا منفعة الامة وتجربة طرق الاصلاح واتيانهـــا

---

(١) عضو مجلس العموم البريطانى ومن الاحرار ظن فيه خير لمصر ، فخاب الظن

(٢) مقر العميد البريطانى وهو مقر الســــفارة الانجليزية الان بالقاهرة

(٣) قاض انجليزى رشح رئيسا لمحكمة الاســـتئناف الاهليـــة وكان لترشيحه ضجة سياسية عظيمـــة شغلت صحفنا السياسية فى ذلك الوقت زمنا ما

من ابوابها ، واعتقاده أن خدمة البلاد شيء والعبودية للمالك أمر آخر ، وأن الوطنية تقضي بحب الامة وتكوين زعماء لها ينقبون عن مواطن المصلحة فيطرقونها ..

بل ما ذنب سعد باشا زغلول الا مشروع مدرسة القضاء الشرعى (١) ، وما كان فيه المشروع من الترديد بين الامضاء والاقصاء .. حتى نزعوا عنه رداء الوطنية الذى يلبسونه لمن يحبون ، وينزعونه عمن يكرهون . كل ذلك لارضاء المقامات التى يتصلون بها . ومع ذلك الاختلاف فى المقدمات نرى المرشدين المتعادين قد اتفقوا فى النتيجة .. وما هيه ؟.. هى انهم بما غمزوا وما لمزوا وما حطوا به من كرامة ، افلحوا او كادوا يجردون الأمة من زعماء تركن اليهم .. اختلفوا فى الحملة على الحكومة، اى على الوزراء .. فالفريق الاول يجعل « الحبة » من حسنات الحكومة « قبة » ، ويقلب سيئاتها حسنات . والفريق الثانى يجهد فى الحط من مقامها والتشهير بها فى غير موضع التشهير . واتفقوا جميعا فى النتيجة وهى تصغير مركز الحكومة فى أعين الناس ، حتى لقد كاد طرفا الحكومة والأمة يعمل كل منهما على شاكلته . وكادت تقل ثقة الأمة بحكومتها ، بل كاد وزراؤنا يسأمون خدمتها الحقيقية . ولا ادرى ان كانوا سئموها بالفعل ، ألا ان تظهر الأمة معاونتها واعتدادها بهم فياتوا بالمقابل وهو الاخلاص فى خدمتها

اختلفوا فى تقدير اشخاص الامة أيضا .. فالذين لا يزورون قصر الدوبارة من أولى المقامات فى الأمة :

---

(١) مدرسة أسست لتخريج القضاة الشرعيين والموظفين القضائيين فى المحاكم الشرعية والمحامين الذين يقبلون أمامها ، وقد ألغيت الان

لا نصيب لهم بالضرورة من اطراء الفريق الاول ، والذين يزورونه يعتبرون فى نظر المرشدين الاخرين انهم باعوا وطنهم وتسللوا من قوميتهم ، ورموا بأقبح ما يرمى به الرجل الرقيع . وليس يدرى احد لهذا معنى ايضا ، لأن حضرات المرشدين يطلبون على صفحات جرائدهم من جناب اللورد كرومر أن يهبهم مجلسا نيابيا ، يشكون اليه تأثر الامة من الحكم والتنفيذ فى حادثة دنشواى (١) ..

يطلبون اليه .. ويطلبون اليه .. أليس هذا اعترافا منهم بالواقع من سلطته الفعلية فى مصر أو ليس صاحب السلطة يؤمه كل اصحاب الحاجات الخاصة والعامة ؟

---

(١) كان فريق من الامة يرمى كل من اتصل بالانجليز بالمروق من الوطنية ، ثم يلجأ اليهم فى طلب الدستور ويحتجون لديهم على القسوة التى ظهر بها الانجليز فى دنشواى . وحادثة دنشواى من الحوادث التى زعزعت مركز لورد كرومر فى مصر ، بل انها احرجته حتى ذهب ما كان يدعيه من العطف على ذوى الجلاليب الزرقاء هباء وطاحت به هذه الحادثة اباديد . وملخص الحادث ان كتيبة من الجيش البريطانى كانت فى مظاهرة حربية اراد بها كرومر أن يظهر للمصريين قوة انجلترا الحربية فاخذت تخترق الدلتا . وخرج من معسكرها بجوار طنطا سبعة ضباط ليصطادوا الحمام الداجن حتى اذا كانوا فى قرية دنشواى عارضهم الاهالى مدافعين لأن الحمام مملوك لهم وليس بريا ولا صيدا مباحا ، فاطلق احد الضباط طلقا اردى امراة وجرح اخرين فتألب عليهم الفلاحون فخافوا وهربوا ، فوجد احدهم ميتا على اربعة اميال من القرية . وبلغ حنق كرومر مبلغه فأراد ان يقتل جملة من أهل القرية بالرصاص من غير محاكمة ، ولكن لم تواته الظروف على ارتكاب هذا الجرم ، فتكونت محكمة مخصوصة حاكمت المتهمين من أهل القرية محاكمة صورية ، وأصدرت حكمها باعدام أربعة وبالسجن المؤبد لاربعة وبخمس عشرة سنة لثلاثة وبسبع سنوات لستة وبسنة وخمسين جلدة لثلاثة وبخمسين جلدة لخمسين واخلى سبيل واحد وثلاثين . وقد وقع التنفيذ فى جرن القرية نفسها وعلى مرأى من أهل المحكوم عليهم ، فكان هذا التنكيل فى الواقع تنكيلا لا بالمصريين ولكن بالسياسة الانجليزية فى مصر .. لأن هذه الحادثة كانت نقطة تحول ظاهر فى الوطنية المصرية

وما الذى يدريهم ان من يزور قصر الدوبارة يطلب ما يطلبون أو مثل ما يطلبون ؟ قالوا بل الطلب حلال بالكتابة حرام بالمشافهة ، حلال لنا حـرام على غيرنا .. الوزراء يذهبون الى هناك ، فهم غير صالحين ، الاعيان يذهبون الى هناك فهم غير وطنيين .. ولم يبق من الوطنيين الا من لا يخرجون من بيوتهم أو من يتصدرون للارشـاد ، نظن أن هـذا القدر لا يكفى الوطن من بنيه اذا حكم على الجميع بمعاداته دون النزر اليسير

أما والله انى لأترك هذه القضية لفطنة المرشـدين ، يقضون فيها بالعدل .. وانعم بالقضـاة العـادلين ... اختلفوا فى طرق هذا التقدير واتفقوا فى النتيجة ، وهى تجريد الأمة من كبرائها وذوى عائلاتها . على أنهم اعلم منا بما يقول كبراء علماء الاجتماع ، ان الامة انما تكون من العائلات وليس للفرد فى تكوينها الاجتماعى نصيب

اختلف طرفا المرشدين فى وجهة رميهم بعضهم بعضا .. فالفريق الاول يرمى الثانى بعدم الحكمة وسـوء القصد . والفريق الثانى يرمى الاول بالدخلاء أو بعـدم الوطنية ، ولكنهم مع ذلك اتفقـوا فى النتيجة . وهى : انهم حطوا من كرامة رجال الصحـافة الذين نفهم أنهم يتخالفون فى المبادىء أو فى وجهـة الحكومة أو فى طريق الارشاد ، وربما احتاج الامر الى التعريض البعيد دون صريح اللفظ من الانتقـاص . وكان من هـذه النتيجة التاثير فى اخلاق الناس ، وخلطهم بين حرية القول وبين الشتم بما يشكو منه الآن أغلب عقلاء الامة

اتصل كل فريق بسلطة ، فزين لها ما زين من المذهب،

معرضا عن كل ما يراد من جهتها (١) من غير السداد • فماذا قال الفريق الاول يوم اقيل فضيلة الاستاذ الشيخ حسونة النواوى من منصبه ؟.. وما الذى صنعه ذلك الشيخ الجليل اكثر من قول ما يعتقده الحق حتى اقيل؟. وما الذى قاله الفريق الثانى حين اقيل من منصبه حسن باشا عاصم ، وكلنا يحس بلزوم الحرص عليه فى مثل منصبه ؟.. وما الذى كان جناه اكثر من انه رأى الحق ظاهرا فدافع عنه ؟.. على من تلقى تبعة تهمتنا بغير حق بالتعصب الدينى الذى لا نزال نتبرأ منه الى الآن ؟ بل على من تلقى تبعة التاثير فى حادثة العقبة (٢) من غير موجب وهى التى جرت ما جرت خلفها ؟

لا انكر على تلك الصحف فضلها علينا فى ترقية لغتنا ، فانها كانت اكبر مساعد على ذلك .. لا انكر عليها خدمتها لنشر الحرية الشخصية بين الناس ، ولكنا لا نظن أن أحدا يعترف لها بخدمة الافكار الا خدمة معكوسة كما ذكرنا • أقرب شاهد على ذلك ما نحن فيه الآن من الشغب والتحمس الذى لا نتيجة ولا اصل له . الا يكون سببه ان بين سمو الجناب العالى « الخديو » وبين جناب اللورد كرومر خلافا جديدا شخصيا او غير شخصى (٣) ؟

---

(١) اى من جهة السلطة

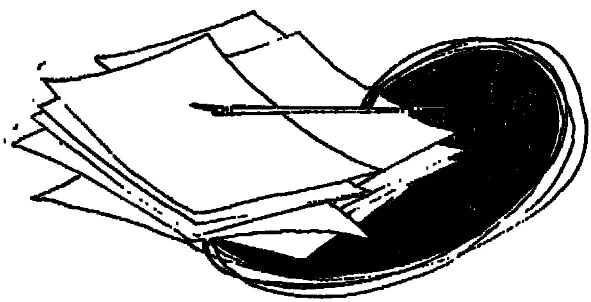
(٢) حادثة العقبة أو حادثة طابة •• أراد سلطان تركيا ان يمد فرعا فى سكة حديد الحجاز من عمان الى العقبة • وكان للورد كرومر جاسوس يرتاد انحاء سينا تحت حمايته يدعى « براملى Bramley » التقى بكتيبة تركية بجوار طابة فوقع بينه وبينها نزاع قلبه كرومر الى نزاع سياسى على ملكية سينا وايده سير ادوارد جراى وزير الخارجية وارسل بلاغا نهائيا لتركيا • غير ان العالم الاسلامى كان فى هياج لمركز الخلافة فى هذا النزاع السياسى • ووقعت هذه الحادثة فى سنة ١٩٠٦ وانتهت بضم سينا الى مصر

(٣) كانت السياسة بين كرومر والخديو عباس حلمى الثانى سياسة خلاف الى ان غادر كرومر مصر وجاء بعده سير الدن فورست لحلت سياسة الوفاق بينهما محل سياسة الخلاف ، ولكن على حساب الامة

.. ان صح ذلك فما للكتاب وخدمة الرؤساء ؟ بل ما حاجة اللورد معقوته ومنعة دولته بخدمة كاتب خلق قلمه ليعلم الناس حقوقهم ويصرفهم عن غير المفيد الى المفيد ، لا لينتصر لذى الرياسة والقوة ؟ بل ما حاجة الجناب العالى ، وهو صاحب السلطة الشرعية ، الوارث لعرش الخديوية المصرية ، بقلم الكاتب ؟

اناشدكم الله ما حاجة كاتب القرن العشرين فى أن يكون لقلمه سيد لا يخط الا ما يرضيه ، وهو يسود الطروس مناديا بالحرية الشخصية ، مدللا على وجوب استعمال الحرية العقلية والشجاعة الادبية ؟

الامة المغصوبة العرى احوج ايها الكتاب الى أقلامكم من خدمة السلطات ، فما عز كاتب اتكل على غير الله .. ولا اثمرت نصيحة أريد بها الظهور الشخصى أو خدمة غير الحق .. فلكل عمل من نية عامله نصيب .. وانما الاعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى



ماذا يجب على رجال الحكم ؟

أيحكم أحدكم باستمرار الشركة بين شريكين استحكم بينهما سوء الظن ، أم يقول أن عدم الثقة المتبادل صائر لا محالة الى ما لا تحمد عقباه ؟ وما الامة وحكومتها مهما كان شكلها الا شريكان أساس عملهما الثقة المتبادلة، وموضوعه المال والطاعة للقانون من جانب الأمة وحسن ادارة الاعمال من جانب الحكومة ، وثمرته سعادة الأمة

نشعر كما يشعر الناس جميعا بأن الجفاء والتحرز اللذين كانا دائمى الوجود بين الأمة المصرية وبين الحكومات التى وليت أمرها تباعا فى القرنين الماضيين ، كانا قد تقلص ظلهما أو كاد فى ربع القرن الماضى بسبب اقتراب الطرفين وتفاهمهما بفضل بعض الوزراء السابقين الذين كان يكثر ترداد رجال الامة عليهم فيفاوضونهم فى كثير من المصالح العامة .. بل كان هؤلاء اذا أحسوا بأن الحكومة تشرع أمرا غير نافع خافوا عليها من الزلل ، فسارعوا الى عابدين أو الى سراى رئيس الحكومة يتظلمون أو يكاشفون بما بدا لهم من الملاحظات ، وكان يتقبل منهم سمو الامير أو وزراؤه بقبول حسن ما شاءوا أن يقولوه لمصلحة البلاد

(*) نشر بالعدد ١٩ من الجريدة الصادر فى ٣٠ من مارس سنة ١٩٠٧

اما الآن فان الوزراء قد احتجبوا عن الناس وانصرف هؤلاء عن الاهتمام بالشئون العمومية .. اكتفى الوزراء بقسطهم من النفوذ القليل ، ورضوا بما ترميهم به الصحف من عدم الاشتغال بشيء فى نظاراتهم ، ويظهر انهم تركوا كل مسئولية على المستشارين (١)

من الصعب جدا على المستشارين مهما طالت اقامتهم فى مصر ، ومهما عرفوا لغة البلاد وعاداتها واخلاقها ، أن يحلوا محل الوزراء المصريين بأن يكونوا صلة حقيقية بين الجناب العالى وعميد الاحتلال وبين الأمة .. فان الوزراء المصريين بما يكون لهم فى الأمة من المعاملة والنسب والمصاهرة ومعرفة الناس فى ادوار حياتهم الاولى ، أسهل على رجال الأمة مزارا وأقرب اليهم مخالطة ، وابعد عن تهيب الناس مقابلتهم ليكاشفوهم بأفكارهم من المستشارين الانجليز

تحجب الوزراء مهما كان سببه ، فانه على كل حال قد حل عرى تلك الصلة بين الحاكم والمحكوم وافضى الى الجفاء . أخذت الحكومة تعمل فى ادارتها على ما ترى من غير أن تجعل للناس شيئا معها فى الامر ، ولو عن طريق الاستشارة ، الا فى النزر اليسير وما يوجب القانون اخذ راى مجلس الشورى فيه استيفاء لشكل النظام

جهلت الأمة بفقدان الصلة المذكورة أسباب تصرفات الحكومة .. ولا شك فى أن هذا النوع من الجهل يولد عادة شيئا من سوء الظن . وليس رجال الأمة بريئين من تبعة هذه النتيجة لأنهم لم يهموا بعرض أفكارهم فى كل مشروع للحكومة على من يقوم به من رجالها حبا فى العمل

---

(١) كان لكل وزارة فى ذلك الحين مستشار انجليزى ، لا يستطيع الوزير المصرى ان يبرم امرا فى وزارته بلا موافقته

بالاشتراك واظهارا لاهتمامهم بشئون الامة ، ومعـــاونة الحكومة على الخير .. وذلك من التقصير بموضع لا يخفى على أحد

فلو أن سادتنا الوزراء يرفعون عنهم بعض الشيء من تلك الحجب ، وينـزلون قليـلا من عـرش الوزارة الى مستوى الأمة يستبضعون منها حاجاتها من الاصـلاح ، ويبلغونها اسرار تصرفاتهم العالية فى أمورها بما لا تعلم له نحوا ، ولو أن السلطتين ، السلطة الشرعية وسـلطة الارشاد ، اتفقتا على أن يكون الوزير هو المسئول قانونا وفعلا .. وأن يكون المســتشار هو المستشار . ولو أن الأمة فطنت الى أن الحكومة ليست امة مســتقلة عنهـا بمعــزل ، بل هى حكومتها الواجب عليها ان تقــوم على منافعها .. وأن من شأن الحكومة فى الأمم غير الراقيـــة أن تكون بمثابة الوصى . وكلما ارتقت الأمة اســتحالت الوصاية شيئا فشيئا حتى تصـبح وكالة صرفة ، وأن هذا التحول لا يكون الا بان تضيف الأمة الى تقدمها المالى والعلمى تقدما سياسيا أصله حب الوقوف على ماجريات العمل فى الحكومة حتى تشارك فيه ..

لو كان كل ذلك لمـا وجد سوء الظن سبيلا الى التفريق بين الأمة وبين الحكومة ، ولقام كلاهما بالواجب عليه

الجفاء بين الأمة والحكومة
أسبابه ونتائجه

يعلمنا التاريخ أن الامة المصرية فى ازمان بعيدة ماحكمت الا بالقوة القاهرة . ولم يكن للحكم العلمى فى أمرها نصيب .. نريد بالحكم العلمى الحكم المنطبق على قواعد علم السياسة ، كما كان ذلك حاصلا عند بعض الامم المعاصرة لها كحكومات اليونان قبيل الميلاد . كانت قاعدة حكومة مصر هى الاستبداد من تلك العصور الخالية الى الآن .. فكان ما يشرعه الحاكم من القوانين وما يأتيه من الاعمال ملحوظا فيه مصلحة الحاكم بالذات ، وقد يكون منطبقا على مصلحة الامة بالعرض ، أو من غير قصد .. كانت الحكومة دائما اجنبية تخالف الامة فى الجنس او فى الدين واللغة والعادات والاخلاق ، او فيها جميعا .. كانت الامة بذلك فى غاية التحفظ والاحتراس من أن تخلص لحكومتها اخلاصا حقيقيا ، كما كانت الحكومة أبعد من ان تستحق ذلك الاخلاص . غير أن الناس كانوا مضطرين لمصانعة الحاكم يستقبلونه ببشر كاذب وقلوبهم تلعنه ، يظهرون له الطاعة بأقوالهم وافعالهم ، ولكن قلوبهم عاصية كارهة ، يتحرون ارضاءه بالالفاظ ويمتدحونه فى وجهه فاذا انصرفوا عنه وخلوا الى انفسهم دعوا الله وتمنوا لو

(*) نشر بالعدد ٢٢ من الجريدة فى ٢ من شهر ابريل سنة ١٩٠٧

شالت نعامته وتقلص سلطانه ..

بقيت هذه الاحساسات فى الامة ازمانا طوالا متوارثة من الآباء ، فافسدت كثيرا من الانفس واضاعت الحرية العقلية ، والشجاعة الادبية التى هى طبيعة فى النفوس ، وولدت تلك الاسباب جميعا سوء الظن بين الحاكم والمحكوم

تلك هى الطبائع التى يغرسها الاستبداد فى النفوس ، فيحتاج اقتلاعها منها الى أمد طويل فى الحرية بجميع معانيها ، واخذ بالتربية الصحيحة ونظر فى البراهين التى يجب ان تقدمها الحكومة للامة على اثبات حسن قصدها، وانها تخالف الحكومات السابقة فى مقاصدها من المشروعات

فلا يعجب أحد أن يرى الاسرة المصرية ، رجالا ونساء ، تبكى اذا اصاب الاقتراع احد ابنائها للخدمة العسكرية(١) وليس مصدر ذلك الجبن ، ولكنها عادة أصابها عدم ثقة الامة بالحكومة ، واعتقادها ان التجنيد هو فى مصلحة الحاكم دون المحكومين ، ولو كان لهم قوة على الحكومة يمنعون بها بنيهم لفعلوا .. ولئن سألت أحدهم لماذا تبكى على ابنه المجند لعبر لك عن شعور مبهم لا يعرف مصدره، فيقول : انها لوعة الفراق وآلام البعد المنتظر هى التى تذرى عبراتى .. كل ذلك نتيجة من نتائج الجفاء المؤدى الى سوء الظن

لا يعجب احدكم ان يرى أكثر الناس فى القرى يجتهدون فى أن يحولوا بين متهم فى جريمة وبين اثبات التهمة عليه .

---

(١) كانت الاسر المصرية الى ما قبل العهد الاخير تكره التجنيد للجيش كأن الجيش ليس منها ! وتعتبر الخدمة العسكرية لمصلحة الحاكمين لا لمصلحة البلاد

وليس كل السبب لهذا القيام ما تمليه العصبية القريبة أو تفضيل الظلم على اقامة العدل ، بل هو اعتبار أن الحكومة وأعوانها لا يسعون لمصلحة الامة فيقف الناس خفية فى طريق أحكامها ، ولو تبين لهم ان ما فيه العدل . وتلك أيضا نتيجة من نتائج الجفاء .. نرى الناس يسهل عليهم جدا ان يدلوا بأموالهم الى الحكام رشوة او عطية ولو كان الحاكم مشهورا بالعفة . وما سبب هذا : لا الكرم فى غير موضع ، ولا المحبة ولكن فى نفوسهم اعتقادا أصيلا أن الحـــاكم لا ينتصر للحق الا اذا أفاد مقابلا .. فليس ما يسمع الناس من حوادث الرشوة آت كله من عدم استقامة الحكام ، بل يشاركهم فيه احساس الفلاحين بأن غالبهم لا يصـــدقون أن الحاكم يقوم بالعدل لمصلحة المحكومين من غير أن يكون له هو أيضا نصيب من الكسب

تلك نتيجة أيضا من نتائج الجفاء .. ترى النـــاس يستاءون من أن تشرع الحكومة بعض المشروعات النافعة التى يمكن أن تئول عن سوء الظن بضرر خفى محتمل . ويرجحون الضرر المحتمل البعيد التحقق او المستحيل على النفع الظاهر القريب .. فكنت ترى كثيرا من النـــاس يستقبلون مشروع بناء الخزان كما كان يستقبل الاعرابى البشرى بالانثى ، كاسف البال ، يتوقع من وراء هـــذا نتائج غير محتملة الوقـوع . وليس كل السبب فى ذلك القلة فى الفهم او الخطأ فى التقدير ، وانما أكبر السبب هو اثر فى النفس من آثار سوء الظن .. حسبنا ما ذكرناه من الاسباب العتيقة ، أسباب الجفاء بين الامة وبين الحكومة ونتائج هذه الاسباب التى لا يزال بعضها بين ظهرانينا الى اليوم

كان من الواجب علينا من يوم أن وجد للامـة حرية

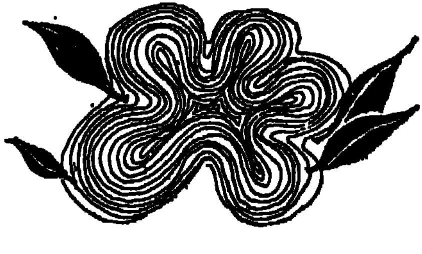
نوعية وارادة جزئية قبيل الاحتلال الانجليزى ، أن تعمل عمل المجد الدائب لازالة أسباب الجفاء ومحو نتائجه وآثارها التى فعلت بأخلاق الناس ما لا ينكره أحد . ولكن جاءت الثورة العسكرية فى غير وقتها وتبعتها على أصحابها . ثم جاء الاحتلال فغير مجرد حصوله آمال الناس فى التقدم، وحول بارقة الفكرة التى كانت نشأت لحب الاستقلال الى اعتقاد عام فى الامة بأن هذه الحكومة أو السلطة الجديدة ، هى أشبه بالحكومات الغريبة القديمة، لا تعمل الا لامتهان الرعية واستعبادها

استفادت البلاد على يد الاحتلال بمعونة الحكومة الشرعية شيئا كثيرا من الاصلاحات المالية ومن الحرية الشخصية والمساواة بين الافراد والعدل .. ولكن ذلك لم يمح كثيرا من سوء الظن . وتبعة ذلك على الحكومة وعلى الامة ومرشديها ، فان الحكومة تختلف كثيرا على نفسها وذلك مما يجعل الامة فى ريب من مقاصدها فى مشروعاتها . ويظهر انها ظنت أن تكثير عدد الموظفين من الانجليز ،سواء كانوا مفتشين أو غيرهم ، قد يزيل هذا الجفاء ذا الاسباب العريقة فى القدم بمجرد اقامة العدل أو شىء من المجاملة المتكلفة فى المعاملة .. ولكن ذلك أنتج استقامة فى الموظفين الوطنيين ، الا انه جعلها استقامة انفعالية أو بعبارة اخرى استقامة مقيدة بالمراقبة الضيقة الدائرة المستحكمة الحلقات التى هى أولى بأن تفسد على الموظف حريته واستقلاله العقلى ، من أن تكسبه اياهما .. فجعل الناس يظنون أن انجلترا تريد أن تبتلع مصر لا أن ترقيها ،وتقوى مدنيتها لتكسب محبتها ولتكون هى أولى جميع الدول بالامتياز فى بلادها ، كما يقول ساستها ، وكما كان يؤخذ من قول السير درومند وولف فى مشروع المعاهدة سنة ١٨٨٧ ٠ حسنت حال اعمال الرى والمالية فقالوا : ان ذلك

لارنساء أصحاب القراطيس المالية فى أوربا . حسن حال العدل فقالوا ان العدل أساس الملك ، وبغيره لا يستتب أمر السلطان

وما كان ذلك من شـأنه يهيج الانجليز ويجعلهم يظنون اننا ننكر الجميل ، لان هذا الجفاء القديم لا يزول بالاعمال التى يمكن تأويلها كما ذكرنا ولو عن طريق بعيد لغير مصلحة الامة لذاتها .. وان بيد الانجليز ازالة هذا الجفاء بمعونة الجناب العالى والامة

أما علاجه فهو اقناع الامة بالحس باصلاح حالتها التعليمية والسياسية بنفس الهمة التى أصلحت بها الاحوال المالية . أمر التربية واجب على الامة تقوم به من جانبها هى ومرشدوها كاصلاح الاسرة المصرية ، ولكن صلاح الحالة السياسية والادارية يتعلق بالسلطتين معا .. وذلك بأن يكون للوزراء نفوذ وصلة بالامة ، وأن يتدرج ذلك من الوزراء الى الموظفين فى الاقاليم ، وأن تكون المراقبة مقصورة على معناها ، وأن تسمح السلطتان باشتراك الامة فى عمل الحكومة بالتدريج حتى تصل الى المرتبة التى تقصد الحكومة الانجليزية منحها أياها . وبذلك يحصل التعارف الكامل بين الامة وبين حكومتها ، ولا تعود احداهما تجهل مقاصد الاخرى .. فان من جهل شيئا عاداه



القول الذهبى والقول النحاسى

يقول ابن البلاد كلمة تخالف هوى بعض أصحاب الجرائد فيرمى بما اعتادوا أن يرموا به مخالفيهم • ويقول الاجنبى الكلمة نفسها بالتمام فى وقت يناسب هواهم فيعدها كلمة «ذهبية» وينسى انها كانت بالامس «نحاسية» أو أقل .. فما السر فى هذا ؟

كنا قلنا ما معناه : ان الامانى فى المسألة المصرية ليست بسيطة يمكن تحقيقها حالا ، وانه من العبث الاستنجاد بالدول الاجنبية ، وأن التماس مداخلتها لا يفيد ، وان الهياج يضر ، وانه لا شىء أنفع للمصريين من اعتمادهم على انفسهم لتحصيل الكفاءة بالمجموع • وكل هذا ثابت فى كتاباتنا المتعددة والمتنوعة ، فقام بعضهم يتخرصون فى شأننا ويرموننا ويظنون ان هذا يحزننا ، كلا وانما يحزننا أمران : الاول ـ أن يضيع الرأى العام فى ضوضاء هذه الاهواء ، والثانى ـ أن تكون المناقشة فوضى الى درجة أن أحدهم يذم منك الشىء ويمدحه من غيرك • ان الشواهد لهذا كثيرة ، وآخر شاهد منها مقالة مسيو « فلورنس » وزير خارجية فرنسا سابقا فانه جاءت فيها نصائح للمصريين هى عين ما كنا نقول ، فلقبت هذه « ذهبية » •• ويعلم القراء ما كانت اعطيت كلماتنا قبل من الالقاب

(*) نشر بالعدد ٢٣ من الجريدة فى ٣ من شهر ابريل سنة ١٩٠٧ بعنوان «الفرق بيننا وبين الغريب»

يقول صاحب هذه المقالة : « ان الواجب على الشعوب كلها أن تضم أصواتها الى أصوات المصريين فى النداء بتحرير وادى النيل والسعى جميعا الى هذا الفرض الشريف »

ونحن لم نقل هذا القول لاننا نعرف تلك الشعوب التى أوجب عليها الكاتب ما أوجب ، ونعرف كما يقول هو فى المقالة نفسها انه : « لا توجد الآن دولة من الدول مطلقا تريد أخذ هذا العمل على نفسها أو تقدر عليه » ويقول الكاتب : « لكن لا يسعنا كتمان ما فى تحقيق هذه الامانى من الصعوبات ، فان من الحمق والجنون اعتبار المسألة بسيطة يمكن تحقيقها حالا كما أنه من العبث التغرير بالمصريين بمثل هذه الامانى الباطلة »

فالى من يوجه هذا الكلام يا ترى ؟

ان هذا الكلام لو صدر منا ونحن أبناء البلاد لرمانا اخواننا (فى الطين والدين) وقالوا انهم يريدون اخماد شعلة الوطنية وتنويمها ، ولقالوا أننا انما نقصد فلانا وفلانا: فياللعجب ! والف مرة يا للعجب ! ان الذين يظن أن يوجه اليهم هذا الكلام (لو قلناه نحن) هم الذين نشروه واطروه .. فما الفرق بيننا وبين الغريب ؟

***

يقول الكاتب : « المصريون يعتمدون على أنفسهم » وقد اخطأ بهذا التعبير .. ولعله قصد ان يقول فلا ينبغى للمصريين أن يعتمدوا على احد الا على أنفسهم . نقول اخطأ لاننا لما قلنا يجب أن نعتمد على انفسنا قامت القيامة وقالوا اننا لا نريد لهؤلاء النفر من قومنا أن يستغيثوا « بروبرتسون » فقلنا لهم افعلوا ما بدا لكم ، واستغيثوا ما شئتم ، ولكننا لسنا معكم من المستغيثين

يبحث هذا الكاتب فى الوسائط التى يجب على الامة اتباعها لتحرير نفسها .. فذكر أولا الاستنجاد بالدول فقال انها واسطة يرتاب فى نجاحها . وقد اخطأ بالتعبير اذ قال «يرتاب» والصواب أن يقال « يقطع بعدم نجاحها ، الا أن تكون الجزء الاخير من العلة المركبة » ، وهذا يؤخذ من كلامه نفسه لانه قال : « فانت ان حاولت الاستنجاد بدولة وانجدتك ، فما يكون شأنك الا الخلاص من سيد ، والوقوع فى ربقة سيد آخر . وليس هـذا مما يستحق التعب والجهاد »

وذكر ثانيا الثورة وهو لا يصوب الراى فيما يقول : « لان الثورة ان خابت فما يكون شأن الامة بعدها الا زيادة القهر والاستعباد وابعاد الامل فى الوصول الى الغرض ، وان نجحت فماذا يكون حظ الناس بعدها وهى تقطر دما والاهواء والشهوات جميعا هائجة ثائرة يكون حظهم الفوضى، والفوضى تؤدى الى السقوط التام . ثم ذكر ثالثا واسطة اخرى فقال : « بقيت واسطة واحدة وهى ابطأ فى الوصول الى الغرض ولكن آكد نجاحا وهذه الواسطة هى تكوين راى عام وطنى وتغذيته غذاء مستديما حتى يقدر ان يؤثر فى اخراج العنصر الاجنبى شيئا فشيئا من وظائف العمل والحكم واحلال العنصر الوطنى محله »

ونحن نرى هذا الراى ونذهب هذا المذهب ، ولكن هل الطريقة فى تكوين الراى العام أن يقوم واحد أو اثنان براى، حتى اذا قام مئات من الامة براى يخالفه بعض المخالفة ، عدوا مارقين من الوطنية .. أفهكذا يتكون الراى العام ؟.

أهذه كل البلاغة : وهل هذه كل الحجج ؟ ..

يقول مسيو « فلورنس » ان المسألة المهمة فى الموضوع هى انشاء روح وطنية لا روح عناد ولا اضطراب ، بل روح

تحترم أولياء الامر اذا لم يتجاوزوا حدود وظائفهم .. انه لقول نفيس « ذهبى » ، ولكن مثل هذا القول بالتمام قلناه نحن فى مستهل جريدتنا فكيف قوبل ؟ اننا نحن قلنا « أن أسهل سبل الاقناع واكدها فى الوصول الى الفرض هو سبيل المحاسنة التى لا تجر الى ترك حق أو تزيين باطل » فما كان من بعض الجرائد « الوطنية» الا اعدام هذا القيد (التى لا تجر الى ترك حق او تزيين باطل) وتسميه المحاسنة التى تكلمنا عنها محاسنة مطلقة . وبنت على ذلك سؤالا طويلا لا يرد فى مثله جواب ، ولم يكن من لزوم لاعادة هذا الماضى ، لولا ما احزننا من هذه الفوضى فى المناقشات والدعاوى ، وما آلمنا من نفوذ الاجنبى فى كل شيء حتى فى رأى بسيط يبديه ، وحتى صاروا يذمون الكلام ان صدر من ابن البلاد ويمدحونه نفسه ان صدر من الاجنبى

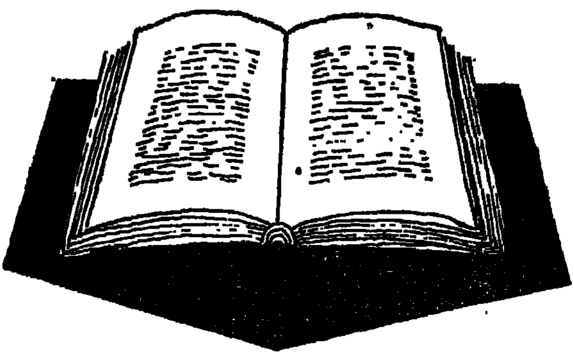
فهل بلغ الفرق بيننا وبينهم الى هذا الحد ، وهل نثبت هذه الفروق يوما وننفيها يوما ؟ فالى متى هذه الحال ؟ وماذا عسى أن تكون نتيجة هذه المقدمات ؟ .. ان الاستقلال الفكرى هو من جملة أمانينا ، فكم يألم أحدنا اذا لم يجد للاستقلال الفكرى أثرا حين يرى قادة الافكار منا يستحسنون ويستهجنون أقوالا واحدة بعينها بالنظر لقائليها ، لا بالنظر اليها نفسها ؟!

فبالله كيف نرقى اذا كان استقلالنا الفكرى هذه درجته أمام العيان .. الا فليتق اخواننا الحساب ، فانه خير لهم ولهذا الوطن العزيز

نحن لا ندعى علما كعلم « فلورنس » ولا مقاما فى الوجود كمقامه ، ولكن يحزننا أن يتجسم الفرق بيننا وبينه الى درجة نحار معها فى تأويل ذم قولنا ومدح قوله

وهما سواء .. ويحزننا الا نرى للاستقلال الفكرى اثـرا فى عالمنا ، على حين أن أمامنا مطالب غالية

ان الاستقلال الفكرى فوق كل شيء ، فيؤسفنا أن نراه مقضيا عليه الى هذا الحد .. وعسى أن نراه يوما ما حيا يتجلى فتعرف به الاشياء كما هى ، ولا ينظر للغريب بعين ولابن البلاد بعين غيرها



مذهبنا ومذهبهم

ان الجريدة لم تنشأ لان تحابى السلطة الشرعية أو الفعلية • ولا لأن تعادى واحدة منهما ، ولا لان تنتصر لاحداهما على الاخرى •• بل انشئت لامر أرفع من ذلك واسمى .. انشئت لتنصر الحق الذى خـــذله كثير من الكتاب خدمة لاغراضهم الذاتية ، ولتبين للناس الحقيقة التى يجتهد اغلبهم فى سترها عن الامة طمعا فى نعمة تتدلى اليهم ، او تتهيأ من قوة يتوهمونها فى سبيلها او جريا على عادة رسخت فيهم .. ولكى توضح أن هناك مصلحة يجب ان تضحى فى سبيلها كل المصالح ، ومقاما يلزم ان يكون أرفع المقامات واقدسها .. وهما مصلحة الامة ومقامها . وان فيها قوما يألمون لكل تصرف يضر بهذه المصلحة أو يحط من ذلك المقام ، ويعملون على منعه والانتقام له مهما كان مصدره بكل الوسائل الشريفة التى اباحها القانون . ومؤسسو الجريدة يعلمون قبل انشائها أن هذا العمل من أصعب الامور وأدقها وأشدها خطرا عليهم ، ولكنهم وطنوا انفسهم على ملاقاة هذا الخطر من غير مبالاة .. لانه لا يمكن ان تخدم البلاد خدمة حقيقية الا اذا لم يبال اهل الراى فيها بالصعوبات التى تصادفهم فى سبيل الجهر بالحـــق واعلاء كلمته ..

(*) نشر بالعدد ٢٥ من الجريدة فى ٦ من شهر ابريل سنة ١٩٠٧ تحته عنـــوان « عود على بدء : مذهبنا ومذهبهم »

ولقد يجد الظالمون انفسهم فى هذه الخطة ما يروج بضاعتهم . ولكن الجريدة لا تحفل بسعيهم ، ولا تعـــول فى أداء ماموريتها على التلميح ، بل على التصريح ، لانهاتعد التورية فى مقام البيان مواربة لا تليق بشأن الاحرار .. ولا يصح الاعتماد عليها فى كشف الحقيقة وتنويرالافهام..

وبعد هذا يقول المؤيد (١) بأن بعض الشركاء شافهه بعدم الرضا عن خطة الجريدة . فما كان اغناه عن هذا السعى العقيم النتيجة ، الذى لا يضر الجريدة فى شىء . ولو أن المؤيد وقف عند هذا الحد من التذرع للايقاع بالجريدة لما سمع منا قولا ، ولكنه سامحه الله يدعى انا اشرنا بقولنا « الارادات المستترة » الى أن الجمعية العمومية كانت فى قراراتها متاثرة بسلطة سمو الامير .. على انا قلنا فى كل موطن من مواطن ذكر الجمعية العمومية وفى التعليق على أقوال بعض الجرائد قولا صريحا بانا نعرف شخصيا أن رجال الجمعية العمومية الذين نعرفهم لم يكونوا متاثرين باى سلطة مطلقا

نقول للمؤيد ان لكل مصرى حق الراى على ما يصدر من رجال المعية السنية (رجال الخديو عباس) من الاعمال فيقوم يهدد ويتوعد ، ويقول ان هؤلاء الموظفين لا ارادة لهم ، انما يعملون كل شىء بارادة سمو الامير .. يريد بذلك أن يستدرجنا الى آن يثبت علينا ما يظنه تهمة وهى القول بالرأى فى عمل الامير ـ له ما طلب ـ كانا به يقول ان الملوك والامراء معصومون ، وأن تابعيهم من البطانة متى حلت فيهم هذه الارادات أصبحوا كذلك .. فلا يحل لاحد أن يتكلم عن الامراء الا بالاطراء والثناء ..

---

(٢) يقصد جريدة المؤيد للشيخ على يوسف ، وطالما وقعت بينهما وبين صحيفة «الجريدة» مساجلات ، هى وجريدة اللواء لمصطفى كامل

مذهب جديد فى الاسلام ! .. يظن به المؤيد أنه يرضى سمو الامير ، ولو اغضب ذلك العقل والدين والطبائع والناس أجمعين ..

رويدك فانه لا يستطيع أحد أن يحط بكرامة المعية بحق أو باطل بمقدار ما فعل المؤيد من أضافة التقديس والعصمة لها ، وجعل رجالها مجردين عن الارادة كما لا يستطيع أحد أن يجهم وجه خدمة الانسانية بستر مايجب فى حق الامراء من حب الحق والعدل والانتصاف من انفسهم بمثل ما يقول المؤيد ..

هل يليق بورثة ابن عباس وأبى حنيفة الذى جلس ليتولى القضاء فأبى ، أن يأبوا على انفسهم وعلى الناس الاجتهاد بالراى فى عمل الامير وبطانته رغبة أو رهبة ؟ أم يليق بورثة روسو فى الارشاد الى الحرية والاستقلال أن يحدوا من استقلال الافراد فى الراى بالتهديد والوعيد ، وان يستبيحوا الغرض الذاتى فى خدمة الامة ، وان يتصدى احدهم للاستجواب عن المسئول عن التحرير وغير المسئول كأنه اقام فى خياله محكمة الاراء ليصدر الاحكام على من يخالفه فى الراى .. لانشك بعد ذلك فى أن من يقول هذا القول يستهين بأفكار الامة بأسرها ، ويظن انها من السذاجة بموضع يسمح له بأن يقول ما شاء من الايهام

على أن الامة المصرية يجب أن تكون أرشد من ذلك بكثير .. ويظهر ان هذا الاسبوع ، هو اسبوع جبروت الجرائد ، فما أشبه التيمس فى وعيدها بالمؤيد فى تهديده ، جرحت التيمس المصريين فى شخص اميرهم ، فما أبعد هذا عن غرض الانجليز فى كسب صداقة المصريين • ودافع المؤيد عن سمو الامير بما يقتضى انه لا يميل الى أن تكون اعمال بطانته موضع انتقاد باخلاص •• وما أبعد هذا عن ميل

ان أميرا شريفا مسلما كأميرنا يدين بكثير من عرشه الى الاسلام وخلافة المسلمين لجدير بأن يقول كما قال عمر: « من رأى منكم فى أعوجاجا فليقومه » ويغبط بان يبيح لكل مصرى القول بالحق ورفع النصحية بالاخلاص

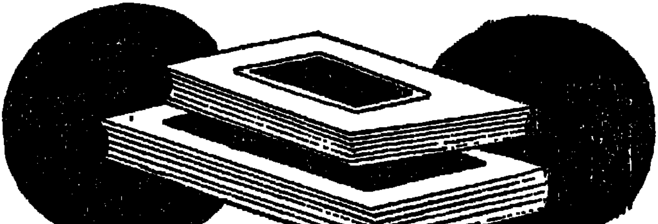
ان أميرا عاليا كأميرنا تربى تربية عالية عصرية سداها الحكمة ، ولحمتها الحرية ، يكره الاستبداد وطبائعه ويحب مشاركة أمته اياه فى العمل كما صرح للملأ ، ويقبل تحت رعايته الجامعة المصرية التى تخرج الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، لجدير بأن لا يقبل ان تكون أفراد حاشيته مسلوبى الارادة كما وصفهم المؤيد

فمتى بطل مبدأ المؤيد من هذا التقديس القديم ، نقدم للقارىء المبدأ القويم وهو الذى نعتقده ونقول به . ان الامير صاحب السلطة الشرعية مصدر القوانين ، يجب على كل فرد ومجموع أن يحترمه احتراما تاما ويطيع قوانينه سرا وعلانية ، كما يجب ان يذيع الكتاب عنه أعماله المبنية على الحق والعدل ليأمن الناس فى حكمه ، وتزداد طاعتهم للقوانين وثقتهم بمصدرها .. وأن يرفع اليه كل منهم النصيحة ومواطن الم الناس (ان كان) نصيحة لا يخالطها رغب فى تقريب ، ولا رهب فى اقصاء . بذلك يؤسس الحكم على الحرية ، وتنفذ قوانينه بالرغبة دون الرهبة .. وفى ذلك سعادة الحكام والمحكومين

ومن الناس رجال قلدوا بعض الكتاب ، فأصبحوا يقولون ان الحق لا يصح أن يقال منا على انفسنا .. ويظنون ان هذا ضرب من ضروب السياسة ، كما أنه يجب على كل فرد منا أن يكون سياسيا يستر عيب نفسه وذويه وأمته والادارات الوطنية ويكشف الستر عن عيوب الغير

وادارات المملكة للانجليز .. ولا يعلمون ان ألحق المتعلق بالمبادىء والاعمال العامة يجب أن يقال دائما ، لاسيما اذا كان وجهه غير خاف على المطلعين كما لا يعلمون أن السياسة ليست من أخلاق الامم ، وانها مع ذلك لا تخالف قـــول الحق فى شىء . ان اتباع ما يذهبون اليه هو الذى يفضى بالاخلاق الصحيحة الى البوار ، وان فى العمل به تحقيقا للتهمة الموجهة الينا كل يوم من الانجليز والاجانب ورمينا بعدم الكفاءة

فالواجب علينا عمله تلقاء هذه الآراء ان نصرح بالنقد تصريحا ، سواء فى ذلك أعمال المحتلين أو اعمالنا .. فانه آن للعقول أن تفك من قيود ألوهم ، فقد أضناها القيد ، وان تعرض ما عندها على سوق الأفكار ، حتى يبين الصالح من الفاسد .. فان حياة الباطل فى غفلة الحق عنه



تقديس الحكومة
ينافى الكرامة والاستقلال

لبعض الهنود تمثال يعمله بيده ، فاذا هب من نومه فى الصباح لا ينطلق لعمله الا اذا قدم لذلك الالــــه الذى صنعه بيده آيات الحمد والشكر .. وهذه هى صـــــلاة الصبح عندهم

اظن اننا لا نملك أنفسنا من الابتسام لهذا القصص.. ولكنا اذا رجعنا الى انفسنا وجدنا أننا نعمل كل يوم أعمالا مضحكة تكاد تكون فى أصلها كعمل ذلك الهندى وان كانت صورتها أقل جفاء

الحكومة وكيلة عنا .. نحن نصبناها للقيام بأعمالنا ، نحن الذين نرزقها بأموالنا ، وندفع عنها بأولادنا ..ولكنامع ذلك نقف من افرادها موقفا يقرب من موقف الهندى أمام تمثاله ، وان اكبارنا للافراد العالين منها كالنظار ومن دونهم يتطرق دائما لاكبار ادنى المستخدمين حتى اعسكرى النقطة، فانه فى نقطته لابسا كسوته الرسمية تراه محفوفا دائمـــا برجاء من حواليه رجاء يكون فى مواطن كثيرة بالغا حد

(*) نشر بالعدد ٤٥٤ من الجريدة فى ٢ من سبتمبر سنة ١٩٠٨بعنوان: « روضوا انفسكم على الاستقلال »

العبادة ، لان العابد لا يعمل لمعبوده الا خشوعا ورجاء ٠٠ فهل يمكن بعد هذا ان تضحك من الذى يقدس ما صنعت يداه ؟

ان هذا الاحساس الذى يدفعنا الى المبالغة فى تمييز افراد الحكومة فى الاجلال على أفراد الامة ، هو الذى يبعدنا دائما عن نيل الاستقلال ، بل هو الطابع الذى يختم به فى عنق الفرد المحكوم بالحكومة الشخصية علامة على أنه لا يزال يحس بعبادة البسالة ، عبادة القوة التى هى قوام الحكومة الشخصية

يمكننا أن نقول ان هذا الاحساس قد تقلص ظله ، ووجدت فى مصر امثلة تدل على ان الامة تتخلص منه،ولكنه لا يمكننا أن ننكر مع ذلك أن طلاب الرتب والنياشين من وجهائنا ، وطلاب الارتزاق فى خدمة الحكومة من شبابنا، والمغالين فى طمع الارتقاء من موظفينا ، لا يزالون يقفون من رجال الحكومة ذلك الموقف المضحك المعيب ،موقف الهندى من صنمه ٠٠ على أن هذا لا يمنع من أن لدينا رجالا فى الامة لا يفرقون بين زيد وهو حاكم ، وزيد وهو محكوم، ويأخذون من الحكومة حقهم ، ويعطونها حقها ، ويعتقدون أن الحكومة فى مجموعها وافرادها ليست الا وكيلا نصبته الامة ، لان الامة هى الكل فى الكل ، ومقامها فوق كل مقام

ولكن هل يليق بذلك البعض من أعياننا وموظفينا ــ ونحن على باب الدستور ــ أن يكون هو الحجة الحية علينا للذين يرموننا كل يوم بضعة الاخلاق ، وعبادة السلطة ، والغفلة عن فهم معنى الحكومة النيابية ؟

والموظفون فى كل بلد مظهر الطبقة الراقية فى العقل والعلم ، فاذا كان الموظف المصرى يتوكل فى مستقبله على

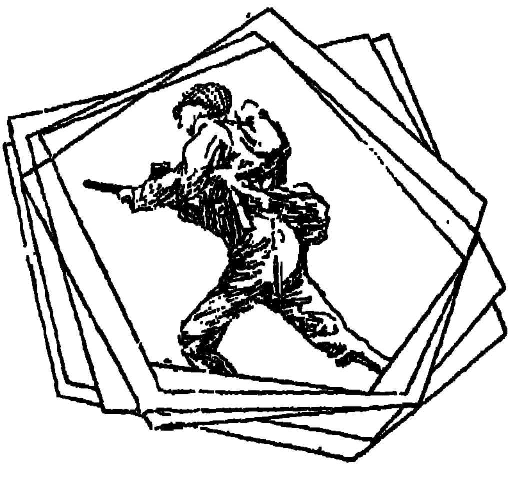
مجرد الخضوع للرئيس ، ويعتمد في تنفيذ عمله على اذلال افراد الامة الذين تسوقهم الصدفة اليه في مكتبه .. اذا كان هذا الموظف يلذ له ان يكون عابدا لمن فوقه معبودا لارباب الاعمال عنده ، فلا شك في ان وجوده عار على مصر والمصريين ، بل على الانسانية باسرها .. اذا كان بقاء ذلك الموظف في الخدمة سيكون حجة على قومه بالضعة والمهانة، فاحر به أن يرى سف التراب أكرم له من ذلك البقاء الدنس المضر

الاعيان هم رؤساء الامة الطبيعيون ، هم رؤساء العائلات ، والامة لا تتكون من الافراد بل تتكون من العائلات .. فاذا كان احدهم يرى ان الرتبة لا تأتيه الا من عبادة غير الله والخضوع لغير القانون ، فان رتبته انما تكون مميزة له عن اشراف الناس لا عن سرقتهم .. بل تكون شارة له انه يدوس بقدميه شرف امته وشرف الانسانية . ومثل ذلك العين حقه ان يتوارى ، من المصريين الذين يعوق بعمله سيرهم الى التقدم ، ويعين خصوم الامة عليها . وما هذا على نفس الحر بقليل

نسوق هذا القول لا لمثل جديد وقع بين ظهرانينا ـ لا قدر الله ـ ولكن لبيان انه يجب علينا أن نروض انفسنا من اليوم على الاخلاق الدستورية فانها هي التي ستجيء لنا لا محالة بالدستور في وقت قريب

الفصل الثاني

نحن والاستعمار



تواكلنا وتوكلنا

اذا كان حل المسألة المصرية ، أو استقلال مصر ، أمرا أوربيا محضا كما قال لورد كرومر ، فلا شك عندى فى أن جميع الاعمال التحضيرية التى تؤدي حتما الى الاستقلال هى بيد المصريين ، ومن اعمالهم الذاتية التى لا دخل لاوربا فيها .. المصريون هم الذين يقومون بتعليم أنفسهم وترقية احوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ثم لا يكون من عمل أوربا بعد الا الاعتراف لهم بالاستقلال . المصريون يقومون بوضع المقدمات المنتجة للاستقلال ، وأوربا تعترف بذلك الاستقلال .. فعمل أوربا لنا لا يمكن أن ينتظر مطلقا قبل أن نفرغ نحن من القيـــام بواجبنـــا الوطني الاقدس ، الذى هو اســـتجماع كل الاســـباب المؤدية للاستقلال .

غير أننا فى الماضى قد أخطأنا فى تقدير الواجب علينا ، وألقينا مسئولية العمل لاستقلال مصر عن عاتقنا الى عاتق غيرنا .. فعلقنا آمالنا فى أول الامر بالآستانة ، أى بحكومة جلالة السلطان صاحبة السيادة علينا ، وبقينا ننتظر نتائج

(*) خطبة القيت فى نادى حزب الامة بسراى البـــارودى وكانت بشارع غيط العدة بجوار باب الخلق، ونشرته بعدد الجريدة رقـــم ٣٦٢ الصادر فى ١٧ من مايو سنة ١٩٠٨ بعنوان « الحالة الحاضرة »

ما يعمله لنا الاتراك .. فلم ننل من وراء ذلك شيئا ، حتى أن الانجليز أنفسهم قد عرضوا شروط الجلاء سنة ١٨٨٧ وحفظوا لانفسهم امتياز الدخول فى مصر اذا جرى فيها من الحوادث ما يدعو لدخول دولة أجنبية . ولكن فرنسا التى لم تكن تطفأ نار مطامعها فى مصر الى ذلك الحين ، ولم تكن خمسة الاعوام التى مرت على الاحتلال كافية لجعلها تنسى أسفها على عدم مشاركة الانجليز فى الدخول الى الاسكندرية ، والتى كانت صاحبة النفوذ الاول فى مصر قبل الثورة والتى تعرف أن حصول انجلترا على امتياز فى مصر من شأنه أن يقضى على نفوذها فيها ـ قد زينت للباب العالى عدم قبول الشروط الموضوعة للجلاء ، فظلت المسألة على ما كانت عليه

أنسنا وقتئذ من غيرة فرنسا الظاهرة على مصالحنا ، وطمعنا فى مساعدتها ايانا على نيل استقلالنا .. فولى جماعة منا وجوههم شطر باريس ، وما جنينا من وراء ذلك الا وعودا من بعض النواب الفرنسيين قد ذهبت بها الايام غير أن حبل الرجاء ما زال معلقا بحكومة فرنسا حتى قطعه نهائيا الاتفاق الفرنسى الانجليزى سنة ١٩٠٤ .. عند ذلك تقطعت بنا الاسباب ، ولم نشأ أن نقصر مجهوداتنا على العمل لاستقلالنا فى داخل بلادنا ، بل تطوح بعضنا الى لندن ، وصرنا نعلق الامال فى نيل الحكومة الذاتية والاستقلال النوعى ، مرة على وزارة الاحرار وأخرى على اعضاء البرلمان ، وثالثة على حسن الشهادة فى حقنا من المعتمد البريطانى فى مصر

تواكلنا وتوكلنا فى استرداد حريتنا القومية على جاذبية المعتمد البريطانى ، أو على أخلاقه الشخصية وعظم تأثيره فى وزارة أمته ، كما تتوكل الرعية الضعيفة فى اقامة

العدل بينها على الاخلاق الشخصية لملكها المستبد • ونحن في هذا لم نلحظ انه اذا كانت تركيا وفرنسا لم تعملا شيئا لاستقلالنا ، فان انجلترا التى ما احتلت بلادنا الا لمصلحتها ـ هي للعمل لمصلحتنا أبعد كثيرا من تركيا وفرنسا • صرنا نعلق الامل بمعتمد جديد يجيء فيشهد لنا لا علينا ، ويوفى بعهود أمته فى انالتنا الحكم الدستورى تدريجيا ويمحو سوء التفاهم • وبالجملة كان يؤمل كثير منا أن هذا المعتمد الجديد مبعوث وزارة الاحرار الجديدة ، سيحمل لنا من بلاده ما يستطيع نقله من حرية قومه ، وينقل الينا هيكلا من هياكل الدستور ، ويربط بحذقه وحسن نيته ثقة أوربا المالية بنا ثقة أكيدة يفيض منها الذهب ، وتسعد بها البلاد •• كل ذلك كنا نعتبره المقابل لمطالبنا المجردة ! ! مضحكات مبكيات ! ؟

أجل كان اللورد كرومر يسير فى سياسته على ضرب من الاستئثار بالسلطة تقتضيه مصلحة الاستعمار : انماء فى الحركة الاقتصادية يأمن به الاوربيون على مصالحهم فلا يحركون ساكنا فى المسألة المصرية ، وضغط شديد على التعليم فى مدارس الحكومة وايقافه عند حد يضمن عدم نبوغ المصريين وتقدمهم فى العلم ، واعتبار الموظف المصرى دائما آلة فى يد الموظف الانجليزى حتى يفقد البقية الباقية من ملكة الحكم ، وليستوى فى العبودية أمام الانجليز الرفيع والوضيع والموظف وغيره ، واعتبار الامة برجالها كمية عاطلة عمياء لا تبصر مرئيا ولا تعترف بجميل ، واذاعة الاخبار عن تعصب المصريين واضطرابهم فى جميع أرجاء العالم حتى يبرر تصرفه فى مصر على ما يشاء .. تلك هى سياسة اللورد التى يكون من جرائها القضاء على كل رجاء مصرى فى الاستقلال

جاء السير الدون غورست (١) تستقبله الامةبما ذكرنا من الآمال فى تغيير سياسة سلفه تغييرا جوهريا .. وها هو ذا قد اقام بين ظهرانينا عاما كاملا تفشت فى خلاله الأزمة المالية تفشيا هائلا ، فلم يشأ أن يمد يده لمساعدة الأمة باية صورة من الصور ، رغما من الحاح جميع طبقات الأمة . ثم رمانا آخر العام بتقرير يبين فيه سياسته ، فلم نجد مخالفة مطلقا بينها وبين سياسة سلفه .. بل كأن تقريره وتقرير سلفه مكتوبان بقلم واحد . نعم يوجد بين سياستهما فرق واحد ، هو اتفاق بينه وبين صاحب السلطة الشرعية (٢) على صورة لم نعهد لها مثيلا فى أيام سلفه .. وقد إيده بما ذكره فى تقريره اذ يقول :

« ومهما يكن قد تم من الاعمال الحسنة ، فالفضل للخديو ونظاره على معونتهم الصادرة من صميم الفؤاد ، واتفاقهم على العمل بالوئام والاخلاص مع البريطانيين الموظفين فى الحكومة المصرية »

هذا هو كل الفرق بين السياستين .. ولكن ماذا نجنى نحن الأمة من هذا الوفاق ؟.. لم نجن شيئا مطلقا ! بل قد يثقل على نفوسنا أن نحتمل ان أميرنا يكون موضوعا لمدح أو غيره فى تقرير قنصل حكومة محتلة بالفعل لا بالقانون ، خصوصا أنه ليس من البعيد أن يظن الناس بحق ان الامير راض تمام الرضا عن سياسة هذا المعتمد الجديد الذى يقضى فيها على كل أمل فى الاستقلال . ولم يظهر له عمل الى الآن من الاعمال التى من شأنها ترقية

«١» المعتمد البريطانى الثانى بعد كرومر وكان رجلا ضعيف الرأى خامل الذكر

«٢» الخديو عباس حلمى الثانى

حال البلاد من أى نوع من انـــواع الرقى . نعم ان مدته لا تزال قصيرة ، ولكن تقريره يدل على نية ابقاءالحال على ما هى عليه ، حال على أسوأ ما تكون عليها بلد من البلاد التى تطمع فى الاستقلال

كنا قطعنا الامل من المعتمد القديم ، وليس عندنا أدنى دليل يدل على أن المعتمد الجديد يترك محلالثقتنا فى انتقال نظاماتنا الى حال أحسن

رأيتم أن الانجليز هم الانجليز ، وان الســــير الدون غورست مع اتفاقه مع السلطة الشرعية أشد خطرا علينا من اللورد كرومر باختلافه معها .. فعلى من يكون أعتمادنا فى بلوغ الاستقلال ؟..

على انفسنا ، على أعمالنا ، على تضامننا ، على أن تكون امتنا كما قال صولون (١) : « خير الامم أمة يتاثر فيهـــا جميع الافراد للاهانة التى تقـــع على واحـــد منهم » .. يطالب جميعهم على السواء بتعويض الاهانة بنفس الحدة التى يطالب بها من وقعت عليه شخصيا

تلك هى الأمة المتضامنة الافراد التىيدخر لها المستقبل السعادة القومية عاجلا او آجلا ..

من أجل أن يكون عملنا مفيدا لبلادنا ، يجب علينـــا أن نتفق باديء الامر فى النظر الى حالتنا الراهنة وتقديرها تقديرا حقيقيا ، لا مبالغا فيه، ولا متجاوزا فى الحكم عليه. حد الحقيقـــة ولو كانت مرة تؤلم عواطفنـــا ، فانا اذا لم نحتمل مرارة الحقيقة التى تظهر لنا النقص الذى يجب علينا سده ، لايمكننا أن نحتمل المشاق التى تعرض لنا فى سبيل استقلال بلادنا

---

(١) Solon سياسى اثينى قديم

هنا يجمل بى أن أقول ان بعض الناس يخطىء كثيرا فى هذه الحقيقة ، ويظنون ان اشـهارنا لنقص اجتمـاعى أو سياسى أو تصدينا لنشر تصرف منتقد صدر من سلطة أهلية ، كل ذلك يقيم علينا الحجة باننا غير اهل للحكومة الاستقلالية .. ولكنهم نسوا أن ستر عيوب الامة عنها ، اقرار لها على ماهى عليه من التأخر وصرف لها عن اصلاح ذاتها .. وذلك هو الذى جر علينا الى الان أسوأ النتائج

فالواجب علينا تلقاء يأسنا من كل مسـاعدة خارجية عنا ، أن نقف تمام الوقوف على حالتنـا الحاضرة بجميع انواعها سياسية واجتماعية واقتصادية

حالتنا السياسية

كان يجب أن يكون الفرق بين حكومة محمدعلى وحكومة سمو الخديو ، كالفرق بين مبادىء الربع الاول من القرن الماضى وبين المبادىء الحالية للقرن العشرين . كان لحكومة محمد على شبيهات فى الحكومات الاوربية المتمدنة وقتئذ، ولـكن حكومتنا الحالية ليس بينها وبين حكومات أوربا حتى الصغيرة منها شبه ما

كان يجب أن يكون الفرق بين حال أمتنا فى عهد محمد على وبينها الآن ، كالفرق بين جهلها وفقرها فى ذلك العهد، وبين معارفها وثروتها اليوم .. ولكن أمتنا لا تزال تحفظ شبها كبيرا من صورتها فى أوائل القرن الماضى فيما يتعلق بحالتها السياسية ..

لا انكر أن حكومة اليوم فيها نظم قضائية ونظم ادارية ، ولا أن أمتنا اليوم فيها أناس متعلمون ، ولكن الحـكومة والأمة لا تزالان تحفظـان من صـورتهما القديمة أسـوأ العلاقات بين الحاكم والمحكوم.. تحفظان مبدأ الاستبداد،

استبداد بالرأى من جانب الحكومة ، وطاعة عمياء من جانب الامة .. فما أشبهنا اليوم بنا أيام الظلمات الاولى

من القضايا المسلمة أن شكل الحكومة ينم دائما على مبلغ الأمة من درجات الاخلاق ، عاليها وسافلها .. لأن الحكومة ليست فى الحقيقة الا عرضا من أعراض الامة ، فكيفما تكون الأمة تكون حكومتها

فهل بقيت امتنا على ما كانت عليه من أخلاق الذل من أوائل القرن الماضى الى الآن ، حتى تمكنت المبادىء الاستبدادية من النمو والبقاء فيها ؟.. وهل يكون الفرق بين مصر الامية وبين مصر المتعلمة ، فرقاقليلا جدا ،بحيث أن المبادىء الاستبدادية لا تزال تجد من نفوسنا أبوابا مفتوحة لقبولها واسكانها فى القلوب مسكنا مباركا حتى بقيت حكومتنا استبدادية لا اثر فيها لسلطة الأمة ، ولا ظل فيها للدستور ؟

.. ليس العلم بخواص الاجسام وتصريف الماء ومقاومة المواد وفقه القوانين ، هو كل مقومات الامم .. وليس هو الموجد للاخلاق العامة التى يكون من نتائجها الثقة المتبادلة بين الرجل والرجل ، والتضامن بين العامل والعامل ، ونصرة الحق والشجاعة الادبية فى ابداء الرأى والاستقلال الذاتى الذى يجعل الحر يأبى أن يكون عبدا للسلطة مهما كانت قدرتها على نفسه وعلى ماله .. تلك الصفات التى هى من أركان الاستقلال العام ..

لكى يمكننا الحكم على أن تلك الصفات العالية هى الغالبة فى الأمة ، يجب علينا أن نرقب عن كثب ميول الرأى العام فيها .. ولا شىء يوقفنا على ميول الرأى العام الا الجرائد

السلوك السياسى

الجرائد مرآة الرأى العام تظهر عليها صورته الكاملة .. يظهر عليها شكله ولونه ، بل هى مقياس درجات الاخلاق ومظهر المعلومات فى الأمة . ترى فيها المطامع التى تنحجب فى أدمغة الافراد ، والعواطف التى تنطوى فى الصدور .. فما اصدق هذه المرآة الصحفية فى تحصيل صورة الرأى العامّ ، فان رأيت جرائد الأمة تتجنب الانتقاد على اعمال سلطة من السلطات ، أو تخشى عظيما من العظماء أو تتخبط فى الاراء السياسية على غير هدى من العلم ، أو تكون مريضة الدوق فى طعوم الحوادث ، فاحكم بأن الرأى العام لا يزال يحسب للسلطة حسابا لا يتفق معه حب الاستقلال الذاتى حبا كاملا مستاثرا بجميع حواس الأمة وملكاتها على صورة تنفجر فى الحال عن الاستقلال الفعلى العام

من ينظر الى الرأى العام فى زمن محمد على يجد أنه كان متجانس الاجزاء متماسك الجسم .. مركزه كاذب حقيقة .. الا انه كان قويا فى خطته ، وكانت محكمته نافذة الاحكام . يخيل لى أن أول مادة صدر بها قانونها هى هذه المادة أو ما فى معناها :

« يجب على المصرى منفردا ومجتمعا أن يدارى الحاكم الاكبر ومن دونه ، وأن لا يغرر بنفسه فينقد عملا من أعماله »

وبقية قانون الرأى العام أو قانون السلوك السياسى للأمة كان محررا على هذا النمط : تحذير من الوقوف فى وجه الاسد حبا فى الحياة الخسيسة ، أو خوفا من العقاب الصارم الشريف .. ضعف وهوان باسم الطاعة .. نفاق وتملق باسم الاخلاص .. اعتبار ان شكل الحكومة انما هو قضاء من الله لا مرد له ولا مخفف لويلاته الا هو

حقيقة أن ذلك القانون قد باد جسمه ، ولم يبق منه الا رسمه .. وهو هذا الذى لا تزال تلحظه اذا امعنت النظر فى خلال حديث من يحادثك فى السياسة من بعض سياسى المصادفة الذين لا يزالون يدعون : « ربنا يولى من يصلح » وتلك هى الجملة التى تختم بها عادة المناقشات السياسية فى المنادر (١) . ولا يظنون لشدة تواضعهم أن الواحد منهم هو جزء غير منقسم من الارادة العامة للأمة، التى يجب أن يخضع لها كل عظيم ، وأن مقامها فوق كل مقام .

ذلك هو الشبه الباقى بين الرأى العام قصير النظر فى النصف الاول من القرن الماضى ، وبين الرأى العام عندنا اليوم .. هذا الرأى العام الجديد الذى هو الآن مزيج من تلك الآثار القديمة ، ومن أشعة النور التى نفذت الى عقولنا ، والفيض الروحى الذى انتشر فى قوانا بفضل التعاليم المدنية الحديثة وانتشار الحرية الشخصية الى درجة ما ، ذلك المزيج الذى لم تتجانس اجزاؤه تمام التجانس الى الآن ، يظهر أثره فى الجرائد بصورة جلية ظاهرة .. تريد احداها ان تقضى على عادة من العادات

---

(١) قاعات الاستقبال فى العهد القريب ، واحدة مندرة ، ولعلها محرفة عن « منظره » أو «منتظرة» مكان الانتظار وجلوس الضيوف مع صاحب البيت للحديث والنظر فى مختلف الشئون

التى التصقت بالدين وليست منه . ولكنها تخشى أن تثير على نفسها ثائرة بعض الفقهاء

تريد احداها أن تحمل على خلق عام مضر بالاجتماع ، ولكنها تخشى أن يرفضها المشتركون فيها او يتهموها بانها دسيسة انجليزية .. تريد أن تنقد عملا من أعمال السلطة الشرعية ، ولكنها تخشى غضب جمهور غير قليل من الناس لا يلبثون أن يقولوا انها انجليزية أيضا او معادية للسلطة الشرعية .. تريد احداها أن تنتقد عملا من أعمال الحكومة او الادارة الانجليزية فلا تخشى شيئا من الجمهور ، ذلك لان الجمهور او الرأى العام بجهته القديمة لايسمح بالطعن فيما الفه من العادات الاولى ، وبجهته الحديثة ، جهة المدنية والعلم .. كله آذان لسماع الطعن بحق فى الانجليز او فى شخص بعينه ليس من العادة تقديسه والخوف منه

***

قد يفهم مما ذكرت أن الرأى العام فى بلدنا لا يزال يفهم الاستقلال فهما ناقصا على صورة غير مستكملة جميع المحاسن ، وان هذه الحكومة الحالية على استبدادها هى الحكومة المناسبة للأمة ..! كلا .. بل أقول أن حالتنا الحاضرة هى حالة استثنائية ليست الأمة فيها أمام حكومتها فقط، بل امام حكومتها زائدا عليها حكومة اجنبية اخرى قد اخل وجودها بالتوازن بين قوة الأمة وقوة حكومتها .. وصير مجهودات الأمة الى الاستقلال متضاعفة اضعافا كثيرة . فاذا كان يجب علينا عند عدم وجود الاحتلال الاجنبى أن نصرف مجهودا واحدا لنيل الاستقلال، فانه يجب علينا الآن أن نصرف مجهودات كثيرة مع وجود هذا الاحتلال الثقيل ..

من أجل ذلك كان شكل حكومتنا الحالية لا يعطى

صورة الامة تماما ، لاختلال التوازن بين القوتين •• ومن أجل ذلك كنا مظلومين ••

ولكن القوي لايمكن أن يكون قويا الى الابد ، والضعيف لا يمكن أن يبقى ضعيفا الى الابد •• بل أن الرأى العام عندنا على ما فيه من بعض العوج وما يثقله من تلك الحكومة المزدوجة ، قد أظهر قوة شديدة فى بعض الحوادث ، فاضطرت الحكومة الى أن تجرى خلفه فيها ، مثل مشروع النفى الادارى وغيره (١) •• فكلما زاد الرأى العام قوة فى التأثير ازدادت الحكومة ضعفا في استبدادها ، حتى يحصل التوازن بين القوتين ، ثم تزيد قوة الرأى العام بحكم الرقى الطبيعى فتظهر سلطة الامة بأجلى المظاهر وأقواها ••

وانا يسرنا أن الرأى العام عندنا قد أخذ يزداد قوة وتماسكا لبركة هذه الحركة السياسية الجديدة •• ذلك الشعور الذى خرج من جوف الامة يستصرخ عزائم أفرادها الى الرقى العلمي والسياسى •• ذلك الشعور الذى يملأ أعيننا نورا لتنظر الى المستقبل ، ويملأ قلوبنا ثقة بالرجاء فى المستقبل ، ويهز أعصابنا الى أن نتضامن لسعادة المستقبل •• تلك الحركة الجديدة التى ابتدأت بالمجاميع السياسية أو الاحزاب السياسية ، وكان أولها ظهورا الى عالم السياسة هو « حزب الامة » الذى ولدته حاجتنا الى الاشتغال بأحوالنا السياسية بطريقة معينة محدودة ، وبرنامج مكتوب منشور ، ودعوة واضحة نشرت فى الضحى تنادى بسلطة الامة

---

(١) قانون سن للمحافظة على الامن العام ، وكان قانونا اداريا سلب فيه المتهمون كثيرا من ضمانات القانون العام علاجا لحالة الامن وكان قد اختل امره الى درجة مخيفة

يحسن فى هذا الموقف أن أرد على جماعة اليائسين الذين ينظرون لهذه الحركة السياسية الجديدة بأجفان متكسرة تشف عن عدم الثقة ، فاذا دعوا الى الدخول فى حزب سياسى ابتسموا لك عن استهزاء ، وان رضوا بالدخول مدوا اليك يدا فاترة النشاط ، ما اعتادت أن تبسط الا الى منفعة شخصية .. أولئك يظنون أن هذه الحركة صناعية صرفة ، وان القائمين بها انما هم يقلدون أبناء الامم المتمدنة وأن أمتنا بعيدة عن هذه الحركة بعد ما بين الساكن والمتحرك .. ان هؤلاء يكادون ينكرون قوانين الارتقاء الطبيعى التى تسير عليها الظواهر الطبيعية ، ويكادون يظنون أن أمة غفلت عن الاشتغال بسياستها يوما ، يجب أن تغفل دهرا ، أو أن تغفل الى الابد .. خطأ على خطأ .. ألا يعرف هؤلاء الفرق بين الحركة الصناعية وبين الحركة الطبيعية ؟

ألا يعرفون أن الطبيعة لا تسمح لشىء بالبقاء فيها الا اذا كان منها .. اليكم دليلا حسيا على أن هذه الحركة طبيعية « حزب الامة » هذا الحزب تألف من سراة البلاد وأعيانها وطائفة غير قليلة من كتابها واذكيائها للمطالبة لامتهم بحقوقها والعمل لرقيها وسعادتها ، وان كنت لا أنكر أن سيرهم فى ذلك كان بطيئا وان عملهم بالنسبة لما يطلب منهم قليل نظرا لما صادفوه فى سبيلهم من العقبات المعروفة ، الا انهم لم يهنوا أمام السلطات ، بل زادوا تشددا فى مبدئهم وتقدما الى غرضهم . فلو كانت هذه الحركة صناعية لكان قد فشل أعضاء هذا الحزب فى اجتماعهم ، وتقوضت أركان أملهم فى بلوغ الغاية التى اليها يقصدون

أكثر من هؤلاء اليائسين بعدا عن الحق ، أولئك الذين يقولون ان هذه الحركة الجديدة هى مظهر من مظاهر التعصب

الدينى أو « البان اسلامزم » (١) . ولكن هؤلاء يعلمون كما نعلم أن المصريين أبعد الناس عن هذه التهم وأبرأهم منها ، وانما هم يشيعون ذلك كلما احتاجوا الى صرف انظار أوربا عما يجرى فى مصر من التصرفات الانجليزية . وقد كنا ظننا أن هذه التهمة قد رحلت عنا برحيل جناب اللورد كرومر ، فاذا بها تتجدد على نغمة أخف من الاولى على لسان وزير الحربية الإنجليزية فى مجلس النواب فى الشهر الماضى

انهم يريدون بهذه التهمة أن يحولوا بيننا وبين جاذبية الاحرار الاوربيين ويخلعوا بها قلوب الاجانب أصحاب المنافع فى مصر . وبهذه الطريقة يعزلوننا عن كل مدد سياسى ومالى ، حتى تزول كل رقابة على تصرفاتهم فى مصر

ولا شك عندى فى ان التهم التى يتهمنا بها الساسة الانجليز من انحطاط الصفات عن المستوى اللازم لكسب الحكومة الذاتية والتعصب الدينى وكره الاجانب .. الخ .. كل ذلك ليقنعوا امتهم والعالم الاوروبى ، وليحاولوا اقناعنا نحن أيضا ، باستحالة اجابة مطالبنا فيما يختص بالحكم الذاتى (٢)

انهم ليحسون بضعف حجتهم فيقولون « ومع ذلك

---

(١) Pan-islamism اى الجامعة الاسلامية ، وقد كثر الكلام فيها حينا ، وروج لهذه الدعوى المستعمرون .. ونادى بوجودها نفر من صنعائهم من المصريين ، ليكون طريقهم الى اتهامنا بالعصبية الدينية

(٢) يقصد بالحكم الذاتى على الدوام الاستقلال ، وهو غير « الحكم الذاتى المحلى » وهو ما اقترحه بعض الانجليز كاللورد دوفرين

فانا نعطيه تدريجا» .. قول حسن لو صدقت السياسة وابتدأوا فى تدريجنا اليه ، ولكنهم لم يفعلوا الا نقيض ذلك

النظامات

دونكم نظامات سنة ١٨٨٣ وما كان ينويه الشارع المصرى وقتئذ من ترقية الامة تدريجيا ، ودونكم نظامات اليوم . اسمحوا لى أن اعرض لكم صورة النظامين لتروا بأنفسكم اننا نتاخر فى روح التشريع وفى تنفيذ القوانين عوضا عن ان نتقدم ، كما هم يعدوننا كل يوم ..

ان قوانين سنة ١٨٨٣ تحصر السلطة دائما فى شخص الجناب العالى « الخديو » ووزرائه ، الا انها كانت مع ذلك ترمى الى تنفيذ اربع قواعد معقولة يؤدى تنفيذها بالزمان الى الحكومة الدستورية ، وهى على ما رايت بالاستقراء :

١ ـ ليس للاحتلال سلطة على الناظر فى نظارته

٢ ـ كل سلطة تؤخذ من الحاكم الادارى الى الحاكم القضائى هى كسب للامة

٣ ـ كل ضمانة تعطى للحاكم القضائى هى تقدم نحو الحرية والاستقلال

٤ ـ كل توسيع فى منطقة الانتخابات هو ظفر نحو الحكومة الذاتية

بناء على هذه القواعد كان كل ناظر عاملا حقيقة لا حكما ، غير مشارك فى اعمال نظارته ، ولا راضخ الا للقانون الاصلى فى تشكيل الوزارة وسقوطها .. اخذت أغلب اختصاصات الحكام الاداريين الى القضاة ، احيط

القضاة جميعا بضمان عدم العزل وعدم النقل وعدم الاذعان الا الى القانون ، وكان العمدة يعين بانتخاب الاهالى ومحض ارادتهم

لو نفذت كل هذه القواعد التى كانت روحا للتشريع بالضبط وحسن النية ، لكنا قد وصلنا اليوم الى الحكم الذاتى المطلوب « الاستقلال »

ولكن كل وزير مصرى قد رمى فى نظارته بمستشار ، عين ليستشار وليس له من التنفيذ شىء ، فاذا هو فى العمل كل شىء . والناظر مهما كان علمه ومهما صحت رغبته امام هذا المستشار المدرع بقوة الاحتلال ليس الا مرءوسا ، رضى الناظر بهذا الاعتداء او لم يرض .. فالنتيجة دائما ان الاحتلال يكتب شيئا وينفذ غيره

محيت ضمانة القضاة الابتدائيين ، وضربت عليهم المراقبة الشائنة بكرامة القاضى .. رضى القضاة او لم يرضوا ، فالنتيجة تقهقر فى التشريع

جعل للحكام الاداريين اشراف على التحقيق الجنائى ، وجعل لنظارة الحقانية حق نقل قضاة الاستئناف فى المحاكم الجنائية - رضوا او لم يرضوا - فالنتيجة ان التشريع سائر الى الوراء

جعل انتخاب العمد ، عمد البلاد « واسمهم كاف فى اظهار اهميتهم » بمحض ارادة الداخلية بوساطة لجنة ادارية ، وأصبحوا يعاقبون على الاهمال بالحبس - رضى العمد والامة او لم يرضوا - فالنتيجة ان التشريع سائر الى الوراء

على ذلك يظهر لكم بالعيان اننا فى جميع نظاماتنا الحكومية نتقهقر الى الوراء ، ولا شىء عندنا من ذلك

يسير الى الامام حتى ولا الوعود .. فان وعودهم ان لم تكن تتقهقر كثيرا عن أزمان غلادستون (١) فانها على الاقل ثابتة في مستو واحد ، ولا فرق الا في كيفية ادائها

***

قال اللورد دوفرين « ان الحكومة الذاتية المحلية أحسن وسيلة للاعداد والتمهيد لما يقرب من النظام الدستوري » ، قاعدة حسنة مقبولة ووعد ينمي الرجاء .. كررها اللورد كرومر ، وقال بها السير الدون غورست في تقريره الاخير

وقد رأيتم أن العنصر الوطني في الحكومة ينزل عن السلطة شيئا فشيئا ، والعنصر الانجليزي يأخذ السلطة شيئا فشيئا ، والنظام البيروقراطي الذي تسير عليه الحكومة الان يميل الى تركيز السلطة أو حصرها في شخص الرئيس الانجليزي دون الاهلي . ولو علمتم ما للقضاة الانجليز في المحاكم الاهلية من الرقابة على زملائهم المصريين والاثر في مستقبلهم ، واضفتم ذلك الى ما ذكرته لكم من تأخر التشريع في روحه وفي تنفيذه ببعض امثلة، لعلمتم أن تخفيف المراقبة عن بعض المديرين لا يجيء بالنتيجة المقصودة من تشجيع العنصر الوطني وتعويده الاستقلال وملكه الحكم !هل بعد ذلك يصح القول بانالادارة الانجليزية تسير على ما وضعه اللورد دوفرين من المبادىء لانالة المصريين الحكم الذاتي والدستور ؟

قال السير الدون غورست : « ان نظام الامتيازات الاجنبية أصبح لا يطابق الدرجة التي بلغتها الحضارة في

---

(١) رئيس وزراء انجلترا في اوائل الاحتلال ، ومن الذين قطعوا العهود بالجلاء بل قال بعد اعتزال الوزارة انه يعتقد ان زمن الجلاء حان منذ زمن بعيد

مصر » (١) .. قول حق لا شبهة فيه . ولكن اذا كانت حضارة الأمة بلغت مبلغا لا يجوز أن يكون فيها طبقات ممتازة ، فكيف يسوغ أن تبقى فيها حكومة استبدادية بكلّ معانى الكلمة ومن كل وجه ؟

سلب نفوذ الحكام الوطنيين بقوة الاحتلال وغصب حقوق الأمة بقوة الاحتلال .. كل ذلك يكون منطبقا على تقدم مصر فى الحضارة — فى نظر السير الدون غورست — ولكن الامتيازات الاجنبية هى وحدها التى لا تنطبق على حضارة مصر !!

***

مهما يكن من القرائن التى تحدث بها السير غورست لاثبات دعواه من أن مصر بعيدة جدا عن الدستور ، فلقد الزم نفسه الحجة بانها قد تقدمت فى المدنية الى حد انه أصبح من المحرم أن توجد فيها طبقة أوروبية ممتازة . ولا شك فى أن الميل الى التسوية بين المصريين وبين النزلاء الاوروبيين فى المعاملات والقوانين ، يقتضى بطبيعة الحال أن المصريين يستحقون الدستور أو الدستور الناقص على الاقل ، ونعنى به توسيع اختصاص الهيئات النيابية الحاضرة ، اللهم الا أن نكون نحن انفسنا لا نميل الى الدستور أو التوسع فى الحكم الذاتى كما رواه عنا المعتمد البريطانى . وليتنى أدرى من هى تلك الطبقة التى تميل الى عدم التوسع فى الحكم الذاتى بعد أن بح صوت الجرائد بطلب الدستور وقررته الجمعيةالعمومية مرتين

---

(١) قيل هذا الكلام فى سنة ١٩٠٨ ، ولم تلغ الامتيازات الا بمعاهدة « مونترو » ولم يكن الانجليز صادقين فى هذا الكلام ، وانما كانوا يهددون به دول أوروبا كلها كلما ارادوا أن يعززوا احتلالهم لمصر ، تنفيذاالسياستهم الاستعمارية

نعم طلبنا الدستور بطريقة تدريجية متواضعة على قاعدة انه لا يمس مصالح النزلاء الاوربيين ولا امتيازاتهم، فقابلته حكومتنا بالرفض (١)

قدمنا لها مشروعا لتوسيع اختصاص مجالس المديريات (٢) ، وسعينا بكل ما فى استطاعتنا من طرق الاقناع لدى الوزارة ، فاخذت الحكومة تمحو وتثبت من مشروعها الاول ، واخرجته بعد ذلك خاليا من القاعدتين اللتين أسسنا مشروعنا عليهما ، وهما وضع أساس سلطة الأمة ، وتمليك تلك المجالس الانتخابية ادارة التعليم الاهلى من غير قيد ولا شرط

وقد مضى على ذلك سبعة اشهر تقول الحكومة انها تستشير أعيان البلاد والمديرين واللجنة المنتخبة من مجلس الشورى لتعديل القانون النظامى .. الأناة فى التقنين مطلوبة ، ولكن الحكومة التى تعدل قانون الجنايات فى يومين ، ثم تضع قانونى العقوبات وتحقيق الجنايات بأسرهما فى أيام ، لا يمكن أن يفهم من تسويفها هذا الا كسب الوقت وانتظار أن الرأى العام تبرد حدته عليها وتفتر أعصابه المتوترة ، فتخرج قانون توسيع الاختصاص (٣) فى فرصة مناسبة خاليا من كل توسيع جوهرى

يؤكد هذا الفهم أن السير الدون غورست مع علمه بالضرورة بأن حزب الأمة ومجلس شورى القوانين يحضران

---

(١) هذه احدى نتائج الاحتلال الانجليزى : اذلال المصريين ومحاربتهم بالجاليات الاوربية التى استنزفت دماء هذا الشعب واستغلت موارد ارض الفراعنة لمصلحتهم دون المصريين

(٢) مشروع تقدم به حزب الامة للحكومة

(٣) اختصاص مجالس المديريات

مشروع توسيع اختصاص الهيئات النيابية الحاضرة ، قد قال فى تقريره انه لا يسمح بأى توسيع جوهرى !

فليس من السهل على ذى النظر الصحيح تلقاء تلك المغالطات وذلك التسويف والتعنت من جانب الحكومة والوعود المختلفة ، ان يحكم بأن فى نية الانجليز حقيقة أن يعطونا من حقوقنا الا وعودا نتغذى بها .. وهيهات أن تكون الوعود هى كل ما نطمع فيه من الحكم الذاتى !

ولكن وزارتنا مع كل ذلك راضية بالوقوف فى المركز الذى وجدت فيه من يوم تنصيبها ، لم تخط مع الرأى العام خطوة واحـدة الى الامام .. وانى مع ما أعلم من ذكاء كل منهم وقدرته على العمـل وطهارته ، اجـدنى مضطرا الى التصريح بأن الوزارة الحـالية مع ماضيها الطويل فى الاستسلام للسلطة ، لا يمكنها بعـد ذلك أن تقوم بما تطلبه منها الحال الحاضرة من التقدم الى الامام .. وعلى ذلك لا يمكنها أن تكون بمجموعها حائزة لثقة الأمة

الامة فوق الحكومة

تلك هى حالتنا السياسية .. تلك هى الحال السيئة التى يجب علينا العمـل على تغييرها بكل ما نسـتطيع بالطرق السلمية المدنية ، اعنى بها انماء العواطف السياسية وتحسين الحال الاجتماعية والاقتصادية

قلت لكم فى صـــدد كلامى أن مهمتنا شاقة جـدا وطويلة ، وان حالتنا الاستثنائية تقتضى مجهودات كثيرة كنا فى غنى عن الكثير منها لولا هذا الاحتلال

الاشتغال بالحال السياسية قد يكون فرض كفاية .. ولكن حالتنا الحاضرة تجعل التفكير فى تقدمنا السياسى

فرض عين على كلٍ منا

نعم أصبح فرض عين على كل منا أن يعتقد بسلطة الأمة ، وينشر حوله فى دائرته ـ واسعة كانت أو ضيقة ـ هذا الاعتقاد ، وانه مما لا يحتاج فيه الى علم أو الى فلسفة ، بل هو أمر معروف هدى اليه الشرع الشريف وقضت به طبيعة التمدن الانسانى . لا يتكلف الداعى اليه الا أن يلفت نظر من حوله الى أن رأى الجماعة فوق راى الواحد ، وأن قدرة الأمة فوق قدرة الحكومة بالضرورة ، وأن الحكومة وكيلة للأمة ، وأن مقام الأمة فوق كل مقام .. هذا الاعتقاد اذا جعله كل منا ايمانه السياسى وطبقه على الحوادث التى تقع أمام عينيه صباح مساء ، وعلى كل تصرفات الحكومة يوما بعد يوم ، بلغنا بقوة هذا الايمان الى ما نطلبه من تغلب قوة الرأى العام على قوة الحكومة .. هناك يصبح استقلالنا النوعى حاصلاً فعلا وحتما

إعملوا على ذلك وليعلم كل منكم أن ارادته الفردية قوة هائلة لا تقاوم ، اذا كانت متحدة مع ارادة قومه .. وان الارادة العامة للأمة هى مجموع الارادات الفردية ، فان كانت هذه مريضة أو ضعيفة أو مخالفة بعضها لبعض فى تحقيق الاستقلال ، كانت الارادة العامة ضعيفة على نسبة القوى التى تتكون هى منها

ان الرقى السياسى لا يقصر على اعتقاد المذاهب السياسية والدعوة اليها ومحاولة تطبيقها فى جميع مظاهر الحياة العامة .. بل ان له ركنا آخر لا يتحقق بدونه وهو الرقى الاجتماعى

أشعر انى أسرفت تصرفا فى وقتكم وحسن استماعكم،

الا انى مع ذلك استميحكم كلمة على حالتنا الاجتماعية التى هى ركن كبير من اركان رقينا السياسى

حالتنا الاجتماعية

يقولون ان الاستقلال بعيد علينا لأن الاستبداد قد حلل كثيرا من صفات الحكم فى أنفسنا ، وهذه الحجة تزيدنا تمكنا من أنهم يرتكبون فى معاملتنا طرق المغالطة ، لأنه اذا كان الاستبداد مفسدة الطباع والاخلاق ، فاستمرار الحكومة استبدادية ، انما هو استبقاء لعلة الفساد واضافة فساد الى فساد

لا انكر ان حالتنا الاجتماعية تدعو الى العمل لرقيها على ماهى عليه الآن ، ولكن الانسان باصله الحر لايلبث أن يرجع حالا الى صفات الحرية متى زال عنهالاستبداد

موضوعات التعليم أو برامجهوطرائقه فى مصر ، بعيدة عن ان تصل بنا الى الرقى الاجتماعى المطلوب ..

لاجل أن يكون التعليم مفيدا ، يجب أن يكون الغرض منه تسليح الناشىء للقيام بوظيفة رجل ..

ولكن الغرض من التعليم عندنا هو انماء القوى الآلية او القوى التى يقوم بها الانسان .. آلة مضبوطة نوعا للدخول فى تركيب الماكينة الكبرى ، ماكينة اعمال الحكومة

ليس فى برامجنا من العلوم الاخلاقية وعلوم التربية والاجتماع شىء .. وليس فى منازلنا كذلك من مبادىء التربية الا قليل مما يصلح لتقويم الاخلاق على ماتقتضيه مصلحة العمران الحديث

أما طريقة التعليم فهى طريقة « الكتاب » (١) العقيمة .. يعلم الاستاذ التلميذ أو يلقنه ماقى الكتاب ، وهذا لا ينمى من الملكات الا ملكة الحافظة او ملكة التقليد . ولكن الملكة المفكرة ، ملكة الابداع والاختراع ، ملكةالادراك والتفكير ، ملكة الذوق السليم ، ملكة العالم والكاتب والسياسى والفيلسوف .. هذه الملكة تبقى دائما طفلة تتطفل فى حركتها اليومية على المحفوظات وآراء الغير ، تستعير منها ما تشاء من المعلومات وتنشرها الى الخارج .. واقفة عند وظيفة النقل

أما الطريقة المفيدة فهى أن ينصرف الاستاذ عن الكتاب ويقبل على التلميذ فيوحى الى روحه ما يكملها ويعدها للقيام بالواجب عليها فى الحياة

الاساتذة عندنا لا يشترط فيهم شىء ، بل تكفى الجنسية الانجليزية لان يكون المرء استاذا فى المدارس الثانوية . وهى وبعض الشهادات من اى نوع او فى اى علم ، قد تكفى لأن يكون الشاب أستاذا فى مدارسنا العليا .. ولكن هى السياسة ما دخلت فى التعليم الا أفسدته !

لذلك توجهت الآمال الى « الجامعة » (٢) التى نرجو الا يكون ما يقولونه عن مداخلة الحكومة فى ادارتها الا

---

(١) « الكتاب » بضم الكاف وتشديد التاء واحد الكتاتيب وهي المدارس التي ورثناها عن عصر المماليك وقد سبقت الاشارة اليها وكان تعليمهاأوليا قاصرا ، ومعلموها جهلاء بامور الدنيا . ومن نوادر الاحتلال الانجليزى المضحكة انه عندما ملت الصيحة بضرورة تكوين جامعة مصرية ، صاح كرومر ـ المصلح الاكبر عند الانجليز ـ يقول ان الاكثار من الكتاتيب خير لمصر من انشاء جامعة .. فانظر كيف يكون سوء القصد ، وكيف يكون اصلاح أجنبى مستعمر

(٢) الجامعة المصرية التى اسست بجهود الامة ، وكانت بهذا الاسم جامعة اهلية ، وهى الان جامعة القاهرة

من قبيل المداخلة السطحية البعيدة عن برنامج التعليم وطرائقه . وهذا الذى حققه لنا بعض العارفين ، ولكن لنا من رقابة الصحف والرأى العام ضمانة كبرى تضمن لنا عدم المداخلة المضرة

اقول ان حركة الجامعة ونهضتها من أشرف ما وجد فى هذا البلد من النهضات ، بل هى أكبر فائدة وأعظمها ضمانا التقدم الحيوى المطلوب .. لذلك وجب أن ينظر اليها دائما بعين الرعاية والارتياح ، وأن تلقى من عظماء الأمة كل اقبال ومساعدة

كما اننا نؤمل فى سياسة ناظر المعارف وفى اخلاص أصحاب المدارس الخصوصية ان يدققوا فى انتقاء الاساتذة ويغيروا طريقة التعليم العقيمة الى الطريقة المفيدة للبلاد ، وأن يجعلوا تعليم البنات ــ أمهات المستقبل وينابيع التربية ــ احسن مما هو عليه الآن ، وان كان قد خطا خطوة تبشر بحسن الاستقبال

الوحدة القومية

ليس كل ما يلزم لترقى حالنا الاجتماعية هو التعليم واصلاحه ، بل هناك أمران آخران لا يصح اغفالهما .. أولهما : العلاقات العائلية التى يجب على الكتاب أن يصلحوها بكل ما لديهم من إساليب الانتقاد . والثانى : هو الفضائل العامة التى يدخل انماؤها والحث عليها فى واجباتهم أيضا ، وهى العدل والكرم وحسن العشرة والشجاعة

اسمحوا لى أن اقول ان هذه الصفة الاخيرة كثيرا ما تظهر عندنا مقرونة باعتبارات اخرى كارضاء القوى وحب الاتصاف بالادب .. الخ ، مع أن الشجاعة الادبية هى من أمهات الفضائل العامة ، فلا يمكن لأمة أن ترقى الا

اذا نمت فيها هذه الفضيلة ، وقال كل ما يعتقده من غير مبالاة ولا مجاوزة لحدود الادب وحسن العشرة

ان توحيد طرائق التربية والتعليم وتخليص الروابط العائلية من الادران التى لحقتها فى العمل وانماء الفضائل العادية والصفات الفاضلة الاجتماعية .. كل ذلك من شأنه ان يوسع دائرة المشابهات ويضيق دائرة الفروق بين الافراد . هنالك تظهر « الوحدة القومية » ظهورا جليا ، ويبلغ التضامن القومى مبلغا يجعل الرأى العام أقوى من ذلك بكثير ، فتضطر الحكومة دائما الى اتباعه فى كل ميوله ورغباته

على قوة الرأى العام يتوقف النجاح السياسى دائما .. فلا تيأسوا من رفض مطالبنا فانها ستجاب

الحالة الاقتصادية

علة من علل النجاح أن يكون لنا فى سوقنا المالية صوت يسمع .. غير اننا لا نزال الى الآن نشارك فى الحركة المالية على الوجه الانفعالى لا الوجه الفاعلى ، نتأثر بحركة السوق ولا نؤثر فيها .. لا نصرف الامور المالية ولكننا موضوع تصرفها ، كأن اموالنا وأعمالنا انما هى لتكون محل استغلال الاجنبى . لا ينبغى ان يفهم مما أقول أننا لا نعترف بالخير الكثير الذى عاد على مصر بسبب كثرة المصارف الاجنبية فيها .. كلا فانى اعتبر وجودها ضروريا جدا لنا . ولكنى أرى أن بعد المصريين عن مجاراة الاجانب فى فتح البنوك وتأليف الشركات المالية ، كل ذلك يبعد المصريين عن الاستقلال الفعلى(١)

(١) كان تأسيس بنك مصر اول وضع عملى فى تنفيذ هذه السياسة

ولقد استفدنا من هــذا الامتحــان الصعب ، امتحان الأزمة المالية (١) درسا يجب أن ننتفع به فى اصـــلاح حالنا ، وأن نجتهد فى تأليف البنوك والشركات والبيوتات التجــارية حتى لا نكون فى بلدنا غرباء أو معــولين على الاجانب فى المسألة المــالية

بمناسبة الازمة المالية يسوءنى أن أصرح بانه رغمــا عن اعتــذار الســير الدون غورست فى تقريره عن عدم المداخلة لانفراج الازمة (٢) ، فان شواهد الاحوال تدل على أن يد السياسة لم تكن بعيــدة عن العمــل لاطالة عهدها . حقا ان الازمة المالية انما جاءت بهــا الى مصر تلك الشركات التى كان لها رءوس أموال اغلبهــا من الوهم ، وتصرف لايخلو من فســاد الذمة والاستهانة بحقوق المساهمين . ولكن السياسة قد وقفت أمام تلك الشركات موقف الــذى لا يعنيه من أمرهــا شيء ، بل جاءت السياسة بأعمال وتصريحات كان من نتائجها اطالة عهد الأزمة

كل حكومة متمــدنة تجعــل نصب عينيها حمــاية المساهمين ، بأن تجعل للشركات قوانين أساسها مراقبتها عن قرب .. الا الحكومة البريطانية فانها فى غنى عن ذلك لأن للمساهمين جمعية تحميهم وتراقب أعمال الشركات وتقاضيها عند الضرورة

---

(١) ازمة سنة ١٩٠٧ وما بعدها ، وكانت ازمة صارمة

(٢) لما اشتدت الازمة «١٩٠٧» وضجت الامة وضاقت بها ذرعا ، كف الانجليز يدهم عن العمل على تخفيف وطأتهــا وتركت الثــروة المصرية نهبا للاجــانب واليهــود ، والامة الفقــيرة ذليــلة ، والشعب العريان خاضع . وذلك ما توخاه المســتعمرون الذين يقــولون انهم مدنوا مصر وأخذوا بيدها

أما حكومتنا فلم تفكر فى وضع مراقبة على هذه الشركات مطلقا .. بل تركت لها العنان تأكل من غير رحمة وتفشو من غير حدود • وربما كان عذرها فى ذلك الامتيازات الاجنبية . ولكنها لم تطرق الباب كما طرقته فى قانون البورصة (١) وحصلت على موافقة الدول من غير اعناء

لم تقف الحكومة عند هذا الحد ، بل غلت يدها عن ان تخفف اضرار هذه الشركات التى نشأت عن اهمالها وتفريطها • تهتم الحكومة بتربيتنا اهتمام ملتهب القلب مروع الفؤاد على مصلحة الأمة ، فالصقت لذلك اعلانات شتى على محطات السكة الحديد تحذر فيها السياح من ان يعطوا « بقشيشا » لصغار المصريين ، لان ذلك يعودهم على الكسل .. رحمة فائقة ، عناية كاملة ، اشتغال باهم الامور الحيوية للأمة !! ولكن ما بال الحكومة لا تنشر كلمة واحدة تحذر فيها المساهمين من الشركات التى لم تراقبها !

وفوق ذلك فان الحكومة لم تترك الازمة المالية على حالها ، بل كما قلت لكم ، لم تبعد عنها يد السياسة .. فانها امتنعت عن مساعدة السوق بالمرة كما تساعد كل حكومة السوق المالية فى بلادها !.. لم تقف السياسة عند ذلك ، بل صرح وزير الحربية الانجليزية بعدم امكانه تقليل الحامية فى مصر لأسباب من شأنها أن تقلل الثقة المالية فى السوق المصرية . أظهر دليل على ذلك أن الماليين الفرنسيين لم يثقوا بالسوق المصرية الا بعد

---

(١) قانون بورصة العقود ، وكانت الامتيازات حائلا دونه ووافقت عليه الدول صاحبة الامتياز بعد ان امتص الاجانب دماءنا سنين وأعواما

تقرير المندوب الفرنسي الذى وصف حال مصر على ماهي عليه .. فكان من وراء ذلك الموافقة على قرض أربعة ملايين من الجنيهات للبنك العقارى (١) .. ومع ذلك فان المليون والنصف الذى فتح اكتتابه فى لندن للبنك الزراعى (٢) لم يغط الى الآن .. كل هذا يدلكم على انه اذا كانت يد السياسة لم تباشر اطالة الازمة ، فانها سببت باعمالها وتصريحاتها تلك الاطالة

ومع ذلك فانه لو كان لأهل البلاد بنوك اهلية ، لما امكن أن تغلو الشركات فى العبث بحقوق المساهمين ولما طالت الأزمة الى هذا الحين

اذا كانت تلك هى حالتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية على ما وصفت لكم وصفا وجيزا ، أرجح أن يكون مطابقا للواقع ، وأتعشم انى أكون مع هذا غير مبالغ فى التقدير ، واذا كانت كل معونة خارجية للاستقلال يستحيل أن تأتى الينا عفوا من غير أن تكون نتيجة لازمة لأعمالنا ، حق علينا أن نفهم ان العلة فى استقلالنا ليست علة بسيطة بل علة مركبة من نظامنا السياسى ونظامنا الاجتماعى ونظامنا الاقتصادى ، وان هذا التقدم او التمدن أو الاستقلال المنشود يتوقف على

---

(١) البنك العقارى المصرى الذى بلغ راسماله الان بضع عشرات من ملايين الجنيهات المصرية امتصاصا من دم المصريين

(٢) بنك أراد الانجليز ان يقاوموا به نفوذ البنك العقارى المصرى لانه فرنسى ، ودعواهم فى ذلك حماية المزارع المصرى ، وقد امتص هذا البنك على حقارته من دماء المصريين قدرا عظيما . وكانت اقساطه تحصل مع الاموال الرسمية ويقبضها جباة الحكومة ، كانما كان هذا البنك جزءا من وزارة المالية اووزارة الاوقاف .. بل كانت اقساطه يحجز بها بمقتضى أوامر حجوز ادارية ـ كانها جزء من ضرائب الحكومة ـ لا رحمكم الله أيها الانجليز !

كل حائل على نوع واحـد من أنواع النظامات الثـلاثة ، بمقدار توقفه على النوع الآخر بالسواء

نسعى لانماء الاعتقـاد بسلطة الأمة ونطلب حقوقنـا السياسية .. نطلب ما أستطعنا ان نطالب . وليكن طلبنا لاهونها على أولى الامر واقربها لارتياح نزلائنا الاوربيين وهو الطلب الثاني للجمعية العمومية « توسيع اختصاص الهيئات النيابية الحاضرة توسيعا جوهريا » ليكن ذلك الطلب أكثر ما نلح فيه من الطلبات لنتصل به الى المجلس النيابي المنشود

ولكنا مع ذلك يجب علينا أن نسير فى ترقية الحـالة الاجتماعية والاقتصادية بنفس الحدة ، وبمقدار الخطوات التي نخطوها فى مطالبنـا السياسية . ولا ييئسـنا ما نشاهده من تصرف الانجليز .. ذلك التصرف المبنى فى ذاته على قاعدة « أن الحق للقوة » وان كان لا يجـرؤ احد من ساسة القرن العشرين أن يعضد هذه النظرية التى ظهر فسادها

وانى شديد الاعتقاد بانه سيأتى يوم يقوى فيه الرأى العام بخدمة رجال الأمة وبظلم الحكومة ، فيكون بيده الحق والقوى المعنوية .. قوة التماسـك والاعتقاد . وقتئذ تصبح مصر للمصريين

الفصل الثالث

الرأى العام



الرأى العام
هو قانون..! *

لا يخلو امرؤ مهما انحطت درجته فى قومه ، وانطفأت فى قلبه نار الغيرة على مصالحهم ، أن تجول بخاطره صورة ما يظنه المنفعة لقومه من حيث جمعيتهم وشكل حكومتهم. ويرجو الا تحقق هذه المنفعة العامة التى سيصيبه هو أيضا منها نصيب .. قد يصيب هذا المفكر وقد يخطىء ، اذا كان قياس المنفعة معروفا ، مجمعا عليه . اما والمنفعة أمر اعتبارى صرف ليس له حقيقة ثابتة ، بل هو مايحسبه الانسان نافعا بحسب ما يعتقد ، لا بحسب الواقع ، فلا خلاص لنا من القول مع « سبنسر » : « كل منا يعلم حق العلم ما يلزمه ، وكل منا هو دون غيره ، الذى يحكم حكما حقيقيا على وجود منفعته »

على ذلك اذا كان الرأى العام للامة ليس منطبقا على الحق والعدل فى ذاتهما ، فانه على الاقل منطبق على الحق والعدل على الوجه الذى به تفهمهما الامـــة وتحتملهما . فيجب أن يعتبر الرأى العام هو الحق الذى يجب اتباعه ، والقانون الذى يجب تنفيذه ، سواء راق ذلك فى عين لورد كرومر ، أو لم يرق . وســـواء وافق مصـــلحته

---

* الجريدة العدد ٤٠٨ — ١١من يولية سنة ١٩٠٨

الاستعمارية ، أو لم يوافقها .. فانه اذا جاز له أن يخطىء الشرقيين بجرأة في معتقداتهم بجميع اشكالها ، ويسفه آراءهم في كل ما تتناوله ، فان هذه القاعدة التى صدرت بها هذا المقال ليست من بنات افكارنا الشرقية ، بل هي آخر مذهب ذهب اليه علماء السياسة الغربيين في أمر الرأى العام . ولو كان للورد أن (١) يحتقر آراءنا بحجة أنه من قوم سلطتهم المقادير على ادارة بلادنا مؤقتا ، فانى لا أخاله ينهض لتسفيه آراء علماء السياسة الغربيين

تكون الرأى العام الحديث في مصر من زمن اسماعيل باشا ، وان كان في ذلك الحين ضعيفا جدا لحداثة سنه من جهة ، ولقوة الحكومة الظالمة من جهة اخرى .. الا أن ضعفه لم يمنعه من النمو والارتقاء يوما فيوما ، تبعا لقواعد الرقى التدريجي ، فكانت كل حادثة من الحوادث السياسية ، من شأنها أن تقوى ساعده وتشد عضده للبقاء ، حتى صار اليوم على ما نراه عليه

وان من الجهل بالاحوال المصرية ، أن يقال ان الرأى العام اليوم ، هو غير الرأى العام قبل الاحتلال ، فاني لا أرى فروقا اليوم بينه وبين قبيل الاحتلال ، لا في مشخصاته ، ولا في موضوعه .. فان المصريين من يوم أن بدأوا في التعليم على الطريقة الغربية ، اخذوا يطمعون في أن يكون لهم حكومة دستورية متمدنة ، وأخذوا يتذمرون سرا من احتكار الشراكسة للوظائف العسكرية ، ويرون أن أبناء مصر هم أحق من غيرهم بخدمتها ، وأنه ما دامت العائلة المالكة مصرية نصبت بسعى المصريين ، فلا معنى لان تكون قوتها غير مصرية ..

---

(١) وهو فى هذا المقال يرد على خطبة لورد كرومر فى مجلس الاعيان

تربى هذا الرأى وترعرع حتى بلغ أشده ابان الفتنة العرابية التى انتهزها الانجليز سببا لاحتلال بلادنا • ولم يقل الى اليوم رجل حسن النية ، ولا لورد كرومر نفسه ، أن هذه المطامع التى كان يشف اعنها الرأى العام فى زمن اسماعيل ، هى مطامع غير مشروعة •• بل لا يوجدشخص أكثر احتقارا لبنى آدم ، ممن ينكر على قوم حبهم للدستور وسعيهم اليه ، أو ينكر على أبناء بلد حق الاستئثار بخدمتها دون غيرهم ، أو بعبارة أخرى ، امتعاضهم من رؤية الاجانب يحملون عنهم أوزار واجباتهم الوطنية ، التى هم أولى بالقيام بأعبائها

***

بقى هذا الرأى العام المصرى لضعفه تقذف به حوادث السياسة الى اليوم ، الا أنه مع ذلك لم يتحول يوما واحدا عن محوره الذى كان يدور عليه زمن اسماعيل •• أما ظهور هذا الرأى ظهورا جليا أمام أعين الاوروبيين ، فانه لم يبتدىء الا مع حرية الصحافة المصرية ، التى لم تنتشر فى مصر الا فى عهد الاحتلال الانجليزى ، وصار انتشارها أعم فى أزمنة سياسة الخلاف (١) لانه ان صح ما سمعناه كان لورد كرومر يحمى حرية طرف من الصحافة ، وسمو الامير يحمى الطرف الآخر •• وبذلك كان اعتداء احدى السلطتين على الصحافة المعارضة لها ، ان لم يكن مستحيل النتيجة ، فانه كان عاجزا عن القضاء على حريتها فى معارضتها أو الانتقاد عليها

لست أنكر أن الصحافة عندنا كانت فى وقت ما ضعيفة

---

(١) يقصد بذلك الخلاف بين العرش « السلطة الشرعية » ، والانجليز « السلطة الفعلية »

منحازة الى بعض أغراض ذوى النفوس ، كما كانت كل صحافة فى العالم ، وهى بذلك تؤدى صورة الرأى العام ناقصة عما هى عليه فى الواقع • ولكننى أنكر أنها خلقت رأيا عاما كاذبا ، كما يدعى كرومر ، أو كما يدعى أولئك الوجهاء الشرقيون الذين يسند اليهم هذا الرأى

لا أظن ان جنابه يستطيع أن يقول من اليوم ان الرأى العام المصرى كاذب ، أى منحرف عن حقيقة مصلحة البلاد، ولذلك لا يجوز الجرى وراءه فى آرائه ، لان الرأى العام وحده هو صاحب الحكم الاخير على منافع قومه ، سـواء أصاب من حكمه الحقيقة ، أو لم يصبها • غير أننا نظن ان لورد كرومر أراد أن يهون من مقام الصحافة المصرية امام زملائه النبلاء ، حتى لا تتخذ حملتها عليه دليلا على عدم رضى المصريين عن سياسته ، وبرهانا على انه لم يقم بالواجب عليه من توثيق عرى الروابط بينهم وبين قومه ، فقال بأن الصحافة أوجدت رأيا عاما كاذبا ، وأسف على أنه كان من أنصار حرية الصحافة فى الشرق •• فماذا كان ذنب هذه الصحافة المصرية ، التى هى البقية الباقية للمصريين من ميراث الحرية الذى ورثوه عن أبويهم : آدم وحواء ؟

هل حملت الصحافة على الانجليز بشىء لم يعترف به لورد كرومر ؟ انما قالت الصحافة ان الادارة الانجليزية تقف فى سبيل العلم والارتقاء العقلى للمصريين • هذا كل ما يدور عليه انتقاد الصحافة للادارة الانجليزيـة • والصحافة لم تخترع هذا القول ، بل اخترع هذا المذهب لورد كرومر ، اذ كان يشحن ميزانية المعـارف بمئات الالوف ، ثم يبنى بها مدارس بنفقات باهظة ، بعضها يقع على نفسه قبل أن يتم بناؤه ، وبعضها ينعق فيه البوم •• ثم يصرف كثيرا مما بقى لشبان انجليز ، وكل اليهم خنق

الملكات العلمية لا انماؤها ، بوصف مفتشين أو مدرسين، وبقية هذا الباقى يصرف على التعليم ، والذى لا يصدق هذا من الانجليز ، ليتكلف فتح عينيه على تصرفات الانجليز بنظارة المعارف فى عهد الاحتلال

على أن لورد كرومر قد كفانا مؤونة الاثبات على سوء نية الانجليز بالتعليم العام فى مصر ، فانه يقول بالامس فى مجلس الاعيان بميله الى الوقوف فى التعليم فى الهند عند حد التعليم الاولى والصناعى والزراعى .. يصرح بذلك ، ولكنه لا يجرؤ فى القرن العشرين أن يقول : ألا فاقفلوا كل معهد علمى فى الهند ، ليبقى هؤلاء الجهلاء عبيدا لنا الى الابد . اذا كانت تلك هى ميوله ومقدار عنايته بالعلم فى مستعمرة انجليزية ، فلابد أنه كان ينوى ذلك فى مصر التى يريد أن يجعلها كذلك مستعمرة لابناء التايمز . وقد دل تصرفه فى المعارف على ان تلك الفكرة ما كانت تبارح ذهنه يوما واحدا فهل يستطيع أحد أن يظن بأن الرأى العام المصرى ، كان يعتنق مذهب اللورد كرومر فى الجناية على العلم ، ولكن الجرائد هى وحدها دون جميع المصريين ، هى التى ترغب فى تعليم الامة المصرية !

كنا كلما قال قائل فى البرلمان الانجليزى من النواب أو من الاعيان كلمة تهيج خواطر المصريين أو تجرح شعورهم ، أشفقنا من جرائها على السياسة المصرية ، وحسبنا لها حسابها .. ولكنا بحمد الله وبمساعدة جناب لورد كرومر ، قد أصبحنا نعرف دخيلة مقاصد الانجليز بنا ، فلم يعد يرجينا فى برهم بوعودهم تصريح بوعد جديد ، ولا يقنطنا من استقلالنا تهديد ووعيد ، ولا يغير مجرى الرأى العام فى مصرنا شكل من أشكال سياسة الوفاق والخلاف ، فان الذى كان يدعى بالامس أنه الركن

الشديد لحرية الصحافة ، ويمنن علينا بها كلما أعجزه الامتنان علينا بشيء من الدستور ، أصبح ينادى بالويل على تلك الحرية الصحفية ، ويزعم ان وجهاء الشرق لا يريدونها

وليتنا ندرى لماذا يحترم اللورد رأى أولئك الوجهاء فى حرية الصحافة ، ويفتخر بأنه أرغم أولئك الوجهاء على الاذعان الى مبادىء الحرية والمساواة ؟ وأن الذى كان يدعى بالامس ان تقصير الادارة الانجليزية فى أمر التعليم العام لا يعد تقصيرا .. وان عد تقصيرا ، فانما سببه وجوب انفاق الاموال المصرية فى تحسين حالها الاقتصادية أولا ، ثم يلتفت بعد ذلك الى التعليم .. قد اصبح يقول اليوم ان الغرب غرب والشرق شرق ، وأن تعليم الامم الشرقية تعليما عاليا ، من شأنه ايجاد القلاقل السياسية !

اذا كانت نية الانجليز بنا قد وضحت على هذا الشكل الذى لم يبق بعده مطلب لمستوضح ، واذا كانت هذه هى سياسة الاستعمار الاوربى كما تشف عنه مقالة ذلك الكاتب الصريح والسياسى الفرنسى الكبير المسيو «لانيسان» حاكم الهند الصينية السابق ، فأحر بنا أن تستوى عندنا تصريحات الانجليز فى برلمانهم بأن الاحتلال مؤقت وتصريحاتهم بما يفسر بأن الاحتلال باق الى ما شاء الله ، وشاءت الاطماع الاستعمارية ، الا أن يكون هناك وسيلة للتمدين غير التربية والتعليم !!

الآن يجب علينا تلقاء ذلك أن ننظر لجميع المشروعات الانجليزية بالنظر الدقيق ، والا تتخدر أعصابنا بسياسة الوفاق الجديد (١) فان لورد كرومر فى خطبته « القصيرة المتينة ! » قد أماط اللثام عن مقاصد هذه السياسة الجديدة .. ولا ينبئك مثل خبير !

---

(١) بين الخديو والانجليز

الرأى العام قوة

تنقل اخبار الحوادث كل يوم امثلة جديدة من شأنها ان تزيد ايماننا بقوة الرأى العام ، غير انى مع ذلك ارى أن انتفاعنا بتلك الامثلة قليل فى جانب كثرتها ، ضئيل فى جانب عظمها ، فما سبب هذا ياترى ؟ هل نحن فى مذهب التقليد جامدون على ما ورثناه ؟

كلا .. ان الحس يشهد اننا فى غاية السرعة من التقليد تظهر المودة فى باريس ولندن ، فتصل لنا فى البريد الاول ، وما هو الا اسبوع واحد حتى تجدنا ـ رجالا ونساء ـ قد لبسنا ما يلبسون من الازياء والالوان . لم يظهر « الاتومبيل » فى أوربا حتى ملأ شوارع القاهرة جريا وصياحا ، الى غير ذلك من أمثلة التقليد فى المحسوسات والمعنويات ، تدل على أنها ليست هى ملكة التقليد التى تنقصنا ، فما بالنا اذن لا نقلد غيرنا فى العمل على تماسك الرأى العام ، ليكون له من القوة ما يناسب عدد أفراد الامة وحال ثروتها ومقدار أطماعها من الرقى السياسى ؟

اليك هذا المثل القريب القوى ، مثل قيامة الرأى العام الالمانى على جلالة الامبراطور غليوم ، ذلك الرجل الذى قل أن يوجد له شبيه بين ملوك الارض جميعا فى صدق وطنيته واخلاصه لقومه واجهاد ملكاته فى ان يحصل لأمته على سيادة البر والبحر ، وترويج مصنوعاتها

فى أدانى المعمورة واقاصيها .. يكتب ويخطب ، يفكر ويعمل ، فاذا قام وسط الطلبة خطيبا ينتقد خطة التربية أو طريقة التعليم ويشجع القائمين بأمر العلم ، تراه فى اليوم الثانى فى عرض البحر يكتشف مناورة بحرية أو فى وسط جيشه ينتقد نظاما حربيا .. حتى لقد كان الناس يظنون انه لا يفهم معنى الراحة ولا تمر بخاطره فكرة الترف ولا خاطر النعومة التى هى من شعار الملوك فى هذه الازمنة .. نسى ذلك الملك العظيم أنه الامبراطور ، نسى ذاته حبا فى قومه ، فرأى الرأى العام الالمانى يعضده فى كل ما يقول ويفعل ، وناهيك مما صرح به لمولاى « عبد العزيز » فى ابتداء الازمة المغربية ، مما يدل صريح الدلالة على ان الامبراطور يمثل الرأى العام الالمانى . ولكنه لفرط محبته لمصالح المانيا ، نسى ايضا ان قوة الرأى العام التى تعضده كلما نطق لمصلحة المانيا ، هى عينها قوة الرأى العام التى تخذله ان قال كلمة واحدة فى غير تلك المصلحة . ولم يمر بخلده ان خدماته الطويلة التى لم يوفق غيره لمثلها لن تكون له شفيعا امام قوة الرأى العام يوم يحاسبه حسابا شديدا

***

كنت من عشر سنوات مع جماعة من الالمان المتعلمين يدور بيننا الحديث فى المسائل السياسية ، فكانوا يقولون امبراطورنا فعل كيت وكيت .. امبراطورنا ينوى كيت وكيت . ان تصرف الدول فى مسألة كذا لا يرضى امبراطورنا ، فكان لفظ امبراطورنا يقع فى سمعى وقعا خاصا به لانه كان مطردا فى احاديثهم ، بحيث يمكننى ان اقول انى لم اسمع أحدهم يخطىء مرة واحدة فيقول حكومتنا أو مجلس الرشستاغ أو الوزارة .. الخ ، من

الالفاظ التى نجدها مستفيضة على لسان الانجليز والفرنسيين والنمساويين أيضا . وكان غريبا عندى أكثر من ذلك ، أن أصحابى الالمان هؤلاء ، لايذكرون الامبراطور الا بنوع خاص من المحبة والاجلال

كنت أتخيل أن مذهب الاحرار « الليبيراليزم » لا يزال ناقصا بعض اجزائه فى المانيا على الرغم من انتشار مذهب الاشتراكية فيها ، انتشارا يخشى عليها من الافراط فيه . وكنت أظن بمناسبة تصريحات جلالة الامبراطور لمولاى « عبد العزيز » وفى كل فرصة من أوقات مؤتمر الجزيرة ، ان هذا الامبراطور قد سحر الرأى العام الالمانى فجعله يزين الصواب والخطأ بلسان الامبراطور ، بحيث انه يجب الا يفهم يوما ما ان الامبراطور يجوز عليه الخطأ كما يجوز على كل بنى حواء

ولكنا الآن نرى العالم كله يمد اعناقه ليرى عن قرب قوة الرأى العام الالمانى المدهشة ، وليسمع ذلك الصوت العالى ، صوت اجماع امة كبيرة كهذه على تخطئة ملكها الكبير

سمعنا أن الاحرار الانجليز كانوا ينتقدون فى البرلمان على زيارة جلالة ملكهم لجلالة قيصر الروس . ولكنا ماسمعنا ان الاحرار والمحافظين والامبراطوريين والاشتراكيين ، يتفقون على كلمة واحدة ويصرحون بصوت واحد متجانس النغمة والرنين ، كما حصل ذلك فى جلسة الرشستاغ التى فتحت فى الساعة الثالثة صباحا ودرجة الحرارة تحت الصفر

بل ما سمعنا قبل اليوم أن الوزير يحكم على تصرف ملكه الذى هو (وحده) صاحب الحق فى تعيينه ، بمثل ماحكم به السياسى الكبير البرنس « ديبلوف » على الامبراطور

كان كل ذلك ونقلناه للقراء حتى امس . . وعلمنا منه

ان قوة الراى العام الالمانى قد اظهرت تماسكا شديدا فى أجزائها ، من شأنه ان يجعل الامبراطور يرضى باستبقاء وزيره الأكبر فى منصبه بعد هذه المخالفة الصريحة، ويقره على كل ما طعن به على حديثه فى الرشستاغ ، ويقولون بعد ذلك ان قوة الراى العام وحدها من غير حاجة الى قوة مادية ستغير الدستور الالمانى من اليوم ، لتأخذ من الامبراطور تلك الاختصاصات التى كانت تاركة له اياها ما دام يتصرف بها حسب ما يتفق مع ادارة الراى العام

نظلم انفسنا اذا أردنا ــ ونحن حديثو العهد بالعلم والمدنية ــ أن نتشبه بالالمان فى حريتهم القومية وتماسكهم فى الرأى ، ولكنا نسرد هذه الوقائع لنعود بها للجواب عن سؤالنا الأول : لماذا نحن لا نقلد غيرنا بتقوية الراى العام عندنا مع ملاحظة حالنا من القوة والضعف والعلم والثروة، وما يثقل من الاحتلال والسلطة الشخصية ؟ لماذا ليس تقليدنا فى ضم أجزاء الراى العام متناسبا مع تقليدنا للاوربيين فى ألوان المطاعم والمشارب وانواع الملابس واللذائذ؟

قلة وطنية ، احتقار لأنفسنا .. ذلك هو السبب فى تخاذلنا عن جعل قوة الراى العام متناسبة تماما مع اطماعنا العقلية والسياسية

ادخل الى اى مجلس من المجالس ، فى دوار العمدة ، او فى سراى الوزير ، او فى مكتب المحامى ، او فى عيادة الطبيب او فى زاوية النيوبار او السبلندبار (١) ، حيث كنت من هذه المجالس تجدنا نتكلم فى السياسة .. نسب ذاتنا وامتنا ، نرمى انفسنا بالضعف والعجز ، نرمى اخلاقنا بالفساد ، نرمى عاداتنا بالقبح ، نرمى رجالنا بعدم الثبات ، نرمى موظفينا بفساد الذمة . ولو اطلعت علينا

---

(١) نيوبار ، واسبلنددبار ، مقهيان كانا مشهورين بالقاهرة

فى هذه الحال لاعتقدت اننا لسنا مصريين ، لولا العمم والطرابيش . فاذا كتب منا كاتب او خطب خاطب ، استحى أن يحصل ما يدور فى تلك المجالس على السنة الذين هم جذع الرأى العام فى الحال ، ومنبت اغصان الرأى العام فى الاستقبال

***

كل شىء فى الملكات الانسانية يقوى بالتمرن والاعتياد .. الاستعداد يستحيل أن ينقص أمة باسرها ، ولكن الذى ينقص الامة هو تمرين ملكاتها وتعويد افرادها على القوة والثقة بالنفس . لا فرق بين البدوى فى شجاعته والحضرى فى جبنه ، الا ان الأول معتاد على ملاقاة الموت كل يوم ، والثانى معتاد على الاتكال على البوليس .. لا فرق بين العالم فى شجاعته الأدبية والجاهل فى ضعفه وعدم ثقته بنفسه ، الا أن العالم قد علم بمقدار الحياة فاستهان بها .. علم بأن الحقيقة هى أغلى ما تضحى له الملكات والراحة بل والحياة ايضا .. علم بأن علة الخلقة هى خدمة الحق ، ومن لم يخدم الحق لم يقم لله بواجب الخلقة .. علم بأنه لا لذة للرجل الذى يذوق طعم اللذائذ، اشهى من لذة فناء ذاته فى خدمة نوعه .. علم ذلك كله فهانت عليه أعراض الحياة . وأما الجاهل ، فلا يعرف طرفا من نفسه ، حتى يثق بها

مادامت ملكة قوة القلب والثقة بالنفس هى ملكة ينميها التمرين والاعتياد أيضا ، وجب علينا الا نصرف الوقت فى السخرية من انفسنا ، لاننا اذا اعتدنا ذلك فقدنا بالزمان كل عامل من عوامل احترام الذات ولحقنا الفناء حتما .. علينا أن نروض أنفسنا على أن يعتبر كل منا نفسه انسانا مخلوقا لحقوق يتقاضاها من هذا

الوجود ، اعتبارا ممزوجا بفضيلة التواضع التى هى مرآة لجميع الفضائل

اما اذا قلدنا الالمان مع عدم اغفال الوسط الذى نحن فيه ، وقلدنا الانجليز والفرنسيين مع ملاحظة البعد بيننا وبينهم ، وذلك بتمرين ملكاتنا على القوة والثقة بالذات حصلنا آخر الامر من الراى العام على قوة تناسب اطماعنا تماما .. هنالك نحصل على ما نريد من غير عناء كبير ، بل من غير سؤال ولا استنجاد .. على قوة الراى العام يتوقف نجاحنا فى طلب الدستور



الاضطراب فى الرأى العام

لاشك فى أن نشر المبادىء الخفيفة الوزن ، وتقرير الخطط غير الممكنة ، قد زاد حالتنا اضطرابا على اضطرابها الاول .. أفلم تكفنا الحوادث المحيطة بنا داعيا الى محاولة الخروج من هذا الاضطراب ؟

نريد أن نخرج من هذا الاضطراب المعنوى الذى تمشى فى جميع علاقاتنا وروابطنا ، فأبلى جدتها وذهب بمتانتها وتركها رثة غير صالحة لتادية وظيفتها الطبيعية ووظيفتها ــ كما تعلمون ــ هى صلاحيتها للاعتماد عليها فى جميع اعمالنا الخاصة والعامة . وليست آثار ذلك قليلة بيننا .. كلنا يشكو من عميله ، يشكو من رئيسه ومرءوسه .. يشكو من محالفه ومحاربه على الخدمة العامة ، بل كلنا يشكو من زميله ومن صاحبه ، وأقل ما تدل عليه هذه الشكوى العامة ، هو أن الثقة بين الافراد قد انتزعت أو كادت ، والثقة هى كل شىء

نريد أن نخرج من هذا الاضطراب المعنوى الذى جعلنا نتردد أمام العمل لخير بلادنا ، فانه اذا كانت علاقات الاسرة والصحبة والمعاملة ضعيفة كما وصفنا ، فان علاقاتنا العامة أضعف . ومتى كانت علاقاتنا العامة أى

---

* الجريدة فى ١ من شهر سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٦٦

علاقاتنا القومية ضعيفة ، وثقتنا بعضنا ببعض بالية كان رأينا العام مضطربا ، أعجز من أن يعبر تماما عن مصلحة البلاد .. وأبعد من أن تكون آثاره سعدا علينا . وليست هذه النتيجة نتيجة نظرية ، بل الواقع الملموس فى بلادنا هو اضطراب الرأى العام فى الحكم على كثير من مسائلنا الحيوية

لست فى مقام البحث فى أسباب هذا الاضطراب ونتائجه فى العلاقات الفردية ، ولكنى اكتفى بالبحث فيما يخص الراى العام من هذا الاضطراب وخطئه فى الحكم على بعض المسائل ذات الاهمية فى مصر

لست انكر ان الراى العام فى مصر اظهر قوة فى بعض المسائل ، ولكنى مع ذلك لا ازال اعترف بأن كثيرا من المقدمات الخفية أو المشاعر الامية التى يبنى عليها الرأى العام حكمه مقدما ، غير منطبقة على مصلحة مصر

الراى العام معذور لانه لا اختصاص له فى الابحاث الدقيقة ، ولا وقت عنده لادامة التفكير .. فان اخطأ فمعظم المسئولية راجع الى من يقدمون له المقدمات غير الصحيحة او غير النافعة ، لان قواد الرأى العام كانهم لم يهتدوا بعد الى تحديد مطالب الامة بصورة واضحة .. ولئن اهتدوا الى بعض المطالب ، فانهم لم يهيئوا لها شعور الناس بطريقة بينة خالية من التناقض

***

الرأى العام يحكم بشعوره دائما وفى كل امة تقريبا .. لذلك كانت وظيفة خدام الرأى العام او قادته ، تنحصر دائما فى تهيئة الشعور القومى الى قبول المبادىء الصالحة للامة

اما اذا اختلط على الكتاب المقاصد بالوسائل والاسباب

بالنتائج ، أو اذا هيئوا الشعور العام الى نقيض مطالب الامة ، فأخلق بالرأى العام ان يتردد ويضطرب وينشق فى الحوادث الهامة ، ويكون حكمه عليها مخلطا ، منافيا فى كثير من الاحيان لمصلحته

خذوا مثلا على ذلك : المقصد الاكبر ، أومقصد المقاصد للامة المصرية ، هو الاستقلال .. هو الحرية السياسية .. هو الحرية العامة .. هو تمتع الامة بحريتها التى وهبها الله لها بالفطرة . أقول مع السرور ان الرأى العام المصرى مجمع على ذلك بوجه ما . وقادة الرأى العام يقولون به صباح مساء ولكن كثيرا منهم من لا يقيم وزنا للقومية المصرية فى تربية شعور المصرى . يقول ان مصر ليست وطنا للمصريين فقط ، بل هى وطن لكل مسلم يعيش فى أرضها سواء كان عثمانيا أو غير عثمانى ، فرنسيا أو انجليزيا ، صينيا أو يابانيا .. على ذلك تكون القومية المصرية أو الجنسية المصرية معدومة ، ومتى انعدمت القومية كيف يفهم الاستقلال ؟ .. وأدنى مراتب الاستقلال الاختصاص بالحقوق الوطنية فى مسطح من الارض محدود بحدود جغرافية معينة ، الا أن تقولوا معى ان صاحب هذا الرأى يريد الفرض ولا يريد المقدمة .. يطلب الاستقلال ، ويهيء شعور العامة الى نقيضه !

أليس هذا المذهب يجر حتما الى القول بأن الاستقلال هو غير الاستقلال ، وأن استقلال المصريين بمصر ، معناه ملكية مصر على الشيوع لجميع مسلمى الكرة الارضية ؟ أى ان مصر وطن محدود مملوك الحقوق « قانونا » من المسلمين والمسيحيين عن طريق الاختصاص .. ثم هو مع ذلك وطن مملوك الحقوق لجميع المسلمين غير المصريين !!

يظهر لنا أن الذى أوقع هذا المذهب فى التناقض ، هو محاولة جعل التخالف فى المعتقدات الدينية اساسا للعمل فى السياسة الدنيوية . وهذا مذهب خطر .. وقد أبنا خطره فى كل ظرف من الظروف المناسبة ، وقلنا مع القائلين ، بأن المنافع الحيوية هى وحدها التى يصح اتخاذها قاعدة للاعمال السياسية ، واننا نعتقد اعتقادا جازما بأن جعل المنفعة أساسا للعمل فى السياسة ، مذهب لا يأباه الدين الحنيف .. يعمل الناس فى الحياة لمنافعهم كما يشاءون بشرط الا يحللوا محرما ولا يحرموا حلالا ، ويتادبوا بآداب دينهم الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر . ونحن لا ننكر أن بعض الساسة الاوروبيين قد استعمل الدين فى بعض الاحيان الماضية سلاحا يخدم به السياسة ، ولكنه سلاح يوشك أن يكون خطرا على حامله ، أكثر منه على خصمه .. فمن النافع والضرورى معا جعل المنفعة هى الأساس الوحيد للعمل فى السياسة ، دون التخالف فى المعتقدات الدينية ، وتحديد الوطنية المصرية كما حددها قانون البلاد ، أعنى أن الحقوق الوطنية فى مصر هى لمن يعترف له القانون بالمصرية ، دون غيره من سائر الأجناس

غير أن ذلك المذهب على تناقضه يوافق أمزجةالعامة ، اكثر من مذهب القانون المصرى ، لأن اصحابه يكسونه كساء من الدين يجعله سائغا عند البسطاء ، وأن كان العمل به مناقضا كل التناقض لما تطلبه الامة من الاستقلال .. بل يناقض الصيغة المصرية المقدسة ان « مصر للمصريين »

لاشك فى أن تربية شعور العامة على هذا النحو يجعل الرأى العام ضعيفا مضطربا فى مقصده العالى ، وهو الاستقلال .. يجعله عاجزا عن التمييز بين مصلحته

بوصف أنه مصرى ، وبين واجباته بوصف أنه مسلم

ذلك مثل من أمثلة الخطأ الذى يقع فيه العوام تبعا لقواد الراى العام

***

مثال ثان : من قادة الرأى العام من يطالب بجلاء الانجليز عن مصر حالا ، من غير ممهدات لهذا الجلاء .. كأن الانجليز جاءوا ليخرجوا منها بمقالة أو مقالات تكتب فى صحفنا المصرية . هذا بعينه ، أدى الى أن القائلين به يقطعون كل علاقة مع الانجليز ويتجاهلون سلطتهم الفعلية فى البلاد .. يقيمون القيامة على كل رجل مصرى يذهب للوكالة البريطانية ، لاى سبب من الاسباب .. ينحون باللائمة على النظار اذا حضروا الاحتفال بعيدملك الانجليز ويرون ذلك خيانة للوطن . فكان المفهوم أن الذى يقول ذلك ، يغضب من مجىء الوفد العثمانى لتقديم التحية لملك الانجليز يوم عيده ، بالوقوف الى جانب العلم الانجليزى. فهل حصل ذلك ؟ أم الذى حصل انهم أخذوا يحثون الناس على الترحيب بصاحب السمو السلطانى رئيس الوفد ، ويدلونهم على مواطن جيئاته وروحاته ، ليقيموا له المظاهرات التى كان يأباها ويتوقاها هو نفسه .. يكون مفهوما من جانبهم الاحتفال بالوفد العثمانى ، اذا كان قد جاء للاحتجاج على الاحتلال . ولكن كان يفهم من جانب الذى يقول بالجلاء أو المحتج يوميا على الاحتلال ان لا يحتفل بممثل الاحتلال . أليس الاحتفال بالوفد العثمانى احتفالا بملك الانجليز من جميع الوجوه ؟

ولئن وقع فريق الرأى العام المطالب بالجلاء حالا فى هذا التناقض فليس عليه مسئولية عظمى .. انما

المسئولية العظمى على الذين كانوا يقودونه الى هـــذا التناقض المضحك

مثال ثالث : كلنا متفق على وجوب انماء الفضـــائل الاجتماعية فى بلادنا حتى نجنى ثمارها المفيدة ، واخصها التضامن الذى يتوقف عليه كل عمل عام . تضامن المصرى مع المصرى ، واحترام المصرى للمصرى ، وثقـة المصرى بالمصرى . ولكن من كتابنا من لم يترك مصريا من أولى المقام المتبين فى الثروة أو فى العلم او فى الخلق ، الا شهر به لأدنى شهوة . والشبان من طهارة قلوبهـــم وبراءة نفوسهم ، يصـدقون بغاية السهولة قدح الجرائد فى اخلاص رجال البلاد أو فى كفاياتهم المتنوعة .. حتى نتـــج عن ذلك اننا أصبحنا والحمد لله ، نكاد نكون مجـردين عن وجود رجال مسئولين ، يمكن الثقة بهم من غير تظنـــن ولا شكوك

فاذا وجدت الرأى العام قليل الثقـة باخـــلاص الاشخاص القادرين فى البلاد ، الذين كان من حقهم أن يكونوا كاسبى ثقته ، فلا تلم الرأى العـــام بل أعذره ، فان قادته هكذا علموه ، ولم يتركوا لله من اهل البـلاد موضع ثقة

***

مثال رابع : من أولئك الكتاب من يسرف فى التعبير ، فيسمى الانجليز ــ وهم قابضون على السلطة الفعلية فى البلاد ــ أعداء ، ويكرر ذلك فى الكتابات . وقد قلنا لهم من قبل ان العقلاء الانجليز وأولئك الكتاب انفسهم ، يعلمون معنى هذا العداء اللفظى أو الافلاطونى الذى لايهيج طائرا ، ولا يحرك ساكنا . ولكن الاحداث من العـــوام الذين لم يستطيعوا تقدير مركز مصر يأخذون هـــذا اللفظ على

أشد معانيه ، وربما أدى ذلك الى اعمال صبيانية ــ كما حصل ــ تؤخر مصر فى طريقها الى الرقى المنشــــود ، وتجعلها تفقد نهائيا بقية الامل فى المستقبـــل ، فيموت فيها الشعور بالقومية ، اذ لا حياة الا بالامل

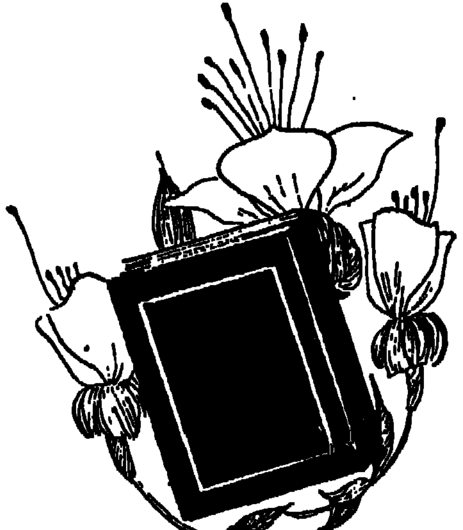
فاذا كانت فرصة ظهر فيها الرأى العام منشقــــا على نفسه فى فهم معاملة الانجليز فى مصر ، فالمســـئولية راجعة على المسرف فى اللفظ ، الذى يخبط قلمه مكبــا على وجه من غير دليل ولا احتياط

على أن رقى البلاد متوقف على فهم الرأى العام لوجوه المصلحة بطريقة واضحة .. لا أقول فهمه للمســـائل الدقيقة ، بل لأمهات المبادىء العامة الضرورية للرقى ، حتى تصبح هذه المبادىء شاغلة محلا من شــــعوره ، فيؤمن عليه من الخطأ فى الحكم على الحوادث الكبرى ، كما فى البلاد الاخرى

وعندنا ان الوقت الحاضر مناسب جدا لتحديد اغراض الامة من حياتها المستقبلة ، والوسائل المشروعة النافعة لنيل تلك الاغراض . وعلى الشبيبة المصرية يقع جـزء عظيم من واجبات تحديد المقاصد والوسائل على وجــه مستقيم خلو من التناقض ، كافل السير الى الامام فى ترقى البلاد

الفصل الرابع

إلى الشبيبة



الى الأمام

منا من يدرس حالتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، بتتبع الأشخاص أولى المظاهر منا فى أعمالهم واقوالهم ونتائج أفكارهم والطرق التى يسلكونها لبلوغ أغراضهم ، ومقدار ثباتهم على المبادىء فى سياستهم والتضحيات التى يجودون بها لترقية وطنهم ، وكيفية معاملاتهم المالية وغبنهم فيها أو ربحهم منها ، وقعودهم عن محاولة اظهار كفاءتهم التجارية والمالية .. ثم ينعم نظره فى الشعبية المصرية ، فيقدر مالها من الكفاءات المتنوعة بالنسبة لما سيثقل به المستقبل كاهلها من الواجبات ، ويرقب حال الاسرة المصرية ووقوفها عن التطور الى حال تتفق مع التطورات الاجتماعية الاخرى . ثم يطيل النظر فى كل هذه المسائل تفصيلا واجمالا ، فيدخل الى نفسه اليأس من صلاحيتنا عاجلا الى ما نطلبه من الاستقلال ،وهو لا يحفظ هذه النتيجة السوداء لنفسه ، بل يجود بها كل يوم على خلطائه ومجالسيه كلما قرأ فصلا عن سلطة الأمة ، أو رأى مظاهرة تؤيد القول بسلطة الامة .. واقل ما يجود به لسانه الطاهر على قومه، أن الصحف مخرفة، تصوغ اقيسة مقدماتها من الخيال ، وأن هذه أمة لا تنفع، واذا كان من عادة هذا اليائس المجاملة فى القول ، ادخل

---

* الجريدة فى ١٢ من ديسمبر ١٩٠٩ العدد ٨٣٩

نفسه فى عداد من يرميهم بالصغار. والقعود عن اعلاء كلمة الوطن ، فيقول هؤلاء قوم لا سبيل الى اصلاحهم وأولهم انا

منا هذا المفكر اليائس الذى قصر نظره عن النظر فى ماضي الأمم ، وضاقت نفسه عن الصبر ، وخلت أقيسته من كثير من المقدمات العلميــة ، وانبنت على ظاهر من الحوادث الافرادية التى تحصــل فى كل أمة ، مهما كان مركزها من الرقى . منا هذا ، ومنا صنف آخر هم ساسة الصدفة أو ساسة « المناظر » وهم لنكد الطالع كثيرون

***

تسأل أحدهم عمــا اذا كن رشح نفســه للانتخابات الجــديدة فى مــركزه فيجيبك : « دا كلام فارغ » . اى انتخابات أرشح نفسى اليها ، واى مجلس تريد أن أحضر فيه ؟ انا اربأ بنفسى دائما عن العضــوية فى مجلس يكون المدير فيــه ، هو الكل فى الكل ، وليس لأعضــائه الا أن يصدقوا على ما قاله المدير » .

هذا هو عذره ، والله يعلم أنه كاذب فيه . ولكنــه فى الحقيقة ، ساقط الهمة ، معدوم واسطة السعى، مفضول فى قومه ، يخشى أن يسخر منه الناس اذا تعرض للانتخاب ولكنه مع ذلك فخور ، لا يطلب من الحياة الا أن يقــدره سامعوه فى «المنظرة» بأكثر مما هو عليه فى الواقع، وأغرب من عذره الكاذب هذا أنه يندفع من غير حياء فى الحط من قيمة مواطنيه وأمته .. الى آخر ما يتدفق به لســانه مما لا حقيقة له فى الواقع ولا فى نفسه أيضا .. ويكون ختام حديثه : « نحن قوم لا ننفع » ، يقول ذلك عفواً من غير روية ، وتفضلا من غير نظر طويل، كنظر ذلك اليائس الذى بنى حكمه على ما اعتقــد خطأ من الحــوادث التى شاهدها بنظارته السوداء

منا هذان.. ومنا ذلك الموظف الذى يشكو لك مر الشكوى مما يلقاه من الصغار فى خدمته ، أو من المضض الذى يلحق نفسه حين يكلف بوضع مشروع ضد مصلحة البلاد ، أو التصديق على مشروع يعتقد أنه ضار لا نافع ، أو تنفيذ فكرة ، أو القيام بعمل يعتقد أن بينه وبين الحق والعدل بونا بعيدا

يشكو لك حاله التعيسة، فاذا قلت له : « وما يمنعك من أن تدفع عن نفسك هذا الألم وتوفر على وطنك ما تعمل له من الضرر بأن تستقيل من وظيفتك ، فما أنت فيها مكبل بالسلاسل » ، اخذ يعتذر عن بقائه بعذر أبرد من عذر ذلك العامى المرشح للانتخاب . يقول لك : « وهل فى قومنا من يقدر الفضيلة قدرها ويثنى على الثناء الجميل ، أو يحترمنى على الأقل بعد خروجى من الخدمة كما هو يحترمنى وأنا فيها ؟ »

هذا الموظف أيضا يلقى التبعة من جبنه على الأمة ، كما ألقى هذا العين قعوده عن السعى للانتخابات على عاتق الأمة ، وكما ألقى المفكر اليائس تبعة فساد علمه أو قلة عقله وصبره على عاتق الأمة

كل امرىء حر فى أن يفكر ما شاء ، ويقول عن نفسه وعن قومه ما شاء ، وعلى الأخص ما اعتقده فيهم ... ولكن هذا المبدأ مبدأ القعود عن العمل الصالح يأسا من الاصلاح ، والكف عن التقدم الى الامام على فكرة أنه غير نافع ، والعدول عن اتيان الفضيلة اعتمادا على أنها غير مقومة عند العامة

هذا المبدأ — مع انه خطأ محض فى ذاته — فانه خطر جدا وربما كان هو السبب الحقيقى فى عدم تقدمنا بعيدا الى الامام

فأما الأمة من حيث الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فهى بخير ، وغاية الأمر انه ينقصها ما كان ينقص كل أمة من الأمم العظمى فى أوائل أدوار انتقالها. وما كان النقص فى بعض معدات الرقى داعيا لليأس ولا محلا للتجنى ، انما هو موضع للعمل لتكميل النقص

واذا كان من الوطنية ان يطعن الانسان فى نظام من نظامات امته لينبه الأفكار الى تغيير ذلك النظام أو اصلاح الخلل ، فليس من الوطنية فى شىء أن يعوقه غيره عن السعى لمصلحة بلاده ليتخذ ذلك عذرا لخموله ، ومناصا من التبعة التى تلحق ضميره من القعود . واذا كان من الحرية أن يعلن المرء رأيه لما يراه نافعا لبلاده مهما كلفه ذلك من التضحية ، فان من العار أن يتسلى الرجل بالحط من كرامة امته ، حتى يشهد له الانجليز أو اليائسون ، بانه حر الضمير ، وهو يعلم انه مراء فيما يقول

وبعد هذه الاعتبارات ننصح للعاملين الا يصغوا لما يقول اليائسون ، مهما علت مراكزهم فينا ، وليتقدموا دائما الى الأمام

القلق الفكري

تلفت اذهان الشبيبة الى الفكار ترجح ان تدبر
الى توحيد الانظار المختلفة في تحديد القواعد الثا
التى تبنى عليها اعمالنا لمصلحة بلادنا

وثقتنا فى عقولهم الراجحة المستنيرة بالمنطق
انها أكبر عون على اعـادة النظر فى مذاهبنا الد
لينفى عنها التناقض وتغـادرها الأفكار العاطلة
التحقيق ، وتسلم بذلك من الخطط العقيمة التى
لهـا على عجل والتى كان من حقها الا تتبع ..
الأسف قد اتبعت فى العمل ، فانتجت نتيجة
اغرام الامة بالتعلق بالاحلام والامانى الكاذبة ، د
بصورة الآمال الصادقة الممكنة الوقوع

ولقد غلا كتاب هـذه الخطط فى تزيينها ،
للشبيبة على مقادير غير مناسبة لحال البـلاد
مع مصلحتها ، فلم يطق بعض الاحـداث حملها
أفكار مجردة غير صالحة للعمل بها ، بل زجوا
الى مهاوى تحقيقها بوصف انها من اعمال البسالة
فى خـدمة الوطن . وما هى فى الحقيقـة الا نز
الاضطراب الفكرى الذى كان من اسبابه المبادىء
والخطط غير المنتجة التى وصفها الكتـاب غير

---

* الجريدة فى ٣١ من اغسطس سنة ١٩١٢ العدد ١٦٥

لنتائجها ادنى حساب

ومهما انكرنا بحق قول القائلين فى هذه السنين الأخيرة بوجود اضطراب فى مصر ، فاننا نجاوز الحق اذا قلنا ان الخطط السيئة التي جرى عليها بعض الكتاب ، لم تكن من الأسباب لبث القلق الفكرى فى الشبيبة على الأخص وتغذيته الوقت ، بعد الوقت ، بسموم من الوهم وخطأ فى تقدير النافع والضار

ليس هذا القلق الفكرى خفيا يدعو الى البحث والاستدلال ، ولا هو صامت يطلب له البيان .. بل هو ظاهر يعلن عن نفسه بفصاحة متدفقة من صحائف بعض الكتاب ، وعلى السن كثير من الذين يتحدثون فى السياسة ويهتمون اهتماما مفيدا أو مضرا بمصالح البلاد . ولقد ادى الأضطراب العصبى والقلق الفكرى المتولد من المبادىء الخاطئة ، العقيمة عند بعض الشبان الى الخروج فى هذه السنين الاخيرة عن حدود العقل والأخلاق القويمة ومصلحة البلاد . ولكنه مع ذلك لم يعدم من كتاب الطيش وشعرائه ، تمجيدا كأنه قام بمنفعة ، وما قام الا بضرر ، وما الحوادث التى جاءت بعد جناية « الوردانى » ، والقوانين التى سنت ، والحرية التى حدت ، ورجوع الأمة فى سعيها الى الوراء ، الا نتيجة من نتائج تلك الجريمة الشنعاء

***

نظلم اولئك الكتاب اذا قلنا انهم هم الذين خلقوا هذا القلق الفكرى ، لانه ربما يكون هو الذى خلق مذاهبهم فوجدوه على كل حال متقدما بالضرورة على تلك المذاهب المتناقضة والخطط الضارة ، لأن هذا القلق انما هو تابع للاضطراب العام الذى تولد من انتقال الأمة من حال الى حال ، ومن طبائع الاستبداد الطويل ، ومن حرمان الأمة

من الحرية السياسية ولو على القدر الذى تسمح به الظروف

نظلم تلك الخطط اذا نسبنا لها وحدها هذا القلق .. ولكن لاشبهة فى انها سبب فى تجسيمه وانتشار آثاره . ولئن عجزنا ان نستاصل الاسباب الطبيعية او الاسباب التى ليس فى قدرتنا استئصالها ، فاقل مايجب علينا الا نضيف اليها من عند انفسنا اسبابا جديدة ، وان نسعى جهدنا فى قطع فترة الانتقال بسلام وسكون ، وان نعالج ما استطعنا القلق الفكرى ونتائجه ، فلن القلق فى الافكار هو طريق الشقاء ، وسم الحياة ، وداعى العجز والقنوط .

القلق الفكرى فى مجموع من المجاميع ، لا يكون أثره الا التخبط فى العمل على غير هدى .. يخلط عملا صالحا وآخر سيئا ، فلا تكون النتيجة الا أن هذا المجموع لا تستقيم له طريقة ولا يتم له عمل ولا يثبت له نجاح ، الا بمحض المصادفة .. وكفى المرء غقما أن تكون أفكاره وأعماله زمامها بيد المصادفة تقودها الى حيث تشاء

ان الدين ترهقهم الحوادث ، تقع على اشخاصهم اوعلى أوطانهم ، فتبلبل أفكارهم وتسلمهم الى الاضطراب ، فيخرجوا عن جادة الصواب . مهما كانوا معذورين — لا يحل لهم أن يتصدروا لقيادة الرأى العام ، فانهم ليسوا الا رجالا صغارا أو اطفالا كبارا

لم تؤت امة من الامم مفاتيح الغيب ، حتى لا يقع فيها من الحوادث الا ما تختار .. ولكن الرجال الراشدين والشبيبة العاقلة فى كل امة ، يتقبلون الحوادث بعزم وصدر رحب ، يصبرون عليها صبر الكرام ، ويقرنون الصبر بالعمل لخير امتهم وسعادتها ، ساعين فى ذلك لاجادة مستقيمة مضمونة النتيجة ، او راجحة النجاح

يعلمون ان من العسف والشطط العقيم ان يكون تحرير البلاد طفرة وعلى غير استعداد ، وانه يكفى فى تحقيقه كلمة حماسة لا تؤثر فى قارئها الا كما يؤثر فى العامة أثر أبى زيد الهلالى فى تونس ، أو ما قال عنترة فى ميدان القتال ، أو انه يكفى لتحقيقه منشور ثورى سخيف لا أظن أن قومنا لا يرونه الا ساخرين منـــه ، حاكمين على واضعه بالغفلة والجنون

ان استقلال الأمة نتيجة تربية طويلة واعتقادات وميول عامة ، وأطماع كبيرة لا تجيئها دفعة واحدة ولا فى جيل واحد ، بل تختمر فيها وتنتج نتائجها الطبيعية بالزمان .. على أن تقدم مصر واســتقلالها حتى مع توافر جميع الأسباب ، لا يجىء بالمنشورات والتحمس الباطل ، وانما يجىء من العمل الهادى ومن السلام

كل من فى البلد من صغير وكبير يقول بأن أعمال العسف تؤخر البلاد فى طريق الخير والاستقلال ، ولكننا مع ذلك يجب أن نبحث هذا الفهم الرشيد بغـــاية الصراحة ، من غير مواربة ولا احتياط .. أليست بلادنا تابعـــة للدولة العلية ومحتلة احتلالا عسكريا بانجلترا ومحتلة احتلالا ماليا بجميع الدول الاوربية القوية ، التى تزيد معاملتها فى مصر سنة على سنة ، والتى لا تسمح بأية حركة يكون من شأنها الاضرار بحقوقها

هل يوجد مجنون فى بلادنا يمكنــــه أن يقـــول بأن مصر تستطيع أن تدوس هذه الاعتبارات ، وتسلم من اللحاق فى اليوم التالى بأية دولة تســـتطيع أن توطد فيها أركان السلام وتفتحها للاستغلال الاوربى ، كما كانت وكما هو الآن ، أم هل يوجد رجل غفلة يظن ان الاضطراب فى الأحوال يكره الانجليز الاقوياء على أن يتبعوا فى مصر سياسة غير

التى سنوها من قبل ؟

لو قيل ذلك قبل زيارة المستر روزفلت (١) لمصر ، لكان له بعض التأثير فى عقول البسطاء من العوام .. أما والحال على ما نرى ، فكل فكرة من هذا النوع ضلالة وضرر محيق بالبلاد

على هذه الاعتبارات يجب علينا أن نقتلع جراثيم الخيالات المضرة من أدمغة الاحداث ، ونجد فى فهم المسألة المصرية على حقيقتها ، ونبعد عنا تأثير القلق الفكرى ، لنشتغل لمصلحة بلادنا بالطرائق المنتجة مع التزام السكينة والسلام

ولا شبهة فى أن شبابنا العقلاء ، هم وحدهم أقدر الناس على محاربة القلق الفكرى ، والسعى بالأمة فى طريق الصبر والعمل لانماء الكفاءات المصرية التى بها لا بغيرها ، يكون الرقى المطلوب .



---

(١) هو تيودور روزفلت الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدة ، وقد زار مصر سنة ١٩٠٤ وكان ممالئا للاحتلال البريطانى ، ولهذا قوبلت زيارته بهياج فى الرأى العام المصرى . وهو غير فرانكلين روزفلت الرئيس الثانى والثلاثون للولايات المتحدة الذى شهد الحرب العالمية الثانية وتوفى سنة ١٩٤٥

فلسفة الاستقلال

يجب حقيقة ان يظهر للمصريين خطة معينة واضحة تحدد آمال الأمة وأطماعها والوسائل المشروعة الممكنة لتلك الآمال والاطماع .. يجب ان تكون تلك الخطة واحدة لجميع المصريين ، لأنها ترجمان المصلحة المصرية . ولو صح الخلاف بين الاحزاب فى بعض الجزئيات ، لما جاز ان يكون هناك خلاف جوهرى فى آمال الأمة من الاستقلال

غرضنا النهائى استقلال مصر .. ومن المستحيل على الامة أو على أى فرد من أفرادها ان ينازع فى ذلك .. استقلال الامة فى الحياة الاجتماعية كالخبز فى الحياة القومية ، لا غنى عنه ، لأنه لا وجود الا به . وكل وجود بغير الاستقلال مرض يجب التداوى منه ، وضعف يجب ازالته .. بل عار يجب استبعاده

اذا كان الاستقلال ممكنا طلبناه ، وان كان مستحيلا عالجناه ، لأنه هو معنى الوجود القومى ومناط الامل فى الحياة القومية .. على أن استقلال أمة فى عددنا وفى ثروتنا وفى مركزنا الجغرافى ، بعيد أن يكون مستحيلا .. وأقرب شىء أن يكون ، متى طلبناه من بابه بالوسائل المنتجة

ومن الذل والضعف بل من الانتحار القومى ، ان نسكن

* الجريدة فى ٢ من سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٦٧

أو نساعد على بقائنا الى الابد فى الحالة التى نعير بها صباح مساء

دارت بينى وبين أوروبى مناقشة فى السياسة ، فاذا به يقول لى : « ومتى كنتم مستقلين حتى تبغوا الاستقلال الآن ؟ » .. واظن انى لم اكن لاختص وحدى بسماع هذا التعبير الجارح من كل الذين لهم مصلحة فى الاستعمار

استقلال الامة ، أو حريتها السياسية ، حق لها بالفطرة ، لا ينبغى لها أن تتسامح فيه أو أن تنى فى العمل للحصول عليه .. بل ليس لها حق التنازل عنه لغيرها ، لا بكله ولا بجزئه ، لأن الحرية لا تقبل القسمة ولا تقبل التنازل .. فكل تنازل من الأمة عن حريتها كلها او بعضها ، باطل بطلانا أصليا لا تلحقه الصحة بأى حال من الاحوال . فلا جرم مع هذا المبدأ المسلم به عند علماء السياسة ، ان قلت أنه يجب على الأمة أن توجه كل قواها بغير استثناء الى الحصول على وجودها بصفتها أمة ، أى للحصول على الاستقلال .. وان من المستحيل على أمة تشعر بوجودها أن تتساهل فى استقلالها أو تبرد غيرتها عليه ، فى كل ظرف من الظروف المناسبة

يجب أن يفهم غيرنا أيضا ان كل أمة تطلب الى مصر ان تبقى الى الابد مبعدة عن استقلالها ، انما هى أمة تخدع نفسها ، لأن هذا المرام لا يرام الا من لفيف من الناس ليس لهم ما للأمة المصرية من القومية العتيقة والوطن المحدود والنظامات الاجتماعية .. أمة كأمتنا قد ولدت التمدن مرتين ، لا ينبغى للتمدن الحديث ان يطمع فى التوغل فى اذلالها وابعادها عن أقل الاقدار لمطامع الأمم ، وهو الاستقلال

من العيب العظيم أن تداجى الأمة فى أمر استقلالها ، لانه ان صح لرجال السياسة ان يلعبوا بالالفاظ ليستروا المقاصد ، فانه لا يصح بحال من الاحوال ان تكون الخدعة من خلق أمة من الامم .. الامة شخص معنوى غاية فى الطهر ، لا يقول الا ما يعتقد ، ولا يعمل الا مايريد

لا يكفى أن يعتقد جماعة من الأمة بضرورة الاستقلال ، بل يجب أن يكون الشعور بحب الاستقلال شعورا عاما فى جميع افراد الامة من غير استثناء .. يجب ان يكون الشعور بالاستقلال عند كل فرد هو بعينه الشعور بالوجود الذاتى

باى عنوان نحن نخدم طول العمر هـذه الانسـانية ، عوضا عن أن اقول باى كتـاب يجب علينـا أن نظل طول العمر فى خدمة الغير ؟

لا نريد أن يخدمنا الغير ، ولكن كيف نريد أن نخدمه دائما ؟ ولم لا نخدم أنفسنا كما تخدم كل أمة نفسها ؟!.. لا.. لا.. تظلمنا وتظلم نفسها وتظلم الانسانية والوجود، كل امة تبغى منا ان نبقى عبيدا او خدما طول الزمان

أجل .. نحن نتمتع بحريتنا الشخصية .. نتمتع بها فى كثير من الاحيان على أنها منحة لا حق ، ولكن نتمتـع بها على كل حال . وتلك هى حجة كثير من الذين يقولون : مم يشكو المصرى وهو يتمتع فى بلاده بالحرية التى يتمتع بها الانجليزى فى بلاده

صدقتم ولكن كفيل الحرية الشخصية هو الحرية العامة .. وما كان المصرى ليقنع من العيشة بالحياة الفردية ، كما يتمتع بها كل حيوان حر فى الجبال ، بل المصرى هو أيضا يريد أن يعيش عيشة القومية .. أن يكسب حريته السياسية التى وهبها الله لمجموعه من يوم كان مجموعا

قاطنا فى وطن معين ، قبل ان تحد تخــوم الاوطان . وما سرنا أن يكون الفرد منا حرا ، اذا كان مجموع أفــرادنا ليس كذلك ، بل بعيد على الحر فى أمة غير حرة ، ان يعتبر نفسه حرا ، أو ينتفع انتفاعا انسانيا بحريته

الاستقلال حق طبيعى للأمة .. ولكنها اذا فقدته زمنا طويلا واعتادت كرها عادات جــديدة وطبــائع تنــاقض الاستقلال ، كان لابد لها الى بلوغه من تربيــة خاصــة وتعويض لمــا فقدته من الملكات والاخلاق فى أزمان الاكراه والاستبداد . ولا شك فى أن التمتع بالحقوق الطبيعية رهن بالقدرة على كسبها ، وما القدرة على الاستقلال الا نية صادقة ووسيلة منتجة

فأما نية الاســتقلال فهى فهمه والتشبث بمزاياه ، وتمثل هذا الفهم فى شعور الأمة تمثلا صحيحا شــائعا ، أى اعتقاد الأمة بضرورته ، وانه هو العيش ، وهو الكساء ، وهو البيت ، وهو الوجود .. وبغيره لا وجود .. ولابد لذلك من أن يربى فى الأمة معنى القومية المصرية

ان أول معنى للقومية المصرية و تحديد الوطنية المصرية والاحتفاظ بهــا والغيرة عليهــا غيرة التركى على وطنه ، والانجليزى على قوميته ، لا أن نجعل أنفسنا وبلادنا على المشــاع وســط ما يسمى خطأ بالجامعة الاسلامية .. تلك الجامعة التى يوسع بعضهم معناها ، فيدخل فيه أن مصر وطن لكل مسلم ..

أما لو كان معنى الجامعة مقصورا على وجوب التلاف بين أمة وجارتها على المعاونة المتبادلة على الارتقاء ، فذلك حسن مفهوم .. بشرط أن يكون العقد متبادل المنفعة لا مقصورا على أحد الطرفين دون الآخر

أعنى أن يكون احدهما خادما دائما ، والثانى مخدوما

دائما .. تلك دنية يجب أن يأباها المصرى ذو الحفيظة ، ولا يجيئها الا مكرها ، والمكره لا حيلة له

يعجبنى فى هذا المعنى أن أورد عبارة أحد الكتاب الانجليز ، قال : « مهما كان اللوم على الأمة المتغلبة على غيرها ، فانه لا يصح أن تنجو الامة المغلوبة من اللوم ، فانه من السهل أن يدوس الانسان بقدمه حشرة ، لكنه اذا كانت هذه الحشرة من العقارب ، يصعب أن يدوسها بالقدم »

وعندنا الامة كائن طبيعي يستحيل مهما كانت ضعيفة، أن تكون مجردة من آلات الدفاع عن نفسها ، لان الله قد سلح جميع كائناته بسلاح الدفاع عن ذواتها .. والأمة بصفتها احدى هاته الكائنات الطبيعية ، لا يمكن أن تكون فاقدة السلاح ، فلئن تركته او أساءت استعماله فاللوم عليها بمقدار تقصيرها

***

ولقد كتب على مصر ان ترتقى بالسلام وتستقل بالسلام ، فما أسلحة السلام الا ذكاء فى العقل والقلب يهدينا الى معرفة مصريتنا وقصر عملنا على مصرنا ، وانماء كفاءاتنا قبل كل شيء ، وتمييز بين الممكن فى الواقع، وبين الممكن فى الخيال ، حتى لا نقع مرة ثانية فى حبائل ذلك الوهم القديم الذى كان يرود أدمغتنا الوقت بعد الوقت .. اذ كان يزين لنا مرة أن فرنسا ستحرر بلادنا، ومرة أن الدولة العلية ستقوى، فبحقنا عليها تسفك دماء ابطالها لتخرج الانجليز من بلادنا ، ثم هى بعد ذلك تتركنا لأنفسنا فى بلادنا أحرارا نتصرف فيها بما نشاء !! لابد لنا من ذلك ، ومن عزة ترفأ بنا عن أن نطلب من غيرنا أن يأتى ليحرر نفوسنا من الرق وقلوبنا من عبادة القوى ، كأننا

ـ كما ظنوا خطأ بنا ـ نبغى أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام . ويفيض الاستقلال علينا من جوانب البلاد ، بشرط الا نتعب انفسنا فى أن نحرك ساكنا

كان الواجب أن نبعد بالأمة عن هذه الخيالات الكاذبة ، ونوجهها الى أن تنمى فى نفسها عقيدة الاستقلال

أفنحن حقيقة ننشر عقيدة الاستقلال وننمى حفيظة استقلال المصرى ببلاده ، يأخذها الصغار عن الكبار والابناء عن الآباء ، حتى تصير مصر للمصريين ، أم نحن نصرف معظم همومنا فيما علينا كل غرمه ، وليس لنا شيء من غنمه ؟ أم نحن نعرف السنين تمر بنا من غير عمل كبير لمصلحتنا ، فاذا تحركنا للعمل ولينا وجهنا غير مصر ، وصرفنا كل همنا فى اعانة من لا تنفعه اعانتنا له

أكبر معلم للأمم هو الحوادث ، ومعظم غنم الامم من الاستفادة من الحوادث ، وأن العقيدة لا تأخذ من النفس مكانا غائرا ، الا اذا جاءت لمناسبة حادث من الحوادث . . تلك هى سنة الأمم ، وقد كان لنا درس فى هذه الحركة الحاضرة ، حركة دخول فرنسا فى مراكش ووقوف المانيا لها موقف المطالب بالعوض الاستعمارى تشبها بأن انجلترا أخذت المقابل فى مصر ، فلا بد لها من عوض استعمارى يخرجها من عار الرضا باعتبار انها خافتة الصوت أو ضئيلة الاثر فى الاستفادة من المسائل الشرقية . وتصريح الدول جمعاء الى ايطاليا بمجاوزة المعاهدات الدولية ، والاغارة على طرابلس ، وهى جزء من الدولة العلية أو ملك لها

كل هذه الحوادث قد نبهت الرأى العام المصرى الى قبول الحقائق السياسية تنبيها لو ألقى نصحاؤه عليه نظرية القومية المصرية وحفيظة الاستقلال ، واظهروا له

أن الاعتماد على الموازنة الدولية والمعاهدات الدولية والتصريحات البرلمانية ، صار من المودة القديمة ، فلا ينفع مصر شيئا كثيرا ..

الذى ينفعها هو الا تنى لحظة واحدة عن العمل لذاتها ، وعن اثبات شخصيتها وقوميتها ، وميلها الى الاستقلال .. لو فعلوا ذلك لأثرت فيه هذه النصيحة الف مرة أكثر مما تؤثر النصيحة فى يوم هدوء وسكون

غير أن الذى فات مات ، ولا ينفع الاسف على الوقت الذى ضاع الا بمقدار ما يلفت الذهن الى عدم الوقوع فى الخطا مرة ثانية فى المستقبل .. فبدل أن نطوح بشعور الأمة ونذهب به كل مذهب ، وبدل أن نكون فى مصر آلات لجمعية الاتحاد والترقى (١) التى تسعى لخير بلادها دون غيرها ، والتى صرحت من أول يوم أن مصر ليست داخلة فى بروجرام أعمالها .. بدل ذلك كله ، يجب على الكاتبين أن ينتهزوا الفرصة لينشروا فى الأمة عقيدة الاستقلال

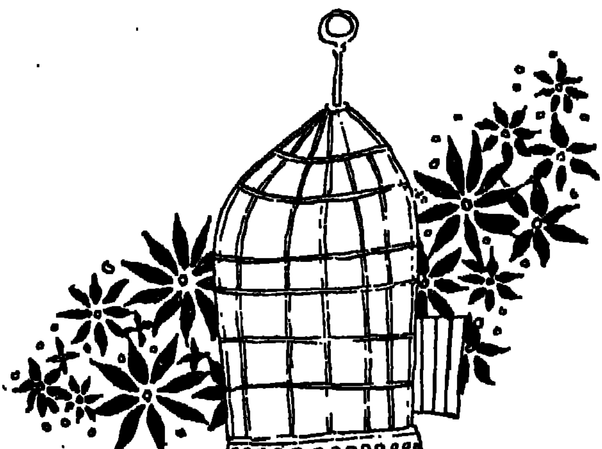
لاننا نكرر ان الاستقلال متوقف على النية أو على الاعتقاد بضرورته ، ولو جاء الاستقلال من غير أن تكسبه الأمة راغبة فيه معتقدة حسن نتائجه ، فلا يلبث أن يزول

---

(١) جمعية الاتحاد والترقى .. كانت فى الاصل منظمة سرية عرفت باسم « تركيا الفتاة » وكان هدفها القضاء على استبداد السلطان عبد الحميد الثانى ووضع دستور جديد للبلاد وبناء نظام ديموقراطى متجانس للدولة ، وقد تم لهذه الجمعية خلع السلطان عبد الحميد، واقامة السلطان محمد رشاد مقامه وصدور الدستور سنة ١٩٠٨ ولكن سياستها فى توحيد عناصر الدولة الى عنصر تركى واحد قد انتهت بالفشل ، وخاصة فى البلاد العربية التى فسرت هذه السياسة بأن المراد منها القضاء على القومية العربية واللغة العربية الفصحى

الفصل الخامس

الحرية



الحرية

لو كنا نعيش بالخبز والماء ، لكانت عيشتنا راضية وفوق الراضية .. ولكن غذاءنا الحقيقى الذى به نحيا ومن اجله نحب الحياة ، ليس هو اشباع البطون الجائعة .. بل هو غذاء طبيعى ايضا كالخبز والماء ، لكنه كان دائما ارفع درجة وأصبح اليوم أعز مطلبا واغلى ثمنا .. هو ارضاء العقول والقلوب ، وعقولنا وقلوبنا لاترضى الا بالحرية

انا اذا طلبنا الحرية لا نطلب بها شيئا كثيرا ، انما نطلب الغذاء الضرورى لحياتنا .. نطلب الا نموت ، ولا يوجد مخلوق أقنع من الذى لا يطلب الا الحياة ووسائل الحياة .. كما انه لا احد اقل كرما من ذلك الذى يضن على الموجود الحى بأن يستوفى قسطه من الحياة

لست اعجب من الذى يستهين بحياة الرجل فيستعجل عليه القدر المحتوم ، ولكنى اعجب من الذى يبالغ فى الرحمة بالانسان يستحييه شبعان ريان يفهق جيبه بالنقود معطل الحرية ، قد ضرب بين عقله وبين الاشياء والمعانى بحجاب ، فلايتناولها .. وحيل بين مشاعره وبين موضوعات غذائها فلا تتحرك بل تموت . أعجب من الذى

* الجريدة فى ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٧٥٤

يظن الحياة شيئا والحرية شيئا آخر ، ولا يريد أن يقتنع بأن الحرية هى المقوم الاول للحياة ولا حياة الا بالحرية

أجل .. أن المرء يحفظ حرية الفكر وحرية المشاعر ، أى يحفظ حريته الطبيعية حتى فى غيابة السجن .. يحفظها فى كل حال هو عابها ما دامت روحه فى جسده .. انه خلق حرا ، حر الارادة ، حر الاختيار بين الفعل والترك .. حرا فى كل شىء حتى فى أن يعيش وفى أن يموت . غير ان هذه الحرية الطبيعية لا فائدة منها اذا تعطلت من آثارها ، فالذى سجن ، والذى منع الكلام ، والذى منع الكتابة .. كل أولئك يحفظون حريتهم فى نفوسهم ، ولكنهم فقدوا الانتفاع بها أى فقدوا بذلك الحرية المدنية

كذلك الذين تركوا أحرارا كما خلقهم الله .. احرارا يقولون ويكتبون مايشاءون ويعملون بالمعروف مايشتهون ، ولكنهم ليس لهم فى ادارة جمعيتهم ارادة محترمة ... أولئك لهم الحرية الطبيعية والحرية المدنية ، وهم محرومون من الحرية السياسية

لانريد بذلك أن نتصدى للتعريفات الاصطلاحية لانواع الحرية .. ولكن جرنا اليه عرضا التدليل على أن الحرية المعطلة عن الاستعمال هى فى حكم المفقودة ، وأن الحرية الطبيعية الملازمة للانسان لا يصح أن تسمى حرية ، الا اذا كان ميسرا له استعمالها .. ارايت ان المرء يرى الطريق بعينيه المعصوبتين ، ويأكل ويشرب ويبطش بيديه المكتوفتين .. لكن العين المعصوبة واليد الموثوقة كلتاهما فى حكم المعدومة ، انما يكون المرء حرا بمقدار مالديه من وسائل استعمال هذه الحرية .. وانما يكون حيا بمقدار ما جاز له من الاستمتاع بالحرية .. فالحرية الناقصة

حياة ناقصة ، وفقدان الحرية هو الموت .. لان الحرية هى معنى الحياة

طبعنا على حب الكمال فى حياتنا ، ومعاداة كل العوارض التى تعرض لنا فى طريق المثل الاعلى للمعيشة المستكملة وسائل الحرية وآثارها .. ولا خيرة لنا فيما طبعنا عليه . وسواء كان هذا الشوق الطبيعى الى حياة الحرية مصدر سعادة أو مصدر شقاء ، فانه على كل حال نار تتأجج بين ضلوع الحى لا تبرد او تصل به الى المرغوب

أجل ، ان المثل الاعلى ليس نقطة ثابته ولا عرضا محدود المسافة يمكن بلوغه .. بل كلما بلغناه انتقل شبحه امامنا الى نقطة أخرى على ابعد مرمى النظر لنبلغه ولا منصرفين عن التشبث بادراكه .. بل يسوقنا اليه حاجة لا قبل لنا بالصبر عن قضائها ، ولو كلفتنا أن نركب متن التعسف

لذلك لا يزال يستغلق علينا فهم الاباطيل القديمة التى كانت الغطرسة الجنسية تأخذ بها الكتاب ليسقطوا فى هاوية التناقض

يقولون أن بعض الناس خلق للسيادة أبدا ، وبعضهم خلق للعبودية أبدا .. ولا نزال نرى هذا الخطأ يتردد فى آراء الساسة المستعمرين فى هذا الزمان على صورة أقل شناعة وبعبارة اكثر ائتلافا مع مدنيتنا الحديثة .. يضعون أصابعهم فى أعينهم اذ تكون النتيجة المنطقية النهائية لهذه المقدمات الصادقة هى هذه الجزئية : (بعض الانسان لا انسان)

كذبت فلسفتهم ، وصدق الذى يشعر به كل انسان منا فى نفسه من الميل الى الرقى فى كل شيء ، والى

الحرية قبل كل شيء .. صدق هذا الاثر الذى نجده فى طليق الاسر أو السجن يوم اطلاقه ، وفى محاولة المعقول ان ننشط من عقاله

صدق ذلك الالم الذى يجده ذو الفكرة العلمية من حبس حريته عن التصريح بها فتظل تجول فى نفسه وتغلى فى نفسه حب ابدائها فى صدره يقلق خاطره ويكد ضميره ويحتوى على كل مشاعره ، حتى يفضل الموت فى ارضاء هذا الحب على الحياة فى كتمانه . وكم عالم استحب الموت على الحياة فى سبيل حبه لحرية اقتناعه العلمى .. فمنهم من قتل ، ومنهم من حرق ، ومنهم من حبس او عذب .. وجلهم من تلك الامم التى يقولون انها خلقت لغير السيادة

فاذا وجدت عبدا لم يؤثر الحرية على العبودية ، ولم يطب نفسها بالعتق من الرق ، فذلك مثل من أمثلة التشويه النادر فى بنى الانسان وليس قاعدة يصح الاخذ بها .. وحسبنا ان نرى الادلة الحسية قائمة على ان حفظ الوجود الذاتى المجرد عنه آثار الحرية ليس أعز على نفس الانسان من الاحتفاظ باحترام حريته ، وأن الذى يراجع ماضى العالم لا يجد امة من الامم المخلوقة للعبودية ــ كما يزعمون ــ الا قاتلت عن حريتها

واذا كان أصدق المعلومات هى تلك المعلومات التى تقدمها لنا المشاهدة الواقعة ، ومادامت هذه المشاهدات تدلنا على ما ذكرنا بعض أمثلته ، فالانسان ــ على الرغم من فلسفة الاستعماريين ــ حر بطبعه ميال الى الحرية ميال الى الرقى فيها الى المثل الاعلى ، وانه لا تفاوت بين افراد الانسان الا فى تقدير هذا المثل الاعلى وفى سهولة الوسائل الموصلة اليه

الحرية طبيعية ، وميــل الناس الى تحصيلها طبيعى بالضرورة ، يشتد ويظهر مع القوة الحيوية ، ويضعف وتخمد آثاره مع الضعف .. فكما أن القوى لا يمــوت جوعا ، كذلك لا يصبر على الحياة البعيدة عن المثــــل الاعلى للحرية

ولقد أصبحنا فى بلادنا ندرك الحرية بمثلها الاصلى الذى يأتلف مع شرف الانسان فى هذا الزمان ، فقــد اصبحنا نمتعض من كل فكرة ، ومن كل قانون ، ومن كل عمل ، يمس « الحرية الشخصية » أو يعطل استعمال « الحــــرية المدنية » فى غير الحدود المتفق عليها فى أعلى البلاد مدنية ، واصبحنا كذلك نرى ان الحكومة المعقولة الوحيدة المطابقة لشرف الامة هى حكومة الدستور

ومنا من لا يخشى أن يصرح بأن اســــتقلال الامة هو الطلبة الكبرى التى يجب ان توجه اليهــا قوى الشعب بأسره ، فلم يبق علينا للتدرج فى مراقى الحرية والتقرب من مثلها الاعلى المتفق عليه بيننا ، الا الوسائل المنتجة .. فان ارادة الامر شيء والقدرة عليه شيء آخر

اما القوة فان طبيعتها تختلف فى كل زمان ومكان تبعا لطبيعة عيشة الامة واعتقاداتها الدينية وعاداتها واخلاقها ، ونتيجتها تختلف دائما باختــلاف طبيعة الوسائل التى يمكن استخدامها .. وعندنا ان اول مظهر للقوة هى القوى المعنوية ، قوة الحرية العلمية .. فان الآراء العلمية ليس من شأنها أن تجد من القوة القاهرة ــ خصوصا فى الازمان الحاضرة ــ معارضة تذكر . فاذا استخدم المتعلمون أرادتهم فى اظهار حريتهم العلمية ، كان لهم من ذلك مرانة تنفعهم فى تربية أخلاق الشعب وتعويده على حرية الرأى والصبر على الاذى الذى ينتج دائما عن حرية الرأى ، سواء أكان

ذلك من الحكام أم من المحكومين ..

ان الذين يبخلون علينا بالقرب من المثل الاعلى من حريتنا التى آتانا الله أياها من فضله ، يجدون من أمثلة تقصيرنا فى اظهار حرية الرأى فى العلم وفى السياسة ما يحتجون به فى ارادتنا على البقاء على ما نحن عليه .. فاذا أحسوا من حريتنا فى الآراء العلمية الارادية قوة لا يقف امامها استهزاء الجهلاء ولا غضب الكبراء ولا استدرار المنافع الخسيسة ، لا يجدون مندوحة من التخلية بيننا وبين طريقنا الى المثل الاعلى لحريتنا

ومن قصر النظر ان يظن ان هذه القوة المعنوية ، قوة التمسك بالحرية والتماسك على نصرتها ، غير كافية فى تقريبنا من مثلها الاعلى .. أقول وأؤكد انها هى وحدها كافية فى انالتنا طلبتنا ، فلنرض نفوسنا على الاستمساك بها ولننتظر النتيجة

ان تقدمنا فى نيل قسطنا الطبيعى من الحرية يستحيل ان يوجد ، ولو كانت فى ايدينا اكبر معدات القوة الوحشية ، وكان عددنا اضعاف ما نحن عليه ، اذا كنا لا نتخلص من وصمة عبادة الآراء والافكار من غير تمحيص اعتمادا على مكانة قائلها .. واذا كنا لا نقطع بأيدينا تلك السلاسل التى قيدت عقولنا والاوهام التى افسدت علينا الاستفادة من المبادىء الجديدة . اننا اذا جربنا ان نرفع منار الحرية فى الميدان الذى لنا فيه حرية العمل وليس لنا فيه مزاحم وشريك ، كان ذلك فاتحة خير لاظهار شىء من القوة الضرورية لظهور الحرية وتأييدها

الحرية السياسية

وقع احد فلاسفة اليونان فى الرق ، وقـــادوه الى سوق العبيد ليبيعوه فيها ، فاخذ ينادى : « من يبغى ان يشترى له سيدا ؟! » .. فمن القدم ان المفكرين من بنى الانسان يعتبرون الحرية طبيعية ، وانها معنى من المعانى اللازمة للنفس لا تنفك عنها مطلقا . ومهما عطلت آثار الحرية فمنع الحر من عمل مايريد كأن كم فوه فلا ينطق، وشد وثاقه فلا يبطش ، وقيدت رجلاه فلا يسعى ، فانه مع هذا كله لايزال حرا حائزا جوهر حريته ، ولو نقصه العرض الذى هو اثر الحرية . خلقت نفوسنا حـــرة ، طبعها الله على الحرية ، فحريتنا هى نحن .. هى ذاتنا ومقوم ذاتنا ، هى معنى أن الانسان انسان ، وما حريتنا الا وجودنا ، وما وجودنا الا الحرية

ليس فى استطاعة احد ان يسلب احدا حريته قبل ان يسلبه روحه ، وليس لامرىء أن ينزل عن حريته لغيره ما دام لا حق له أن ينزل عن حياته التى وهبها الله له ، والتى لا ياخذها الا هو

غير ان آثار الحرية قد غلب عليها اسم الحرية ، متعددا بتعدد جهاتها .. فالقدرة الفعلية على العمل والترك ، هى الحرية الشخصية أو هى الحرية المدنية ، وتعريفها أن

---

* الجريدة فى اول مايو سـنة ١٩١٢ العدد ١٥٦٣

تعمل ما تشاء بشرط الا تضر بالغير

واما الحرية السياسية ، فهى ان يشترك كل فرد فى حكومة بلاده اشتراكا تاما كاملا ، وهذا معنى ما نسميه بسلطة الامة

حريتنا السياسية هى كفيلة الحرية الشخصية ، اى كفيلة لنا فى ظهور آثار حريتنا الطبيعية ، فمن الحرص على تمتعنا بآثار تلك الحرية حرية القول والعمل ، اننا نتشبث بالسعى لنيل حريتنا السياسية التى هى الكل فى الكل ، مادامت هى الكفالة الوحيدة التى لنا فى المجتمع بفضل الله علينا ونعمة وجودنا واعز هبة على انفسنا ، وهى حريتنا .

***

من المقدمات الشعرية ان نتغنى بان الحرية لالاء تاخذ بابصارنا ومعشوقة جميلة فى قيد قلوبنا ، ومعنى عال يسحر عقولنا ، وسعادة اليها مسعانا .. لها محيانا وفيها مماتنا . نعم تلك مقدمات شعرية لان حريتنا أبسط من ان تكون ذلك كله ، وليست محتاجة فى ظهورها الى الشعر والتغنى ، لأن حريتنا هى نحن

يخزى الرجل منا ان يكون فاقد الحرية السياسية أو فاقد الحرية الشخصية ، يخزى ان يكون عبدا لمخلوق ايا كان .. بل يخزى ان يؤثر عنه انه عبد شهواته والناس فى ذلك كلهم سواء . اليس مصدر ذلك الشعور فى الانسان ان كل نفس تعتقد بمجرد الفطرة ان حريتها ليست الا ماهيتها وان نقص الحرية — أى نقص آثار الحرية — نقص فى الذات وعجز فاضح

يفر من نسبته الرفيع والوضيع على السواء

اذا كانت حريتنا هي وجودنا ولا معنى للوجود الا بها ، اليس من المفهوم بسهولة عنايتنا بكفيل هذه الحرية ، اى بالحرية السياسية ، اى الاشتراك فى ادارة بلادناوتحقيق سلطة الامة .. اننا لو بذلنا كل جهدنا ووقفنا كل وقتنا على نيل هذا الكفيل ، لكنا فى ذلك معذورين

لو كانت مرتبتنا السياسية فى أيدينا لجعلنا نطلب الغاء نص المادة « ١٥١ » من قانون العقوبات .. ذلك النص الذى هو من بقايا القوانين القديمة التى لم يلدها الا روح القرون الوسطى ، ولم يثبتها الا ذلك الخيال الذى مازال ينتاب الرءوس وبخامر العقول ، وهو الاعتراف بالتقديس لاشخاص الملوك أو لسلطة الحكومات . ان هذا النص فسيح يدخل تحته كلّ انتقاد مهما كانت المصلحة العامة هى التى تمليه ، وحب الخير يكتبه مسلسلا بقيود الاعتدال ، ومحوطا بحدود الادب .. أن هذا النص يقف فى طريق الانتقاد فيخنقه ، والانتقاد أساس حسن الادارة ، فلا شك فى أن هذا النص يقف فى طريق حسن ادارة البلاد

او كانت حريتنا السياسية فى أيدينا ، لانحيناعليه كما انحى عليه الفرنسيون فاستبعدوه من قانونهم ، مع أنه كان معطلا كما قال عنه بعضهم ، انه خلق ميتا وعاش ميتا .. فعسى أن يتمعن رجالنا النظر فى هذا النص ليجدوا أن استمرار وجوده لا يتفق الا مع مبدأ الرهبة ، مبدأ الحكم القديم .. وأنه لا يتفق مع مبدأ العدل والمنفعة اللذين عليهما يسير الحكم الجديد ، بل هو من العوائق الكبرى فى الظروف الحاضرة لتقوية الروابط بين أمتنا وبين حكومتنا

وحسبك دليلا على شعور الحكومة بعدم المصلحة من تطبيق هذا النص ، أنه لم يطبق فى تاريخ القانون المصرى الا أمس .. كأنما وضع فى القـــانون لا لحماية الحكومة العادية ، ولكن لحماية الحكومة أزمان الاضطراب . على أننا كنا ، ولا نزال الى اليوم ، قائمين بالسكينة بأكمـــل معانيها ، راغبين الآن وغدا فى العمل على تأييد السلام

حرية الرأى

نعترف بأنه ليس كل الناس يستطيعون أن يدفعوا ثمنا غاليا فى حرية الرأى ، بل من السهل على المتأمل فى تصرفات الناس أن يجد الامثلة الكافية لاقتناعه بأن كثيرا منهم لا يشترى هذه الحرية الا بالثمن البخس ، ولا يقتنيها الا اذا جاءته مجانا ولم تكلفه فى اقتنائها خسارة ولا عناء

بل هو يزهد فيها اذا جاءه من تحت رأسها حرمان من أية شهوة اوفوات لأى زخرف من الزخارف التى هى فوق الكماليات ، كابتسامة من وزير أو ترحيب من مدبر .. حتى الحرص على طيب خاطر محادث محترم قد يكفى وحده للزهد فى حرية الرأى . هذا مقام ليس خاصا بطبقة العوام ولا بطبقة الخواص ، ولكنه مقام الذى هانت عليه نفسه واحتقر ذاته وذبح حياته المعنوية قربانا لاحسن مراتب العيش .. او الذى ظن أنه يستطيع العيش من غير شخصية ولا قيمة فى سوق الرجال

نعترف بوجود هذا الصنف من الناس ، ويوجد صنف آخر أوغل منه فى مقام الزهد فى حرية الرأى .. هو ذلك الذى لم يكفه ضعفا أنه تنازل عن رأيه اكراما لغيره ، يتخذ

---

* الجريدة فى ١٦ من مايو سنة ١٩١٢ العدد ١٥٧٥

فوق ذلك راى الغير مذهبا يجادل عنه حتى ينال المكافاة البخسة من ذلك الذى استخدمه واسترقه ، فجعله عبدا له أى عبد .. عبدا لا نظير له فى العبيد ، لانه عبد الذات وعبد اللسان

مهما كان عدد الزهاد فى حرية الراى ، فان هذه الحرية كانت عندنا فى مصر الى آخر عهد اللورد كرومر — وبعده بقليل — محترمة ظاهرة الاثر شائعة فى جميع الطبقات ، حتى لقد كان يعلم عن بعض موظفى الحكومة أنه ضد الاحتلال يصرح برأيه فى المجلس وينقل عنه هذا ، ومع ذلك كان له من احترام ولاة الأمر لحرية الراى ما كان يحميه من النتائج الطبيعية لتصريحاته .. ناهيك بأولئك الذين لم يكن لهم وظيفة فى الحكومة يخشون العزل منها وراتبا رزقا يخافون قطعه .. أولئك كان لهم من حرية الراى مايجاوز الحدود الوضعية لتلك الحرية

بعد ذلك تقبض صدر الحكومة امام حرية الراى والاسراف فيها ، فأرادت حدها بحدود ضيقة ، ولكن فى بيئة معينة ووسط محدود .. بعثت قانون المطبوعات ليحد (١) من حرية الصحافة واكثرت من تطبيقه لتخيف الصحفيين ، وشرعت فى تطبيق المادة (١٥١) عقوبات ، لتضع النقد فى حدود أضيق من الحدود الاولى التى جرى عليها العرف نحو ثلاثين عاما . واصدرت قانون الاتفاقات الجنائية لتطمئن نفوس من مساورة ذلك الكابوس الوهمى الذى من شانه أن يغشى احلام الكبراء والوزراء فى كل زمان من ازمنه انتقال الامم

---

(١) هو القانون الذى صدر سنة ١٨٨١ م فى عهد الخديو محمد توفيق وكان قد عطل ، واهمل تطبيقه. ولكن حكومة مصطفى فهمى باشا رئيس الوزارة اعادته لتقييد الصحافة والحد من حرية الراى

ونكرر دائما أن هــــذه القوانين لا تتنـــاول فى تطبيقها الاجماعة محدودة وفئة خاصة هى فئة الكتاب ، ولم تتعرض هذه القوانين للناس فى مجالسهم ولا فى حرية آرائهم التى كانوا يبدونها قبل اليوم صباح مســـاء . ولكننا على هـــذا نرى فى البلد الخوف خيم على النفوس فى هذه الأيام الأخيرة ، حتى لقد رايت من أكثر الناس تطرفا من يبلع الآن رأيه بريقه ويمسك عما كان يفيض فيه من آرائه لجلسائه فى الاحتلال والمحتلين وفى تصرف الحكومة الحاضرة والسابقة من غير مبالاة .. بل نجــد أسباب الزلفى الى الحكام والقادرين فى الحكومة سائرة الى التقدم مع أطماعنا فى الحكومة النيابية

على أن تشبث الأمة بسلطتها يجعلها تنفض عنها غبار الذل شـــيئا فشيئـــا ، ويقل اعتدادها بطرائق الزلفى ومظاهر الملق للحكام .. اذ المعقول أن تكون عناية الناس بالغو فى إظهار خضوعهم للحكام فى هذا الزمن الذى نطالب فيــه بالدستور ، سائرة على نسبة عكسية مع تقدمها فى هذا الطلب .. فما الذى جرى حتى تغيرت الحال ؟

أخذت علاقتنا بحكامنا تطبع ثانية بالطابع القديم .. وأين أولئك الذين كانوا يقدمون علينا نحن الصحفيــين فيوسعوننا لوما على أننا لانكرر ونعيد كل يوم فى نظــرية علاقة الحاكم والمحكوم ، وأننا لانبين للناس القدر الذى يكفى فى اقناعهم بأنهم أحرار فى أنفسهم ، أحرار فى آرائهم، أحرار فى اختيار الطريقة التى يحكمون عليها

هنا أرجع الى ذاكرتى ، فيضحكنى ذكر حديث جرى بينى وبين أحد كبار موظفى الحكومة الوطنيين ، قال : « لماذا لا تكتب ضد تصرفات الحكومة بالشدة اللازمة ؟» قلت : « كفى بالنقد شدة » .. قال : « ولكن الحدة فى

ابدائه تزيده شدة على شدة » . قلت : « ان أثر القلم فى كرامته ، والحدة تذهب بالكرامة .. ومع ذلك فهل تضع لى نموذجا فى شدة الانتقاد آخذه عنك ؟ » قال : « والله أفعل » . فاشفقت على الرجل من الاسترسال فى حدته، وأعرضت عنه معجبا بحبه لحرية الرأى ، وان لم أك لاعجب بفهمه حدود الانتقاد المفيد وتقديره لمنازل الكتابة فى الشـــدة والضعف .. ذلك نموذج من تلك الروح العامة التى كانت تتجلى على طبقات الأمة ، والتى كانت المثابرة عليها بالمعروف ، والايغال فيها بالرفق ، موصلة حتما الى غرض الاغراض ، وهو تأييد حرية الرأى ، وتفكيك عرى القيود التى تقيدنا بماض من الاستبداد ، ماحمدناه ، ولاحنت نفوسنا لذكراه

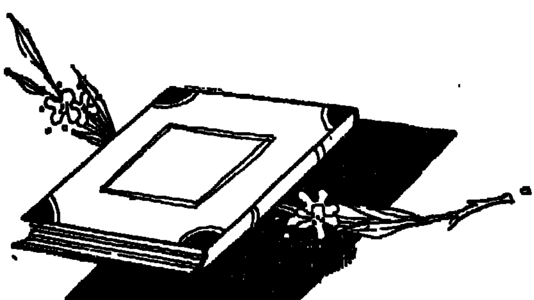
لست نصيرا للحكومة فى حد حرية الرأى بهذه الحدود الضيقة .. بل أقول انى لا أجد عملها ينتج أية نتيجـة مفيدة للأمة ولا للحكومة ، وأذكر فى هذا المعنى ما كان يؤثر عن لورد كرومر .. اذ كان كلما خوطب فى حد حرية الرأى اظهر عدم الرضا عن تلك الفكرة والامتعاض منها . مع ان لورد كرومر لم يـــكن فى مصر مشـــجعا للحرية السياسية ، الا انه على ظنى كان يرى ان الرأى اذا غلا فى رءوس أصحابه الابد لاتقاء نتائج غليـــانه من منفـــذ تخف به شدة الغليان ، وذلك المنفذ هو حرية الصحافة ، حرية الرأى ، اى حرية القلم واللسان

لست نصيرا للحكومة فى التضييق على حرية الصحافة، ولكنى اعترف من جهة اخرى بأن كثيرا من غير الصحفيين يسبقون الحكومة الى التضييق على انفسهم ، ويعملون كما لو كانت القوانين الصحفية وضعت لهـــم ، وتناولت الحظر على ابداء آرائهم بحرية متى طلب منهم ذلك

هذا هو الذى نلفت اذهان الناس اليه .. انهم لايزالون بحكم القوانين احرارا فى ابداء جميع آرائهم فى المجالس الرسمية ، وغير الرسمية ، وحين يطلب ذلك فى أى مقام من مقامات الحكم . ان حرية الراى محمية بالقوانين العامة فهى لا تكالف صاحبها ثمنا غاليا ، بل لاتكلفه ثمنا أصلا

نسوق الكلام الى الذين تجعلهم منزلتهم منا موضوعا لسؤال الحكام اياهم عن الاحوال فى مصر ، ودرجة الامة من الرضا بالحال الحاضر

نسوق اليهم الكلام ونؤكد لهم أن ولاة الامور اعدل من أن يمتعضوا من آثار حرية الراى . وأن قوانين البلاد تحمى حرية الراى ، وأن المرء يجب عليه لذاته الا يداجى فى رأيه ، بل يبديه بحرية وصراحة ولو كلفه ذلك ما كلفه ، فكيف به اذا كانت حرية الراى لا تكلفه شيئا مذكورا ؟



الفصل السادس

المرأة والمجتمع



محرر المرأة

من الطبقة الممتازة فى كل أمـــة ، يخص الله أفـرادا قلائل بصـــفات استثنائية ، يكون ظهورها فيهم واضحا جدا ، حتى تكون قريبة من الكمال الوجودى .. اولئك هم القدوة الحسنة لقومهم فيجب أن تفصـــل صفاتهم وتدرس ملكاتهم ، وتمجد قدرة الله فى اطرائهم ، حتى تصبح القدوة بهم ، والسير على سننهم . ومن افضـــل هؤلاء الافراد الممتازين ، فقيد الوطن والعلم : قاسم بك امين (١) . نأتى على طـرف من وصـــف ملكاته تبصرة للناس ، وارشادا للشبان الذين يجدون فى أنفســهم ميلا الى الكمال ، وتوجها صحيحا الى خدمة أمتهم ، ولكنهم لا يعرفون أى سبيل يسلكونه لارضاء هذه الروح الطاهرة ، وخدمة امتهم الاسيفة التى وقف الدهر فى طريق سعادتها يختطف منها خلسة كل هاد من هداتها فى هذا الطـريق

---

* الجريدة الرسمية العدد ٣٤٣ـ ٢٥ ابريل سنة ١٩٠٨

(١) ولد قاسم امين بالقاهرة عام ١٨٦٥ م وحصـل على ليســانس الحقوق ثم أوفد فى بعثة الى فرنسا لاتمام دراسته القـانونية . ثم عاد ســنة ١٨٨٥ م وتدرج فى مناصب القضــاء حتى صــار مستشارا بمحكمة الاستئناف . واصدر كتابه « تحرير المراة » سنة ١٨٩٩ م . ثم كتاب : « المراة الجـديدة » فى الســنة التالية ، يدعو الى تعليم المصرية ورفع الحجـاب فأثار ثائرة المحافظين . وفى عام ١٩٠٧ م اشترك فى انشاء الجامعة المصرية ، ثم توفى فجاة فى ٢٢ ابريل سنة ١٩٠٨ م . وعمره ثلاثة واربعون عاما

المجهول ، ويعدمها الوسيلة لنيل استقلالها وسعادتها

كان قاسم امين من اصل كردى ، لان جده أمير من امراء الاكراد : اخذ ابنه رهينة فى الاستانة لخلاف كان بين الاكراد وبين الدولة . وكان ذلك الرهينة هو المرحوم امين بك والد قاسم .. فجيء به الى مصر فى زمن اسماعيل باشا كما يقول العارفون ، ودخل فى الجيش المصرى ، حتى رقى الى رتبة اميرالاى ، وتزوج بكريمة المرحوم احمد بك خطاب ، اخى ابراهيم باشا خطاب فكان أكبر اولادهما المرحوم قاسم امين

ربى قاسم امين التربية المعتادة لامثاله فى مدارس الحكومة .. وكان ممتازا دائما بحدة الذكاء والتفرد بهذه الصفة بين اقرانه ، فلما اتم دراسته هنا ارسل فى الارسالية العلمية الى فرنسا ، فاتم دراسة الحقوق ، ودخل فى خدمة الحكومة سنة ١٨٨٥ وكيلا للنائب العام العمومى فى محكمة مصر المختلطة ، ثم لم يبق بها عامين ، حتى عين مندوبا بقلم قضايا الحكومة بنظارة المالية ، ثم عين بعد أشهر رئيسا لنيابة بنى سويف ، ثم لنيابة طنطا ، ثم نائب قاض فمستشارا فى الاستئناف

***

من يلم بهذا التاريخ المختصر لحياة قاسم امين يجده تاريخا عاديا غير مملوء بالمواصف التى تلازم عادة حياة كبار الرجال ، فيستفيدون منها قوة وشجاعة ، ويتعلمون من تجاربها ما يجعلهم يفوقون غيرهم فى سلامة الحكم على الحوادث

وعلى الرغم من ان حياة قاسم امين لم تكن فيها عواصف ظاهرة كما ذكرنا ، فان نفسه كانت بطبيعتها مستعدة الى

ان تتعلم وتكمل من الملاحظة الذاتية والتجارب .. فان قاسم هو الذى قال :

« أقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والاساتذة . واعظمها ما تعلمه من تجاربه الشخصية فى فى الاشياء والناس »

وكان على ذلك يتخذ العالم مدرسة له ، يرقب فيها كل ما يحيط به من الاشياء والحوادث والاخلاق ، واعمال الناس ، عظيمها ودقيقها . ويستقرىء العوامل التى دفعت الناس الى القيام بأعمال الخير ، ومقارفة اعمال الشر ، ويأخذ من كل مشاهدة درسا يضمه الى عمله ويجعله قاعدة من قواعد حكمه

كان قاسم هادئا ظاهره ، مروعا قلبه وعقله بالغيرة على الناس من الوقوع فى الخطأ ، وبالفكرة فى مصير الاديان المختلفة ، وما ستؤدى اليه نتائج التقدم العلمى ، وبماذا تسعد مصر ؟

لم يكن قاسم من الفلاسفة الذين لا يرون فى الحياة الا جهتها المادية كما يفهم من اقوالنا انه يبنى أحكامه على الملاحظات المادية أو السيكولوجية .. ولكنه كان صوفيا فى اعتقاده ، وكان يهتم جدا بالناحية الادبية للحياة ويقدرها قدرها . وانى ما رايت ان كاتبا كبيرا أو حكيما ملاحظا ، مال الى تقديس معنى الحب ، واطراء العشق ، بقدر ما كانت نفس قاسم الحساسة الدقيقة الاحساس ، تتيه اياما كثيرة فى ادراك كنه هذه الحقيقة المجهولة ، حتى صار يعتقد بالهوى العذرى ، وانه دليل على شرف النفس ، وتقدمها فى طريق الكمال ، ولا يفهم العشق الا على هذه الطريقة العذرية ، ويعد ما دون ذلك تلوثا فى الاخلاق ، وجمودا فى الطبع ، وجفاء فى الشعور ، وميلا

واطيا للأخذ بالحياة من جهتها المادية

يفهم الناس بسهولة ان مثل هذا الاعتقاد المصفى ، والادراك الخيالى الدقيق ، يصدر من مثل عمر بن ابى ربيعة ، ويستبعدون صدوره عن مثل قاسم ، ذلك الرجل العالم الذى لا اظن ان الطبيعة قد حجبت نفسها يوما عن بصره الحاد ، ينفذه فى أحشائها ، ويقلب فيها بفكرته الملتهبة بطنا لظهر ، ليجد فيها غامضا يستجليه ، وسببا يبلغه ، واحساسا يحلله . ولكن «قاسم» لم يكن له عادة بعض المتاخرين ، عادة الملل من الافكار القديمة ، عـــادة هجر المالوف ، والتشبث بجديد يبهر به أفكار محدثيـــه أو قارئيه . لم يكن كذلك ، بل كان يعتقد ان حقـــائق المعلومات الانسانية ، قلما تخلو من الخطأ ، كما ان الخطأ فى تلك المعلومات قـــد لا يخلو من الحقيقة . فكان بذلك يرى من الواجب ان الانسان يجب عليـــه ان يصـــغى الى كل قول ، وان يقرا كل مذهب . فلا غرابة مع هذا ان يضم قاسم الى فلسفته الوضعية ، تلك الافكار الشعرية والاعتقادات الدقيقة ، التى هى اقرب المعلـــومات الى ما وراء المادة ، منها الى المعلومات التى تنتزع من هـــذا العالم الحسى ، عالم الكون والفساد

كان قاسم امين شديد العناية بتحليل فكرة المسئولية عند بنى الانسان ، طويل التفكير فى أمرها الماضي والحاضر ، وما ستصير اليه فى المستقبل . قضى فى هذا البحـــث سنين طويلة ، وصل فيها آخر الامر الى فكرة العفو ، وان غفران الذنب والتسامح فى كل خطيئة ، ســـيكون الغرض الاخير الذى يجب ان ترمى اليه التربية الادبية ، متى اخـــذت كمالها الوجودى اللائق ببنى الانســـان ، وان اعماله فى القضاء كانت تنم دائما عن هذه الرأفـــة

التى خالطت قلبه من طول بحثه فى المسئولية .. لانه كان يرى ان تقدير المسئولية تقديرا صحيحا يلزم له اعتبارات كثيرة ، ليس فى طاقة الانسان ان يقف عليها ، كالاخلاق الوراثية ودرجة تأثر الاعصاب بها ، والوسط والتربية والاعتقاد ، قوة وضعفا ، وجميع الاحوال السيكولوجية ، التى تحيط بنفس المذنب عند ارتكاب الذنب .

كان قاسم اجتماعيا كبقية الاجتماعيين الذين يجعلون أدمغتهم محافظ لآراء الغير ، فاذا حضرتهم المناقشة ، أو دعتهم الكتابة الى موضوع اجتماعى ، أخذوا يسردون عليك محفوظاتهم من المؤلفين السابقين من غير ان يكون لعقلهم فى الموضوع نصيب من الراى لا .. لم يكن كذلك أبدا ، بل كان مفكرا بالاصالة ، نقادا لا يستغنى عن أفكار الغير ، ولكنه لا يعتنقها الا اذا اعتقدها وصارت له ، بما قام فى نفسه عليها من الادلة اليقينية

بحث قاسم امين فى المسائل الاجتماعية على العموم ، فكان رأيه فيها انها خاضعة دائما للقوانين الطبيعية ، قوانين التحليل والتركيب ، والنمو التدريجى ، والانتقال ، وبحث فى المسألة الاجتماعية لمصر على الخصوص ، فوجد أن حلها متوقف على نظام العائلة المصرية ، ووجد ان المرأة هى الاساس الاول لبناء العائلة .. فاخذ يفكر كيف يرقى المرأة المصرية ، وأطال فى ذلك التفكير . وأخذ يجمع قوته وعدته ليفك هذا الانسان الضعيف من سلاسل الاسر التى قيدته بها العادة . وليهدم هذا السجن العميق الذى حبس الاستبداد فى غيابته عقول نصف المصريين ، وحجب ذلك الضوء الساطع ، ضوء روح

السيدة المصرية ، عن أن ينتشر بين سمائها الصافية ، وارضها المخصبة ، انتشاراً يضيء للرجال طريق السعادة المنزلية ، ويوصلهم من غير عناء الى ذروة المجد والاستقلال

أجل .. ليفك أسر المرأة التى أوقعوها فيه باسم الدين ، وما هو من الدين فى شيء ، فالدين اسمح مما يظنون . فكتب كتاب « تحرير المرأة » ثم قفاه بكتاب «المرأة الجديدة» .. كتبهما فهد بهما ركن سجنها واضاء لها ظلمات الحياة المنزلية والزوجية ، وجعلها تحس بأنها أم الرجل ، لها احترامه ، وأخته لها عطفه وحنانه ، وزوجته ، لها منه محبته لذاتها واعتباره لمركزها ، كما هدى لذلك الدين القيم .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون

كتب فأجاد ولم يخش منتقدا ، ولا لائما ، ولم ينزله خوف الانتقاد عن فكرة من افكاره ، ولا لفظ من الفاظه ..

ذلك لأنه يعتقد اعتقادا كاملا بصحة ما كتب ، ويغريه الاتقاد فى حب البلاد ، بالا يعبأ بالانتقاص الذى وجه لشخصه .. بل صيره متينا فى رأيه ، مكينا فى اعتقاده ، مجاهرا به فى كل يوم ، حتى يوم وفاته ، بل ساعة وفاته ، اذ يدعو الله بقلب مليء بالاخلاص ، ونفس مستضيئة بنور الحقيقة ، وقلب يذوب أسفا على حال الشابات المصريات ، بأن يكن كغيرهن من شابات الامم الاخرى ، يقدرن العلم ويسعين لاكتسابه .. أخذ قاسم على عهدته حمل هذا العبء الثقيل ، عبء السعى بالمرأة المصرية الى نظام العائلة وبنظام العائلة الى الرقى الاجتماعى المنشود . وبهذا الاخير الى استقلال البلاد

فما علمت امرءا يخاطر بنفسه ويقف حياته لاحياء

أمته ، بهذه الشجاعة الفائقة كما فعل قاسم .. بذلك تكون شاباتنا مدينات لقاسم أمين ، هن أولا وبالذات ، لأنهن يجب أن يعلمن ان ما هن فيه الآن من المساواة بينهن وبين اخوتهن فى المعاملة المنزلية ، الفضل فيه راجع الى قاسم أمين .. وان « قاسم » لا يطلب اليهن ان يبكينه كما فعلن ، ولكنه يطلب اليهن أن يعملن بهديه ، ليقمن بالواجب عليهن نحو أمتهن

***

كان قاسم أمين يربأ بنفسه عن أن يكون حاله كحال اولئك الاذكياء المجازفين الذين اذا ضم أحدهم مجلس طرحت فيه فكرة أو مناقشة ، انحدر انحدار السيل يفيض فى القول صوابا وخطأ من غير تدبر ، كان معانيه والفاظه لا قيمة لها فى نظره ، يجود بها اسرافا وتبذيرا ، من غير أن يفكر فى الكلمة متى خرجت من فم قائلها حسبت عليه وعلى بنى الانسان ..

الا ترى أن المولود تلده أمه جميلا او قبيحا ، خيرا أو شريرا ، فيعد على الانسانية فردا مستحقا للنمو والبقاء ، يزيد به عدد بنى الانسان .. كذلك القول الذى ألبسه قائله ثوبا من اسمه وشهرته ، والمكتوب الذى صبغه كاتبه بصبغة من البلاغة والتأثير ، كلها معدودة على المجموع الفكرى لبنى الانسان . فكما يجب على محب الانسانية أن يتحفظ من أن يلد لها اولادا مرضى ، كذلك يجب على الانسان الذكى آلا يلد لها معانى مريضة أو ناقصة الخلقة ، لم تستكمل أعضاءها الحيوية فى دماغه ، ولم تنضجها الفكرة أو الروية .. فان مثل هذا الذى يقول جزافا ، انما يجنى على الانسانية ، بالاكثار من مجموع الافكار المريضة فيها

ومن الاسف أنك تجد هذا العيب فى كثير من اذكيائنا الذين يعز على الواحد منهم أن يصمت أو يقول لا أعرف، بل يتخبط عند كل مناسبة فيما لايعرف من الموضوعات، طلبا للشهرة الكاذبة ، وتمدحا بانه قال كيت وكيت ، من غير استعداد سابق ، وتراه ما قال الا سفها

فأما قاسم أمين ، فان كل من عرفه او سمعه يتكلم ، اول ما يخطر فى باله أن «قاسم» لم ينطق الا عن روية وفكرة طويلة سابقة ، شأن الرجل المتحرج فى ذمته ، لا ينشر بين الناس الا ما قام له الدليل الواضح على صحته . وأول شاهد على ذلك خطابته الذهبية الاخيرة التى القاها فى منزل حسن بك زايد ، فانها درس من الدروس الخالدة، التى لن ينفيها البحث والتدقيق لا عاجلا ولا آجلا .. لأن كل ما فيها من الكلمات قد بنى على مبادىء مقررة ثابتة لا اظن أن العلم يغير ما فيها مهما طال الامد .. فقاسم من هذه الجهة — جهة التدبر الطويل وخدمة الفكرة قبل نشرها على الناس — فريد فى الاذكياء ، يجب الاقتداء به والنسج على منواله

***

كان قاسم يفكر كثيرا فى العلاقة بين الدين والعلم ، وجميع التطورات التى لحقت بكليهما ، وانعم النظر فى تاريخ الرقى الدينى الذى ابتدأ بالصحف الاولى ، وانتهى بالقرآن . خرج من هذا البحث الطويل بنتيجة لم يشأ أن يعتبرها نتيجة صادقة ، بل اعتبرها خيالا يتطرق اليه الشك من جميع جهاته ؛ وذلك التخيل هو انه بنى على ما انتزع من الواقع من أمر الديانات أنها الآن قد كفت عن التقاتل وسفك الدماء بسبب اختلاف الاعتقاد ، وانقطع أمر الحروب الدينية ، وخلفتها حروب المنفعة

بين امتين اختلفتا فى الدين والجنس ، أو اتحدتا فيهما بنى على ذلك أنه يتخيل أن سيأتى يوم يغلب فيه الحق ، ويكون الدين واحدا .. فلو أن امرأ من الاذكياء الحاذقين بحث فى هذا الامر بحث قاسم ، ولاحظ ملاحظته ، لتنبأ هذه النبوءة على صورة اليقين لا على صورة التخيل ، كما فعل قاسم الذى كان أشد الناس تمسكا وأكثرهم اهتداء بقوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا »!

قلنا ان اول شىء وجه قاسم عنايته اليه ، هو ترقية المراة المصرية ، اتيانا للاستقلال من بابه ، ودخولا الى التقدم من نهجه الواضح الخالى من عقبات المصادفة ، ومهاوى سوء البخت ، على الرغم من طائفة المتاخرين الذين يكرهون الانتقال من حال الى حال ، ويسكنون الى عاداتهم الاستبدادية الاصيلة فى نفوسهم ، لا حرصا على الدين كما يقولون ، ولا مدفوعين بدافع الوطنية كما يدعون ، ولكن لانهم يجدون من جهلهم عجزا عن مجاراة التقدم ، واعتقادا بأن الترقى سيرفع عليهم الشبان المتعلمين

ومن أغرب ما يقول امثال هؤلاء ماروى لنا عن كبير من الظالمى انفسهم قال : « ان فكرة تحرير المراة التى قام بنشرها قاسم امين ، انما هى فكرة انجليزية ، اريد بها تسهيل السبل لانجلترا لتضع يدها على مصر »

كبرت كلمة تخرج من فم هذا الذى عد من الذوات ، ما اراد بها وجه الله ، ولكنه اراد بها ابعاد يوم يجب أن يكون فيه القائل المتاخر مسودا لا سيدا كما هو الان .

ولكن أفكار قاسم أرفع مقاما وأمتن ركنا من أن تصل اليها مثل هذه الكلمات التى تعودنا أن نسمعها عن كل مصلح مخلص

عنى قاسم بترقيةالمراة ، وعانى فى هذا السبيل ما علم الناس .. ثم راى قاسم ان الناس قد فطنوا الى قوله ، واخذوا بتعاليمه ، وجدوا فى فتح المدارس للبنات ، وان نظارة المعارف سمعت نداءه . ترك موضوعه مؤقتا ليعود اليه بعد ، واخذ يبنى للعلم العالى صرحا لا يبيد فاخذ بيد الجامعة المصرية ، والناس يعلمون ما لاقى فى سبيلها من الصعوبات ، ويعلمون رأيه فى أمرها بخطبته الذهبية التى ما زال صداها يتردد الى الآن فى آذانهم ، وما زالت معانيها الحقيقية الساحرة تشغل قلوبهم ونفوسهم

وان الذى يدرك معانى قاسم أمين واغراضه ، وتوجهه بكليته الى العلم ، ربما يظن انه ككثير من العلماء ، فاتر الطبع ، ساكن الاعصاب ، حينما تحضره هزة الغيرة على الوطن او على الدين . كلا .. ثم كلا .. لم يكن فقيدنا الا فى مقدمة الشبيبة التهابا فى الدفاع عن دينه ووطنه ، بل ان بينه وبين الباقين بونا بعيدا ، فانهم اذا حضرتهم هزة الوطنية انفعلوا ، ولكنه اذا جاءته انفعل وانفجر انفعاله على قلمه وعلى لسانه ، فيصيب بهما ما يشاء من خصمه

كتب « الدوك داركور » كتابا هجا فيه المصريين ، وأنحى فيه على دينهم ، وسفه أحلامهم ، وقبح اخلاقهم وعاداتهم ، فانبرى له قاسم أمين ووضع كتابا باللغة الفرنسية مكينا فى معناه ، ساحرا فى اسلوبه ، قويا فى تركيبه ، دفع فيه عن الدين الاسلامى التهم التى هو براء منها ، وقارن بين حال المراة المسلمة وحقوقها فى الاسلام،

وبين حال المرأة الاوربية المتمدنة ، فكان لهـذا الكتـاب صدى فى عالم الكتابة الاوروبية .. جزى الله « قاسم »عن الدين الاسلامى والقومية المصرية اكبر الجزاء

***

قابلت قاسم امين بعد وفاة المرحـوم مصـطفى كامل باشا فقال : « ما أنت وهذه الحركة القائمة ؟ » قلت : « على ما قد قرأت » قال : « انهم يقولون انك بالغت فى وصف الروح الوطنية وانك تعلق عليهـا آمالا ، قـد لا تكون صادقة .. قلت : « والله ما اختـرعت ولا بالغت فيما كتبت ، ولكنى رأيت رأى العين شـعور التضـامن يتجلى امامى على رءوس الناس فى الشوارع والطرقات ، فما فعلت شيئا اكثر من انى ارسلت الالفاظ لتلبس هذا المعنى الظاهر ، وسطرتها على صفحات « الجـريدة » .. وهل أنت تقول انى بالغت مع القائلين ؟ »

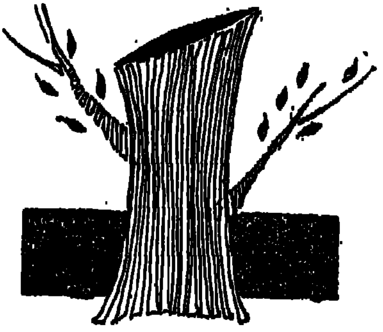
فانبرى يحدثنى عن شعوره قائلا : « انى اتهمـك فى وصف هذه الحـال الشريفة ، ولو كنت اخفف عليك فى الحكم لقلت انك فى نظرى اميل الى التقصـير فى هـذا الموضوع منك الى الغلو أو الاغراق » قال قاسم : « ان هذا الشـعور الشريف .. هـذا الولد الحديث الولادة الذى خرج من دم الأمة وأعصـابها ، هـذا هو الرجاء فى المستقبل ، هذا هو الذى يجب عليكم جميعا ان تباركوا عليه وتتعهدوه ؛ حتى يصير شابا ، هنـالك تنـالون الاستقلال »

قال لى قاسم هذا القول ، وهو ينقد وطنية ويخالف كثيرا من الكبراء امثاله فى انه لم يقصر قوله هـذا على اصحابه أو اخصائه .. بل أعلم أنه كان يقوله حيثوجد

ووجدت مناسبة ، تحية للشعور الوطنى . فكان قاسم بمثل ذلك ، مخالفا للعلماء المدققين الذين لا تهيج اعصابهم بملامسة الحوادث السياسية

اذا كان قاسم كما وصفت ــ وانه لفوق ما اصف بكثير ــ حق لى أن أوجه كل قولى الى الشبيبة المصرية ، التى ما خططت فى كتاباتى عنه حرفا واحدا ، الا لاجعل الذى لا يعرف منهم قاسم أمين يعرف منه ما نعرف نحن ، وليقتدى كل منهم بسيرة قاسم الصالحة ، وليعتنق كل عامل منهم انماط قاسم فى حسن تفكيره ، ويقلده فى غيرته على بلاده ، ويجاريه فى جرأته فى الحق .. فاننا اذا لم نجرؤ على قول ما نعتقده بشجاعة تامة ، وكان من شأننا محاباة سلطة من السلطات ، أو عادة من العادات ، أو ان نخشى تدمر طبقة من الطبقات ، فلا يمكن أن ننتظر نجاحا ولا استقلالا

فاول الاستقلال استقلال الافراد ، ثم يأتى بعد ذلك استقلال المجموع .. عوضنا الله عن قاسم أمين من شبيبتنا من يشغلون الفراغ الذى وجد بموته ، ويزيدون



المرأة مالكة الرجل

اذا غصب الرجل حق المراة فى المساواة وحقها فى الانتخاب والتوظف ، فلقد غصبته حريته ، واقامت نفسها عليه ملكا لا يرحم عند المقدرة ولا يجامل عند الحاجة ، ولا يعذر عند الزلة .. كان المراة قد اتخذت من حب الرجل لجمالها سلاحا تنتقم به منه على مافرط فى تقدير المساواة بينها وبينه ، وتقتص منه على فكرته السيئة فى اعتبارها موضعا للاستمتاع فقط . فهو يتحكم عليها فى المملكة وهى تتحكم عليه فى البيت ، هو يظلمها فى وضع القوانين ، ولكنها تظلمه بشىء أشق من ذلك بكثير وهو مصادرتها له فى احساسه ووجوده الخاص

قلتم لليهود :انزلوا عن حق الحكم ولا تكونوا الا تجارا .. قالوا : ولكنا بالتجارة نملككم ونعرف الامور بينكم ، فكأنكم رضيتم من السيادة بالاسم دون الفعل ، ورضينا منها نحن بالسيادة الفعلية دون الاسمية .. كذلك قلتم للنساء : لستن الا غرضا من أغراض حبنا للزينة والتمتع . قلن لكم : رضينا بهذا القسم بل ، بهذا الصغار ، ولكننا سنكون سيداتكم بما ملكناه من قلوبكم وسنذيقكم عذاب الهجر أحيانا ومرارة التجنى أحيانا . ثم نسخركم كالانعام

---

* الجريدة فى ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٠٨ العدد ٥٢٤

فى هذه الزينة التى اخترتموها لنا شعارا ، لتعلموا اينا السيد واينا المسود

صدق اليهود وصدقت السيدات أيضا .. فانك اذا مررت بمخازن البضائع وجدتها محشوة بأصناف غالية الاثمان كلها لزينة المرأة ، وليس للرجل امام ذلك نصيب كبير . مر « بالفابريقات » الكبيرة ، تجد الآلاف المؤلفة من العمال يشتغلون لزينة المرأة دون الرجـل .. اطلع على دفتر حســاب العــائلة ، لترى فيه كيف أن المرأة تصرف فى زينتها أضـعاف ما يصرف الرجال فى طعامهم وشرابهم وكسوتهم . اطلع على حال زوج مطمئن ، ترى المرأة تتدلل وتتجنى وتعذب وترضى ، وتشترط لرضاها عن زوجها أن يشترى لها كذا وكذا . ومن هو موضوع ذلك التعذيب ؟ هو الرجل الذى يظن حمقا انه سيدها كما تقول له هى أحيانا : « ياسيدى » ، وما السيد الا القاهر ، وما القاهر الا هى .. الا تعطون المرأة حقها فى الانتخاب ، وفى كل ما يساويها بالرجل فى هذه الاحوال الاعتبارية ، حتى ترضى هى أيضا بأن يساويها الرجل فى الحياة الداخلية ، ولكى يخف عنه ظلمها ويقل منــه انتقامها ؟ ..

تلك هى نظرة من نظرات « تولستوى » الصادقات ، نشرناها هنا لقرائنا من الرجال والنســاء ونلفت اليهـا فكرتهم على السواء ، لعل فى ذلك عزاء لسيداتنا اللاتى هضم الاســتبداد حقوقهن . وتقليــلا من خيلاء الرجال الذين يظنون خطأ انهم اسياد النســاء خارج البيت وفى داخله .. الذين يظنون أن بايديهم قيادهن فلا يسرحن ولا يرحن الا بارادتهم .. كلام لا مصداق له من العمل اليومى

سيقول بعضهم ان عذاب الرجل فى أمر يحبه عذاب يعذب .. وسيقول آخر ان الرجل ليس مملوكا للمرأة لذاتها ، بل هو مملوك لشعوره الخاص بمحبتها ، وانه لا يحب المرأة لله كما يقولون ، ولكن لانه يجد فيها مكملا لشخصه فى الحياة ، فهو بحبه لها يحب ذاته . وسيقول ثالث : ان يكون الرجل عبدا فى داره وسيدا فى الخارج ، خير له من أن يسوى المرأة به فيجعلها تشاركه فى الاعمال السياسية والعمومية لأن اشتغال المرأة بتلك الاعمال مفسد لها خطر على الوطن ، موقف لدولاب الجد فى العمل وحسن القيام به ، خلافا لمن يقولون : « ان المرأة تهز المهد بيمينها والعالم بشمالها » !

ليقولوا ما يقولون ، فان الذى يهمنا نحن المصريين من الموضوع ليس هو مساواة الرجل والمرأة فى حقوق الانتخاب والتوظف ، فان نساءنا بارك الله لهن ، لم يطلبن بعد مثل هذه المطالب المقلقة للراحة العمومية ، كما هو الحال فى انجلترا .. بل لا يطلبن شيئا يعز علينا منحه لهن .. انهن يطلبن سعادتنا الفردية وسعادتنا القومية ، يطلبن التربية والتعليم

المرأة لا تجرى فى زينتها من غير عنان الا اذا كانت لا تعرف فى الحياة فضيلة القصد .. اى اذا كانت تؤثر الماديات على المعنويات . وذلك أقرب الى المرأة الجاهلة منه الى المرأة الفاضلة ، التى قد تتخذ من فضلها خير زينة لها ، وتغتبط بنتائج عملها فى ذلك الوجود

فاذا كان الامر على رأى تولستوى ، وما أظن رأيه الا صحيحا جدا من أغلب وجوهه ، أى أن المرأة هى فى الحقيقة مالكة الرجل وسيدته الحقيقية ، وجب علينا

أن نجتهد فى أن تكون ملكاتنا أقل ظلما لنا وأكثر عطفـا علينـا .. وذلك لا يتم لنـا الا اذا كانت ملكات قلوبنـا متعلمات طاهرات القلوب فاضلات بكل معنى الكلمة

اليس ذلك اعتبـارا جـديدا يضـاف الى غيره من الاعتبارات الاخرى ، فيجعلنـا نهتم أفـرادا وجمـاعات بترقية المرأة الى درجة أعلى من مرتبتها الحالية



المرأة الفاضلة
أنفع للأمة من الرجل الفاضل

بين العائلة المصرية بالامس وبينها اليوم ، شبه واحد ، هو أن كلتيهما تؤدى الينا النتيجة الاجتماعية من الزواج، وهى الاولاد . ولكنهما من حيث سعادة الزوجية ، وما يستتبع ذلك من المنافع الشخصية والعامة ، تقدمان بين أيدينا فروقا ، هى سبب القلق الذى نحن فيه ، ونعمل لتلافيه

كان فى عائلة الامس بين الرجل والمراة شبه تام فى الجهل، شبه تام فى النظر الى الحوادث وتقديرها ، شبه فى فهم السعادة الزوجية .. كان الرجل يجمع فى البيت الواحد بين زوجتين أو ثلاث أو أربع ، وقد يضيف الى عددهن ممن كانوا يسمونهن خطأ ، ملك اليمين من الشابات الرقيقات ، بيضا وسودا ، ومع ذلك كانت الزوجة الاولى راضية بالمعيشة ، وكانت تعتبر غيرة قلبها عليه من الزوجات الاخريات او الجوارى ، احساسا يجب ان تخفيه بمقدار ماتستطيع

كان يمنعها الوقار غالبا من أن تفتح قلبها بالشكوى

---

* الجريدة العدد ٣٨٣ فى ١١ يونية سنة ١٩٠٨

اليه ، أو الى ذى قرابة منها ، بما تجده من الالم .. كان يرضيها من زوجها أن يعدل بينها وبين غيرها ، فى المعاملة والكسوة .. كان يرضيها منه ، احترامه لها وعطفه عليها وعلى أولادها ، وكانت مع هذا تحبه وتحفظ شرفه . لا أدرى اذا كانت الزوجة بهذه الحالة سعيدة ، ولا ما اذا كان الزوج على حال تلك الضرائر سعيدا أيضا ، ولكنى اقول ان روايات الوفاق بين الزوج وزوجته ، كانت مستفيضة ، وان حوادث الخلاف بينهما كانت اقل مما يسمع به الآن ، مع قلة الجمع بين زوجتين . ولا أفهم سببا لكثرة الوفاق على تلك الحال ، وقلة الوفاق فى حالتنا الراهنة ، الا انه كان يوجد دائما شبه بين الزوجين فى الطبقة الوسطى والعليا تقريبا ،وأن الزوجين كانا متفقين فى فهم السعادة الزوجية

أما الآن فان الشاب الذى أتم دراسته ، يتطلع الىمعاشرة زوجة تفهمه ويفهمها ، ولكنه لايتزوج غالبا الا بابنة جاهلة أو قريبة منها .. انه يفهم السعادة الزوجية على آخر نمط قال بهالحكماء العصريون ، وقرره مشاهيرالقصصيين .. وهى لا تفهم تلك السعادة الا بمجموع ما يحصل خيالها من روايات الدلالات ، وعجائز الحكايات . انهيرى الجمال فى رشاقة القوام ، وتناسب الاعضاء ، وخفة الحركة ، وطراوة الصوت ، وبريق العينين ، وجاذبية الحديث ، وتفهم هى الجمال بالسمن والبياض

انه يرى حسن الهندام فى بساطة الملابس ، وباهت الالوان ، ومشيها بعضها مع بعض فى الخلعة الواحدة . وترى هى أن حسن الزى ينحصر فى الاطالس والجنافس ، فمئزر على مئزر ، وجلباب على جلباب ، تحمل جسمها مالا يطيق ، وتنسى ذراعيها من غير قفاز .. انه يرى الزينة فى الحال الطبيعى ، أو القليل المألوف من الكحل .

وترى هى أن الزينة فى الكحل يصبغ فراغ الحجاج ، وفى تزجيج الحواجب على غير الرسم الطبيعى ، كأن الغرض ليس تسويد شعر الحواجب ، ولكنه تسويد الوجه ..

انه يرى دلائل المحبة فى تبادل الحديث على صـــفاء وحسن رعاية فى المعاملة والمجاملة ، ولا تفهم دلائل المحبة الا بكثرة الهدايا .. انه يرى من الواجب عليه أن يصدقها من غير تردد فى كل ماتقول عن نفسها ، وهى لا تصــدقه مطلقا فيما يقول خصوصا فى موضـــوع أنه لن يتزوج بغيرها .. ولا يثبت فى نفسها انه على ما يدعى من الوفاء، ولا أن الزوجية متى صفت ، تقتضى البقاء الى آخر الحياة

***

ذلك قليل من الفروق الكثيرة بين اخلاق طرفى العائلة الحديثة فى مصر ، اذا قدر على الشاب المتعلم أن يتزوج بغير المتعلمة .. فاذا ابتليت الفتاة المتعلمة بالزواج من غير المتعلم ، كانت تلك الفروق اظهر اثرا فى تنكيد العيش العائلى الى مايشـاء الله ، لان التعليم يوجد بين المتعلمين شبها عظيما ، خصوصا اذا كانت طريقة التعليم واحدة . فتعالوا بنا الى المدارس ، لانجد فيها البنات على نسبة البنين . ويكون من الطبيعى أن كل متعلم لا يستطيع اذا كبر ، أن يتزوج بمتعلمة . وعلى ذلك لايمكننا أن نحصـــل السعادة العائلية التى هى قاعدة جميع السعادات الاخرى. فاما أن نرضى بتردد الشبان فى الزواج وكرههم له ، وهذا خطر على الامة المصرية .. خطر من حيث النمو العددى، ومن حيث كمية الرقى الادبى ينقله الوالد المتعلم لولده بحكم الوراثة

انه لا سبيل للافاة هذا الخطر الا باكثار عدد المتعلمات من البنـــات ، وتقريب معلـوماتهن العـــامة من

معلومات البنين بقدر المستطاع .. فان التى لا تعــرف الا القراءة والكتابة لاتعلم شيئا ، بل لابد لتكوين ملــكة الفهم أو انمائها ، وتقوية الاستعداد لقبول الآداب العالية ومبادىء الاخلاق ، من العلوم المختلفة .. كالعلوم التى تدرس فى المدارس الثانوية

ان مدارس الراهبات يعلمن من ذلك شيئا قليلا، ولكنى اذا نصحت بأن يكون المعلم راهبا أو راهبة لا غرض له فى الحياة الا التعليم ، فانى لا أستطيع أن أنصح للفتيات المصريات بأن يمضين سنى تعلمهن كلها عند الراهبــات ، لانهن بعد ذلك يتممن الدراسة ، ثم لا يكون بينهن وبين امهاتهن وخالاتهن وبقية اخواتهن المصريات من الشــبه الشىء الكثير . ولابد للفتاة المصرية المتعلمة من أن تكون فى تربيتها ذات طرفين .. طرف متمدن مصفى بمصفاة التمدن الحديث تتفق به مع زوجها الشاب المتعلم ،وطرف آخر يدخل فى تركيبه مقدار كثير من عادات الســيدات المصريات تتفق به مع أمها وحماتها وعائلة زوجهــا ... فخير للفتاة المصرية أن تتعلم ، أو تتم تعليمها فىالمدرسة « السنية » عند الامكان

نقول تتم تعليمها ولا نعرف اذا كان آباء الفتيــات يرضون بتركهن فى المدرسة اذا تجاوزن الرابعــة عشرة من عمرهن ، حتى يدخلن القسم الثانوى من المدرســة « السنية » ، فتتربى عقولهن تربية تضمن لهــن ارضاء مطامع أزواجهن ، أو يغارون عليهن غيرة ليس لها سبب جدى ، فيقطعون عليهن طريق سعادتهن ، ويــكتفون منهن بالمعلومات الابتدائية التى ليس لها فى ملكات الفتاة سوى اثر محدود ، اذا نفعها اليوم فى ان تتزوج من شباب مهذب ، فانه لن ينفعها غدا حين يوجد لها مثيلات تعلمن العلوم الثانوية ، فصرن بذلك أحق منها بسعادة العشرة

مع رجل كفء ذى عقل كبير وفضائل ومركز سام بين الناس

خلوا بين البنات وبين سعادتهن ، ولا تضيقوا عايهن متسع الحياة ،ولا تكسروا بأيديكم مستقبلهن ، ولا تعبثوا بسعادتهن اتباعا لهوى الغيرة وخوفا مما لا خوف منه عليهن ، فان المرأة الفاضلة أنفع للامة من الرجل الفاضل أضعافا ، بمقدار عدد ماترزق من الاولاد



تعليم المرأة
أساس الإصلاح الاجتماعي

بالعائلة يجب علينا ان نبتدىء فى اصـــلاح نظامنـــا الاجتماعى ، وبتربية المرأة نبدأ فى أصلاح العـــائلة .. فتربية المرأة ، هى كل ما يجب أن نصرف اليه جميع قوآنا الموجهة لاصلاح جمعيتنا المصرية ، كما قال بذلك الرجل الكبير قاسم أمين

غير أن هذا المذهب لايزال قولا تلوكه الالسنة ، ولايصل منه الى القلوب شيء ، لان النـــاس انما يقلدون فيه غيرهم ، فيقولونه فى المجلس بمدة قليلة أو كثيرة ، اظهارا لبيان اهتمامهم باصلاح شئونهم ، ودليلا على أنهم غـير متاخرين فى الفكر عن الطبقة الراقية ، لا أنهم حقيقـــة مقتنعون تمام الاقتناع بهذه النظرية ، مؤمنون بهـــذا المذهب ، عاملون على تحقيقه جهد المستطيع .. ذلك بأن تربية المرأة لم يشرع لها فى بلدنا الى الآن نمط خاص مجمع عليه مفصل ، يخرجها من الاجمال الذى لا يشفى غليـــل النفس ، الى التفصيل الصريح الذى يأتى البحث فيـــه اخذا وردا ، وادعاء ومنعا ، بالحقيقة البينة التى لاتبقى

---

* الجريدة . العدد ٤١٠ – ١٣ من يولية سنة ١٩٠٨

ترى كثيرا من الذين يقولون بتربية المرأة يقولون أيضا بمنعها من التوغل فى تعلم العلوم التى يتعلمها الشبان .. اليس هذا يعد ضمنا دعوة الى عدم تربية المراة ، التى يقرونها فى أصلها ؟

ترى كثيرا من الذين يقولون بتحرير المراة يسوءهم مع ذلك أن يروها تخرج الى النزهة ، أو تعدل من زيها القديم ، فتضيف اليه أو تنقص منه ، ماجاءت به المودة الجديدة النافذة القانون على الرجال والنساء جميعا ، بحكم حب الجميل ، وعدم الصبر على لبس واحد

يكرهون منها ان تتزين كما تشاء .. والرجال جميعا من شيوخ وشبان أول مايفكرون فيه صباح اليوم ، هو تنظيف الوجه وحلق اللحية وفرق الشعر أو تسريحه . اذا جرحت أنظارهم مشاهد المرأة على غير مايحبون ، ضاقت صدورهم عن احتمال تقدم المرأة فى الحرية الشخصية ، ورجعوا الى الكتاب الاقدمين ، فجاءوا من أقوالهم بما يهدم حرية المرأة ، تاركين فى النقل مايثبت لها احترام حريتها الشخصية ، كما تحترم حرية الرجل ، آخذين من الشرع ما يثبت تفضيل الرجل عليها فى بعض المواطن ، تاركين احترامه لحريتها فى جميع تصرفاتها ، ووصية الرجال الا يضاروهن ولا يضيقوا عليهن • ثم يضيفون الى ذلك القاء مسئولية خروج النساء عن حدود مايشتهون من جمودهن ، تحت اسم الوقار والحشمة ، مرة على الحكومة ، وأخرى على النظام الاجتماعى ، وتفريط الكتاب فى نقد ماسموه بالتبذل ، وتهاون الاباء والازواج فى دفع أزواجهم وبناتهم عما حسبوه التبرج المعيب

يريدون بذلك كله اقامة الحسبة للرجال على النساء ، فلا تلبس الواحدة الا مايريد غيرها ، ولا تفهم الا مايريد غيرها ، ولا تنظر للامور الا بعين غيرها ، ولا تسمع الا باذنه ، ولا تأكل الا مايشتهى .. اليس ذلك هوالاستعباد بعينه ، المناقض لتحرير المرأة الذى يريدون ؟ اننا اذا تحرينا مصدر هذا الضيق فى نفوس الرجال من حرية النساء ، وقذفهم اياهن بالخروج عن الوقار ، لنجد أن مصدر ذلك فى نفوسهم ، انما هو بقية باقية من اصول الاستبداد القديم ، الذى جعل المرأة الشرقية تظن ان الطبيعة لم تهبها من الحرية فيما خصت به من الاعمال ، كما وهبت الرجل . وهل يتفق حبنا للاستقلال الذاتى ، وانماء ملكة الابداع والاحترام ، مع كراهتنا للاستقلال الذاتى للمرأة ؟ ام هل يتفق ابقاء المرأة على تجردها عن الاستقلال الذاتى ، ومطالبتنا اياها بأن تربى لنا رجالا أحرارا وناشئة مستقلة ان العبد لايربى حرا ، وانما يربى عبدا مثله ، وعلى صورته ، وأن الام لاتعطى ولدها من الاخلاق الا ماالديها .. فاذا كان يجب عليها ان تتبع نفسها نفس الرجل فى كل شيء ، فلاشك انها تكون بذلك رقيقة ليس لهـا أخلاق ثابتة ، بل اخلاقها دائرة وراء رضى الرجل ، وعدم رضاه

افتطلبون ان يكون بنوكم متلونى الاخلاق ، يلبسون لكل حالة خلقا ، لا هم لهم فى الحياة الا ارضاء أصحاب السلطة عليهم ؟

***

ان أقوم المذاهب لتربية البنت ، هو اعدادها من يوم نعومة اظفارها لان تكون قبل كل شيء انسانة حرة مستقلة ، ذات مبادىء ثابتة واخلاق حسنة ، ثم فتاة

متجملة ، ثم زوجة وفية ، مطيعة تعرف الجمال ، وتفهم الزينة ، وترضي زوجها الحر ، لا زوجها المستبد . ؟

أما مثالا فى التقوى والطيبة والقناعة ، محبة لأولادها ، مربية اياهم على مبادئها ، معلمة اياهم كيف يحبون بلادهم ويخدمونها ، ويضحون بأموالهم وأوقاتهم وحياتهم فى سبيل اسعادها . ذلك هو المقصود من تربية المرأة ، ولاشك فى ان القراءة والكتابة وحفظ ما تيسر من القرآن ، على ذلك المعلم الذى كل فضله أنه مصحف حى .. كلّ أولئك لايمكن بحال أن يخرج من الطفلة الخالية الذهن ، فتاة كاملة شأنها كما وصفنا .. بل لابد لتخريج تلك الفتاة المحبوبة ، والزوج الامينة ، والام القدوة ، من علوم شتى وتعاليم كثيرة ، وأوقات طويلة ، ودروس جدية ، على اساتذة مقتنعين بأهمية ما يحاولون ، فاهمين ماذا يعملون

أول درس يجب أن يلقى على الطفلة المصرية مع الالف باء ،هو كونها مخلوقا حرا ، وهبه الله حريته ، وماوهب الله لايسترده الا الله . ثم يتدرج تعليمها من ذلك الى كل مايحيط بها من الاعمال ، فالاغراض الانسانية والمعاملات العائلية والاجتماعية ، ويلفت نظرها دائما الى مضار العبودية والتسليم فى الذات ومنافع الحرية والاستقلال ، بما يقع من الامثلة اليومية فى الوسط الذى يحيط بها . تعلم أن تكون امرأة تحسن حديثها ، وتفيض من روحها ، فيض الطيبة والسكينة على من حواليها .تعلم كيف تبدو امام الرجال ، وماذا يقصد بالزينة .. يعدل ذوقها ، ويصفى بمصفاة الامثلة الحية ، والشعر والموسيقى والرسم .. تعلم قواعد الاقتصاد والتدبير المنزلى ..تعلم حسن القياس بما يتيسر من التاريخ خصوصا تاريخ الادب، تعلم الاشغال اليدوية ، تعلم ما تستطيع لتعلمه سبيلاً ،

ولا وقف فى تعليمها عند حد من المعلومات . فاذا فرغت من الدراسة ، فألقيت فىمعترك الحياة ، كانت هى الام المثالية التى ننشدها لابنائنا وورثتنا فى هذا العالم

اذا كانت الحرية هى قاعدة التعليم ، فليس لنا ان نتملق الكتاب الاوربيين فى الانتقاد المر على حرية النساء ، وزينتهن .. فان الاوربيات قد شبعن حرية شخصية ، وهن يطالبن الآن بالحرية العامة ، ومزاحمة الرجال فى ساحات الانتخاب ومراكز التصرف فى شئون سياسة العالم . ولكن نساءنا المصريات ظمأى الى الحرية الشخصية ، وانهن لاحوج الى أن يشجعن فى الظهور بمظاهر الاستقلال الذاتى ، حتى تمحى من نفوسهن آثار الاستبداد والاستعباد ، بل يسقن الى ذلك سوقا بالنصائح والاقلام ، لا أن ينحى عليهن باللائمة فى حريتهن ، فتستجم أنفسهن ، وتنقبض ملكاتهن ، ويحجمن عن الاخذ بأسباب الحرية الشخصية ، التى وهبها الله لهن ، كما وهبها لكل مخلوق بلا استثناء . ولئن زادت احداهن عن الاخذ بالمعروف من الزينة ، والخروج عن القصد فى السير ، فذلك موكول الى أبيها وزوجها واولياء أمرها ، الذين لهم عليها النصيحة والارشاد والتأديب والتعليم

دعوا النساء يشممن هواء الحرية التى فقدنها بتقاليد الاستبداد الاولى ، وعلموهن ـ أن بالدرس ، وان بالعمل ـ أن لاسبيل للرجال عليهن ، الا مافرضه الشرع وما كان عليه نساء العرب فى صدر الاسلام ، فلا تضاروهن ، ولا تضيقوا عليهن

الفصل السابع

في الأخلاق وتربية النفس



الحب

يحب الرجل المراة وتحب المراة الرجل ، من اول الخليقة الى الان • وقد حاول المفكرون فى كل زمان ومكان أن يقيدوا هذا الحب بضوابط معينة ، وبحثوا عن مصدره الطبيعى فى النفوس واجتهدوا فى ترتيب درجاته، ووضعوا له الاسماء المختلفة فى كل تطوراته من الميل الى الهيام .. لكن الذى يهمنا انما هو البحث فى هذه الظاهرة الطبيعية من حيث نتائجها الظاهرة بالنسبة لجمعيتنا الانسانية

مهما اختلف الباحثون فى الحب ، فان الاجماع واقع على ان هذا الشعور الطبيعى ما ركب فى الانسان الا لحفظ النوع ، وحاشا الطبيعة أن تتخذه للناس لهوا عقيم النتيجة أو زخرفا لا يصح الا للتفاخر ، أو مصدرا جديدا للانصراف عن الاعمال النافعة ، وشغلا شاغلا يحتوى حامله فيملك قلبه وعقله وملكاته ويشل قواه الوجودية ، الا عن الهوس بالفكرة فى المحبوب ، والهجر والوصال ، والنأى والقرب .. حاشا الطبيعة أن تقصر امرءا على عبادة شعور من المشاعر التى ركبتها فيه لمصلحتها لا لمصلحته ، بل حاشا التربية الانسانية أن تجعل من الانسان آلة لا تصلح الا للغرام

على ذلك يتحقق غرض الطبيعة بأقل اقدار الحب ،هو

الميل أو الرغبة العادية التى لا يمنع وجودها من وجــود الملكات الاخرى بجانبها سليمة ، تؤدى كل منهــا عملهــا المنوط بها طبعا

والحمد لله على ان ذلك هو الواقع فى العالم ، وأن أمثال مجنون ليلى نادرون ، بل هم اناس مرضى أصابهم التشوه فى أمزجتهم ، فنبــــوا فى سلوكهم عن سير الانســـــان السليم

لا انكر ان الحب فى درجاته العالية قد يكون ظرفــا لظهور الرجل بما فيه من الاستعداد الكبير لصفات العفاف والنبل والبسالة ، كما تكون ساحة القتال ظرفا تظهــر فيه صفات الابطال ، وكثيرا ماكان الحب من جانب المرأة مظهرا لفضيلة الاخلاص ، والتضحية غير العادية ، وعلى ذلك لا أرى باسا من الحب فى أرفع مظاهره ، وفــــوق ماتريده الطبيعة .. لا أرى منه بأسا اذا كان فى بعض الافراد ، والضرر كل الضرر أن يـــكون الحب بمراتبــه الشعرية من الشغف والغرام والهيام احساسا عاما لامة من الامم او قبيل من الناس ، ذلك لان التجارب متفقة مع المعقولات البحتة فى ان اصل الحب فى الانسان هو حب الذات ، اى الانانية والاختصاص ، فكلما زاد الحب زادت معه مظاهر الاثرة والانانية الى حد ان كلا المحبين يريد بكل قواه ان يمحو شخصية محبوبه من الوجود فيطمع فى الا ينظر الا بعينه ، ولا يسمع الا باذنه ، ولا يفكر الا بدماغه ، ولا يطعم الا مايحب هو أن يطعمه ..

ولكن هذا طمع فى غير مطمع ، بل جنون وهوس لامحقق له من الطبع ، ولئن تحقق فانه اماتة معنوية بوجه مالكلا المحبين ، وليس من مصلحة المجاميع أن تتكرر فيها مثل هذه الصور المريضة المضرة ،بل ليس من المصلحة انيتالف

مجموع ما من أناس شخصيتهم فانية فى غيرهم ، أو استقلالهم الذاتى قليل أو معدوم .. بل من مصلحة المجاميع ، ان يكون كل فرد داخل فى تاليفها ، مستكملا شخصيته التامة مستوفيا قسطه من الاستقلال الذاتى الذى هو اصل من أصول الرقى والنجاح

على هذا الاعتبار أكاد أتمنى أن يكون عندى هنا قلم مطبوعات ، أى سلطة غير محدودة كقلم مطبوعات الحكومة، ليضع كتاب القصص ومعربى القصص تحت المراقبة ، حتى لايضيفوا الى التشويه الطبيعى فى الامزجة تشويها آخر صناعيا ، فان الكاتب قد يكون ضعيف الاعصاب بالاجهاد الشخصى او بحكم الوراثة .. هائج المجموع العصبى من جراء المعيشة المدنية ، والاسرافات المتنوعة من شرب الكحول ، ومن السهر ، بل من البيئة المدنية المصفاة التى لا تكاد تفيق من اللهو واللعب . قد يكون الكاتب كما وصفنا ، فيجرد من شخصه المريض بطلا لروايته الغرامية

ولاشك فى أن أغلب الفتيان أو الفتيات فى سن معلومة تسحرهم القصة ، فتسرى اليهم العدوى المعنوية من اخلاق أبطال الروايات اذا قرأوها فى خلواتهم أو شهدوها تمثل على المسارح ، فتكرر فى الجمعية بتلك الصورة المريضة ، ويفشو فى الناس التشوه الذى هو فى الطبيعة قليل المثال ..بذلك يكثر فى الناس أمثال عطيل فى غيرته الطائشة ، ولايرضى الفتى من خطيبته الا تضحية (جوليت) .. الخ وما اغنى الانسانية وهى أحوج الى الاعمال المنتجة فى سعادتها ورفاهتها عن اكثار عدد المرضى قليلى العمل كثيرى الهوس والخيالات العقيمة

وكانى بقلم المطبوعات الخيالى هو أيضا يتفق مع الدكتور

، بوردو) فى تفضيل الكاتب القروى صحيح العقل صحيح الاعصاب ، يكتب عن بنى آدم ما يراه فى عيشة الفلاحين من الحب المعتدل البرىء الذى يبرره الطبع ولا يأباه العمل لمصلحة العمران ،فان الحب من حيث كونه من المحرضات على عظائم الامور ، خليق ببعض الافراد أولى الاستعداد الخاص لاظهار الفضيلة فى أعلى مظاهرها، ولكنه بصورته المتقدمة ، ليس نافعا فى المجاميع

الصداقة

وهناك شعور آخر يأتى دائما بجانب الحب ، وهو أبرأ منه طبعا وأعظم فى الوجود اثرا وان كان ليس أقل من الحب كلفة .. وذلك هو احساس الصداقة احساسا يشتبه كثيرا فى أصله وفى مظاهره باحساس الحب ولعله بعضه ، ولكن نتائجه كلها كانت وتكون سعدا على الفرد ، سعدا على الجماعة ، سعدا على كل الوجود

نحن بنى آدم بطبعنا جماعات وبتطورنا جماعات ، فللجمعية فينا وجود حقيقى كوجود الفرد ، لا اعتبارى كما يظن بعض المتفلسفين .. جمعيتنا عمل من أعمال الطبيعة ، كما أن وجود الفرد عمل من أعمال الطبيعة ، لا شبهة فيه . لذلك جربنا فى الماضى ونجرب الآن وسنجرب فى المستقبل ، أنه كلما كان الارتباط بين الجماعة قويا بالمشابهات بين الافراد ، كانت الامة قادرة على حالها غالبة على أمرها مالكة طريقها الى الترقى تخطو فيه خطوات واسعة

وكلما تسرب الضعف لروابط الجماعة واتسعت بين الافراد دائرة الفروق ، تحللت عزائمهم وخارت قواهم ورجعوا القهقرى بغير نظام من ساحة المزاحمة فى الحياة ،

وتبدل غنمهم غرما وأصبحوا اذلاء يؤكلون ولا يأكلون .. كذلك سنة الله ، لا حق فى الوجود الا للقوى ، ولا قوة الا باستكمال العدد الطبيعية وأولها تضافر الجماعة

ان احساس الصداقة هو النواة التى تتكون حولها الجماعة اذ الاصل فى الصداقة الثقة المتبادلة بين الصديقين، وشيوع هذا الاصل فى الامة اظهر البشائر لاتساع دائرة المشابهات بين الافراد ، وضيق دائرة الفروق أكبر العوامل على تأليف الامة من الجماعات القوية القادرة على العمل

ان احساس الصداقة أساس للتفاهم فى المنافع المشتركة، وكلما كان التفاهم بين الافراد سريعا سهل المنال خالصا من الشك ، سهل تأليف الشركات .. فان العمل يدلنا على أن المشروعات الخطيرة ، انما تولدت فى دائرة ضيقة بين جماعة من الاصدقاء كسبوا بثباتهم وتضامنهم ثقة الجماهير ، فنجحت مشروعاتهم . ولست اتخيل انى اعرف مشروعا كان الاتفاق على القيام به بين عدوين أو بين اثنين فاترى العلاقة أو بين غير صديقين . هذا مالا نعلمه الى الآن ، فانه مهما كان اساس المشاريع المفيدة هو اتحاد المنفعة ، فان الاتفاق على المنفعة وتقدير نتائجها والارتباط بتحصيلها أقرب مايكون بين صديقين ، بل هو عسير أو متعذر بين غير الاصدقاء

اذا كان التضامن القومي يكون فى البيئات المختلفة بالتعارف المجرد ، فمن المعقول أن اكمل مايكون هذا التضامن بين الاصدقاء

ادعو الى الصداقة لا من حيث نتائجها المفيدة فيما تحاول من الرقى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى أيضا .. ولكنى أشعر بأن فيها للفرد سعادة لا تعدلها

سعادة . أدعو الى صداقة الرجل بالرجل ، صداقة بمعنى الكلمة لا هذه الصـــــداقة المزورة التى لا أتأخـر عن أن اسميها طريقة من طرق النصب ، او كذبة من الاكاذيب ، التى يظنها البله سياسة ، وما فيها من رائحة السياسة الا مايكون بين النقيض والنقيض

ليست الصداقة بشا فى الوجه عند المقابلة ، واكثـارا من تحيات « أوحشتنا » و « شرفتنا » و « زارنا الغيث» وليست كذلك عناقا عند اللقاء بعد الغيـبة ،ولا اطراء فى الوجه أو بظهر الغيب ، امام رجل ينقل المجالس . . ليست الصداقة فى ذلك ، ولا فى توجه وقتى من توجهات النفس ساعة صفاء لايلبث أن يمحى اثره متى انفض مجلس اللهو، او متى ذهبت الفرصة السعيدة لرضى احد الصاحبين عن الآخر ، أو عن حديثه رضى وقتيا . . انما الصداقة نفس صادقة صحيحة تعرف أن تحب حبا هادئا عميقا ، تعرف ان تكون محلا لثقة الغير ، وتعتقد فى ثقة الغير

والصداقة بين النفوس التى تروض نفسها على معرفة الوفاء واتيانه بقدر ماتستطيع . . واني لاشعر أن من يؤتى غيره صداقة ، يؤتيه شيئا كبيرا ونفعا كثيرا . وأن الشعور بالصداقة يوثق حزام الصديق ، ويشـــد من عزيمته ، ويحبب له البقاء فى هذه الحياة ، ولو كانت فى عينه موطن المكاره والارزاء . . فمالنا نتراخى فى حقوق الصداقة ، والصداقة ائتلاف : (المؤمن آلف مالوف ، ولا خير فيمن لا يالف ولا يؤلف ، وخير الناس انفعهـــم للناس)

حدثنى صديق ذكى القلب ينتفع بكل الحوادث ،ويعتبر بكل المشاهدات ، قال : ركبت الترام الى جانب السـائق

فحضرتنى طائفة من الافكار ترجع كلها الى حال هـذا العامل ، وما يعانى من سفر مستمر خلو مما نجـد نحن فى أسفارنا من التعزية ببلوغ الغرض ، وما يحمـل من مسئولية كبيرة مستمرة .. اذ هو مسئول عن سلامة راكبى ترامه ، مسئول عن المصـادمات ، مسئول حتى عن الاطفال المتسفين ، يمر أحدهم أمام الترام ليغتبط بخفته فى العدو وليهزأ بسرعة الكهرباء ، أو يتصدى للتعلق به سائرا من على اليمين حيث يتاح له النزول من غير خطر أو على الشمال اذا زلقت رجله ، فهو وشيك أن يلقى بين ترامين ..

قال : حادثت السائق حيث لا خطر من محادثته ، وسألته ماذا يجد من عمله ، وهل هو يذوق لذة المسئولية التى يحملها والخدمة التى يؤديها .. فأجاب ببساطة خاصـة بالافندية من درجته ومستوى تربيته : ان عمله شـاق ممل .. ولكن يخفف عليه هذا الملل كثيرا ، أن يقابله سائق آخر من أصحابه ، فيتبادلان فى هـذه الفرصة الضيقة عبارات التحية لايتمانها حتى يبعد كلاهما بحيث لايسمع صوت الآخر .. تسلية ضئيلة ! ولكنها مع ذلك تثير فى النفس اكبار الصداقة ، وانها من الشروط الاصـلية للحياة

لم ينفرد صاحبنا السائق بالمسئولية ، بل كلنـا فى المسئولية سائق ترام يحتمل مسئولية عمله ونتائج أعمال غيره أيضا .. وكلنا معذب لابد له من تعزية تخفف عليه حمل الحياة . والظاهر أن أكثر التعزيات خيرا واطولها عمرا واطهرها طبيعة هى الصداقة

يرد على الخاطر فى هذا المقام معنى قلما فات امـرء

استعماله : (لا .. لا .. كلنا أصدقاء) .. يقولهـا الواحد لصديقه اذا عرض عليه الاشتراك فى عمل مالى ، او نحو ذلك من الاعمال التى مغبتها عادة الاختلاف على المنافع وتبدل الصفاء كثيرا بين المتعاملين ! .. مهماقيلت هذه الجملة فى مقام الاعتذار ، ومهما ابتذل استعمالها فصار يتناول علاقات غير الاصدقاء فى الحقيقة ، الا انهـا مع ذلك لشيوعها بين الناس تعتبر من جانبهم اجماعا على ان الصداقة فوق كل المنافع ، وأغلى ثمنا من أن يشترى بها الرجل كائنا ماكان من الاعراض الانسانية

ماهي حياتنا ان لم تكن فى الواقع مجموعة من المشاعر المختلفة ؟.. بها وحدها نحيا ، ومن أجل الجمـع بينها والحصول على لذتها نتعب وننصب وفيها نحيا ونموت ! وما اظن مافى الانسان من قوى مادية وعقلية الا خـدما لاشباع مشاعره النفسية .. الا ترانا ننظر الى مافى الدنيا بنظارات تأخذ الوانها صفاء نفوسنا وكدرها .. فالمغتبط بما هو فيه يرى الحياة وردية ــ كما يقال ــ ولو كان فى فقر الانبياء أو فى غيابات السجون !.. أما الذى يظن ان أسباب الفوز تقطعت به ولازمته خيبة الرجاء فى مقاصده او فى اصدقائه .. أو من هو لاى سبب تكدرت مشاعره فلا يرى ماهو فيه من نعم الحياة الا جحيما مقيما

انها مشاعرنا النفسية هى التى عليها العمدة فى جعلنا سعداء او اشقياء ، فليس بعجيب على الانسان ان يجعل للصداقة ــ وهى اظهر المشاعر الانسانية ــ هذه القيمة، ويفضل الشعور بها والاغتباط بلذتها على كل شىء

يسرف الناس فى استعمال لفظ الصديق مقولا على الزملاء والمعارف ، بل ومعارف المعـارف .. وما ارادوا بذلك امتهان الصداقة وابتذال أمرها ، فانهم منذ طفولة

الانسانية الى الآن ، ينشدون الخل الوفى ويقولون بامتناعه بوصف انه المثل الاعلى للصديق .. ولكنهم يريدون أن يشرفوا طبائع علاقاتهم بعضهم ببعض اذ يعطونهـا لون الصداقة أو لفظ الصداقة

ولو سئلت : ما الصديق ؟ .. لما زدت على أنه ذلك الانسان بعينه الذى تشعر فى نفسك بالفرح عند لقائه والشوق للجلوس اليه والافاضة له بكل مالديك ، تعطيه مفتاح عقلك وقلبك آمنا ليرى فيهما كل شيء .. يوحشك بعده ويؤنسك قربه ، وتجد من نفسك باعثا قويا وحاجة لا يسدها الا لقاؤه

ولقد نجد فى الامثلة الصديقين يكون كلاهما للآخرعلى ما وصفنا ، فلا يقع بينهما ، الا أصبحا لا كالمعارف بل كالاعداء . وهذا صحيح مشاهد ، ولكنه لا يطعن على معنى الصداقة فى شيء .. بل هو يدل على ان الصداقة كبقية المشاعر النفسية مختلفة الكم والبقاء باختلاف الاستعداد . فمن الناس من يحب الى الشوق بل الى الهيام بل الى الموت . ومنهم من يحب حبا لا يتعدى المتعارف فى القدر، ولا يتعدى أياما أو أسابيع فى البقاء

ومهما كان من الصعب التفريق التام بين عاطفة الصداقة وعاطفة الحب تفريقا منطقيا ووضعيا ، الا اننا مع ذلك نشعر فى نفوسنا بتخالف بين الاحساسين وتباين فى الكيف بين موضوعيهما .. فالنفس التى لا يمكنهـا استعدادها الا من السير فى الحياة على مقتضى المصادفة الصرفة ، تتنقل فى صداقتها كما تتنقل فى أذواق المودة. قل أن ننعم بهذه الصداقة وان كان من الصعب علينـا ان نظن أنه توجد نفس لم تذق لذة الصداقة قليلا أوكثيرا تبعا لمبادىء التربية وفطرة الاستعداد

ما أشمل الرضا للنفس ، تجلس الى نفس صديقة مجلسا ليس للتكلف فى الاوضاع المادية ولا المشاعر المعنوية فيه أثر ! . . روحان اتفقتا فى المشاعر ، وتم بينهما التفاهم فى كثير من أمهات المبادىء العلمية والكليات العقلية . . للذة يعرفها الذى يعرف لذة الاحلام ، فكثيرا ما تجرد النفس من ذاتها فى العزلة خيالا تفضي اليه بما فيها وتبدى له ما خفى فى طيات أعماقها من المقاصد ، وما رسب فيها من الآلام . فاذا وفقت الى الصديق الموافق كانت هذه المفاجأة الحلمية اللذيذة أشهى متاعا وأقوى لذة من لذة الهواجس الفردية ومسارح الاحلام

وما الصداقة بقاصرة فى آثارها على هذه اللذة ، لذة الحديث العذب والبعد مسوقة عن عذاب الحياة اليومية واثقال التكلف فى أوضاع الاعماق .. بل كثيرا ما كان صديقك مرآتك ترى فيها عيوبك وفضائلك جميعا ، بل طالما كانت الصداقة وتشيع الاصدقاء مصدرا للتفوق والنبوغ . نفعت الصداقة الروح بتخليصها من سآمة الوحدة وألم الوحشة ، ولكنها نفعت العلم والادب أيضا فى كثير من الاحيان

احساس تلك هى الحاجة اليه ، من حقه أن يتعهد أمره فى النفس لينمو فيها ، فلا يغيرك لصديقك خطأ وقع فيه، فيما الكمال بمدرك فى هذا العالم بل يجب أن تكون معاملة الصديقين مبنية على حسن الاعتقاد وقاعدة التسامح

التفاؤل بالخير

أف من هذه الحال .. ما أصبر المتفائلين ، كأنهم عما يحيط بهم جاهلون .. كأنما هم يظنون أن رقى البلاد تكفى فيه الامانى المجردة ، أو انه نتيجة من نتائج المصادفة، لا نتيجة لازمة لمقدمات عملية من أنواع شتى .. يظلون متفائلين بالخير ، منتظرين أنواع الرقى تدخل عليهم من الابواب كالباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه

يعترفون بأن الحال الاخلاقية عندنا فى اضطراب شديد ، بل فى انحطاط مستمر ، لا مقطوع ولا ممنوع .. يعترفون بأن الروابط العائلية بين افراد العائلة الواحدة تتراخى وتوشك أن تنحل .. يعترفون أن الروابط الاجتماعية بين الصديقين وبين الشريكين وبين الجارين وبين المصريين ، قد انقلبت فى موضوعها وفى لونها .. فموضوعها الشر لا الخير ، والمفسدة لا المصلحة ، ولونها الملق والنفاق .. يعترفون بأن حكامنا كأنهم اغراب عنا وهم أبناؤنا الاعزاء .. همهم الخروج من المسئولية لا احتمال المسئولية ، ودفع الضرر عن أنفسهم لا جلب المنفعة لنا

يعترفون بأن الحكومة فى شكلها الحاضر كأنما هى لمصلحة الحكام لا لمصلحة المحكومين ، يعترفون بان التعليم الذى تقوم به الحكومة بأموالنا لم يخرج لنا جيلا يقوم

---

* الجريدة فى أول فبراير سنة ١٩١١ العدد ١٨١١

من اعوجاجنا ويصلح ما افسده الاستبداد من اخلاقنا .. ويفتش عن مواطن الضعف فى جمعيتنا فيقويه، يحمل همنا ويكسب ثقتنا ، فيجعل من مصر وطنا عزيز الجانب بارا بابنائه ، سائرا الى الامام لا راجعا الى الوراء

يعترفون بأن ابناءنا المتعلمين نحن نطعمهم ونحترمهم وهم فى مقابل ذلك يدفعون لنا وعودا بانهم عاملون على خيرنا ، ولكننا مع ذلك لانجد منهم امرءا فضل الاستقالة من وظيفته على أن يوقع أمرا يقول هو عنه فى مجالسه أنه ضار بالبلاد ، فكاننا من يوم المرحوم محمد شريف باشا ننزل فى درجات التأخر فى الوطنية ، بدل أن نرقى على درجات التقدم بفضل هذا الجيل الجديد المتعلم

يعترفون بذلك كله ، ولكنهم مع ذلك على تفاؤلهم عاكفون .. ينكرون الحس ، ينكرون بأفواههم ما تعترف به ضمائرهم .. بل هم يعترفون بحالنا السيئة وهم صادقون . ثم يزين لهم مذهب التفاؤل اننا على الرغم من ذلك كله سائرون الى الامام ، فما أصبرهم على التناقض فى افكارهم واحكامهم .. الا ساء ما يحكمون

كذلك يقول المتطيرون عن المتفائلين ..

أما المتفائلون فانهم على غير ما يقول المتطيرون يقدرون الحال تقديرا لا تشوبه الحدة ولا تبالغ فيه العجلة فى النظر . يرون حقيقة أن الروابط الاجتماعية تتفكك شيئا فشيئا، وأن عاداتنا واخلاقنا ، بل مشخصاتنا القومية جميعها ، قد قل فيها التجانس وكثر فيها التضاد والتصادم . يرون حقيقة أن قوتنا فى بلادنا تتضاءل مع الزمان ، حتى أن وزارتنا التى هى مظهر القدرة الاهلية فى مصر ، لا تشبه وزارات شريف ورياض ونوبار من حيث كونها تملك شيئا من السلطة تستخدمه لمصلحتنا

يرون كل ذلك ، ولكنهم يرون معه أن هذا الاضطراب دليل على الانتقال .. ومن المستحيل عندهم ان يكون الانتقال الى حال أقبح من الحال الحاضرة ، بل الانتقال صائر الى حالة أحسن من هذه الحال .. لان مشخصاتنا القديمة مع أنها كانت متجانسة ومتماسكة ، ولكنها في الحقيقة كانت مظهرا لطبائع الاستبداد القديم الطويل ، فاضطرابها وتغيرها وانعدام الاستبداد على صورته الاولى، سبب قوى يحمل على الاعتقاد بأنها بعد زمان قريب أو بعيد ، يتم انتقالها من الحال التعيسة ، حال طبائع الاستبداد الى الحال الحسنى ، حال طبائع الحرية

وهناك يمكننا أن ننادى أن مصر العجوز قد صارت مصر الفتاة ، وان مصر المحكومة صارت مصر الحاكمة .. وما هؤلاء المتطيرون الا ضيقو الصدر قليلو الصبر .. يتطيرون من الخير ومن الشر على السواء . الا انما طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون

وعندنا أن التطير أو التشاؤم بمعناه الجديد في لغتنا — اى باعتباره مذهبا من المذاهب — يطبقه أصحابه بطريقة مطردة ، بمعنى أن هذا العالم شر ، وانه صائر الى شر مما هو فيه .. بهذا الاعتبار نراه مذهبا فاسدا لا يؤكد الطبع موجبه .. بل لا مصلحة لاحد في العالم منه ، لانه يهدم كل سعادة من السعادات الشخصية أو العامة . بل يسمم الامل الصحيح الذى هو أصل لحب العيش .. أصل للعمل في الحياة

انما هو يدل على أن أصحابه لا ينظرون الى هذا العالم من جهة واحدة ، ولا يكلفون أنفسهم النظر اليه في مجموعه أى من جميع جهاته . وعلى ظن أن الذى حدا بهم الى هذا المذهب ، انهم يرون ما يسمونه الشر يتغلب على مايسمونه

الخير .. يرون الشرير يفتك بالرجل الخير ويقدر عليه .. يرون الامة الطامعة تأكل الامة القانعة ، ولا مخلص للثانية من الاولى فى كثير من الاحيان

يرون ذلك فيخدعهم هذا النظر السطحى ، ويحبون أن تفكر الطبيعة بعقولهم أو أن تستشيرهم قبل أن تمضى أمرا من الامور . ونسوا أن الطبيعة تسير على نظام كامل ما وصلت عقولنا الى معرفة كنهه ، انما هى تسير فى طريقها جاهلة قواعدنا التى ما كفانا أن نحكم بصحتها متعسفين ، بل أردنا أن يكون ما وضعناه ملزما لهذا الكون العظيم الذى يكاد لا يحس بنا ، ونحن بعض أنواع المخلوقات ، ندب على ظهر أحد أجرامه الصغرى التى لاعدد لها ..

تباركت اللهم !.. انه لا يقع فى هذا العالم الا ما أردت انت من غير التفات الى ما يريده المتطيرون

***

وعندنا أن فساد هذا المذهب من حيث هو مذهب ، لا يمنعنا من تقدير النتائج اللازمة للمقدمات التى نعرفها بالعلم والتجربة ، كما لا يمنعنا من الاعتراف بأن ماهو واقع فى بلدنا هذا من الفساد فى الخلق أو فى النظم ،موجب للأسف ، موجب للتغيير .. ولكنه غير موجب فى اية حال من الاحوال الى هذا اليأس غير المفهوم ، فان الذى ييأس من صلاحنا كالذى يحارب وسائل الاصلاح ..

الا ان كل عمل من الاعمال محتاج بالبداهة لزمن يقع ويتم فيه .. واذا كان اصلاح الفردالواحدبالتربيةوالتعليم ليصير عاملا منتجا ، محتاجا لعشر أو عشرين أو عشرات من السنين ، فمن المعقول أن اصلاح الامة التى أفسد الاستبداد عليها كثيرا من حالها لا يكون الا فىأكثرمنذلك..

وان هذا الاضطراب الذى نراه فى كل بيئة من البيئات ، بل فى اخلاق الفرد الواحد ، انما هو بشير الانتقال من حال عتيقة جامدة الى حال خير منهـــا .. وان القانون الذى تسير عليه الظواهر المادية هو بعينه القانون الذى تسير عليه الظواهر الطبيعية المعنوية ، كالاخلاقية والاجتماعية والسياسية

ولاشك فى أن المادة عند انتقالهـــا من حال الى حال اخرى يحصل اضطراب فى كتلتها وفساد فى صورتها .. كذلك الامة عندما تتحرك للانتقال من الاستبـــداد الى الحرية ، ومن الجهل الى العلم ، ومن الجمود الى التقدم، يحصل فيها مثل هذا الاضطراب الذى يجب أن نعتبره سعدا ولا نتطير به ، بل هو فال حسن على الخير والصلاح

الريــاء

أرايت الذى يقول رايه فى مسألة بعينها ، ولا يلبث أن يغيره من غير سبب الا شغفه بارضاء عظيم ينتظر نفعه ، ويخشى غضبه ، أو اتقاء أن يعلن عنه انه غير محب لوطنه، لمجرد حريته فى القول ، أو تحاشيامن‌أن يوصف عند العامة بقلة الذوق ، ومجانبة قواعد اللطف البلدية . وبالجملة نعنى ذلك الذى يتخذ رايه قميصا وقتيا يلبسه كلما كان متفقا مع « المودة » ويخلعه متى جاءت «مودة» جديدة ، يكره معها لبس ذلك القميص القديم

لست انتزع من الخيال صورة هذا الذى اصفه ، كما يصنع الشعراء ، ولكنى ناقل من الطبيعة صورة قدشاعت فى الناس شيوعا لا أظن السكوت على محاربتها الا ضربا من السكوت عن الحق ، والساكت عن الحق شيطان‌اخرس

نرى أحدهم نصيرا لتحرير المرأة عند اشياع قاسم‌أمين، نصيرا لحبس المرأة فى بيتها من يوم دخولها الى يوم موتها، اذا ضمه مجلس ذواتنا الاقدمين ، أو اجتمع برفقة من الذين ينتسبون الى علوم الدين . يقول فى حضرة الشبان المتعلمين ما لتعليم المرأة وعفافها ، واى علاقة بين سفورها وصونها ، وكيف يحرمون ما حلل الله للنساء من الزينة ،

---

* الجريدة العدد ٥٠٢ فى اول نوفمبر سنة ١٩٠٨

وما التبرج الا معنى اضافى يحـدده العرف ، فيختلف باختلاف الزمان والمكان ، وطبيعة التمدن ودرجته

يقول أمامك ذلك بحدة مدهشة ، لاتظن معها الا انه اكثر غيرة على المراة من قاسم ، واحرص على نشر مذهبه من فتاة تعلمت فى نيويورك ، أو فى كوبنهـاجن .. فاذا ضمه مجلس الشيوخ المحافظين ، قال أعوذ بالله من هذه الفتنة القائمة ، ما سمعنا حين كان الناس ناسا ، أن المراة يحل لها اللهو بآلات الطرب وهو محرم شرعا ، أو أن تبرز لغير محرم شرعا ، أو ان تتعلم ما يزيد قدره على شعارها، وهو المغزل ، أو أن تقرأ علوم الافرنج وأقاصيص الغرام ، كما يقول طبقة الشباب الحمقى الذين لا يعنيهم امرالدين، ولا يفكرون حقيقة فى أمر الوطن .. بل كل رغباتهم أن يلاقوا من الفتيات الاوربيات ، حتى ينتهى الامر ـ والعياذ بالله ـ الى شهودهن الملاعب والمراقص !

مثل هذا المرائى بكل معنى الكلمة ، يكون فى الحاشية قائلا بوجوب فناء الامة فى شخص صاحب السلطة .. وعند المستشارين واصفا لكتاب الجرائد بالمجانين . فاذا قابل واحدا من أعضاء حزب الامة ، قال بشخصية الامة ، وانها لا تقوم لها قائمة الا اذا اقنعت السلطتين بوجوب الاعتراف بشخصيتها وبانها الكل فى الكل ..

مثل هذا مع الاباحيين اباحى ، ومع الورعين المتحرجين هو ابن عباس بعينه .. وما دينه الا العمل بعموم المثل السائر على اطلاقه « شرط المرافقة الموافقة » : موافقة تعيسة ، ليست مسببة عن احساس المحبة ، ولا شعور الجاذبية والانعطاف ، ولا هى مسببة عن الاقتناع برأى الغير ، ولكنها مسببة عن استهانة المرء بنفسه ، والنزول عن شخصيته ، لينال من وراء ذلك كرامة .. وهيهات

ان يكون ان يهين نفسه كرامة على الناس

***

هذه الرذيلة ، رذيلة الرياء ، يستخدمها بعض الناس ، وسيلة للنجاح فى الحياة . وهى حقيقة وسيلة نافعة فى البلاد الاستبدادية التى يتوقف نجاح الفرد فيها — مهما كان كفؤا — على رضا السلطان واعوانه ، وانه لا شىء يرضى السلطان الا العبادة . وما الرياء الا ضرب من ضروب تلك العبادة ، فالذى يرضى بأن يبيع نفسه عبدا ليشترى بثمنها قوتا يعيش به ، استبعد عليه جدا ان يكون حافظا الصورة التى خلقه الله عليها : صورة الانانية والشخصية ، صورة الحرية . وما مثل هذا النجاح بريائه الا كمثل الذى ينجح فى الحصول على الثروة من طريق السرقة .. فبئست الوسيلة ، وبئست الغاية

اما فى البلاد التى انتشرت فيها الحرية الشخصية ، وصار كل فرد آمنا على فوائد عمله من تعدى السلطان واعوانه ، وحصل كل امرىء على النتيجة المناسبة لكفاءته .. فى مثل هذه البلاد يكون الرياء وسيلة عقيمة فى الغالب ، بل يكون ذلك الرياء مسبة للحرية الشخصية ، لان بنى آدم لم يجنحوا الى هذه الرذيلة الا ليدفعوا عن انفسهم بطش القاهر وتعديه عليهم ، فاذا امنوا ذلك البطش والتعدى ، كان المراءون منهم ، كمن يأتى الرياء حبا فى الرياء ، لا وسيلة للنجاة

قال ارسطو : « خلق بعض الناس ليكون حاكما ، وخلق بعض الناس ليكون محكوما » . ولكنا نظنه اخذ هذه القاعدة من ملاحظته الشخصية لاخلاق قومه واخلاق الآسيويين جيرانهم . وهذه الملاحظة ، لا تكفى وحدها التقرير

قاعدة عامة ، مثل هذه القاعدة . لذلك نقول ان الله فطر الناس على فطرة واحدة ، أو متقاربة الفروق جدا ، بحيث لا يترتب على التفاضل بينهما أحكام متخالفة ، وانهم جميعا قد فطروا على الحرية الشخصية والانانية .. فمن أين لهم اذن رذيلة الرياء ؟

***

الرياء مرض من أمراض النفس .. أى ضعف فيها يجعلها لا تثق بأن لها وجودا مستقلا ، يهولها أمر مستقبلها الدنيوى ، يوحشها الا تعتمد فى حياتها على نفوس كثيرة ، تتخذها أربابا لها وحماة لبقائها .. يخيفها أن يبيت زيد غضبان منها ، أو عمرو حاسدا لها

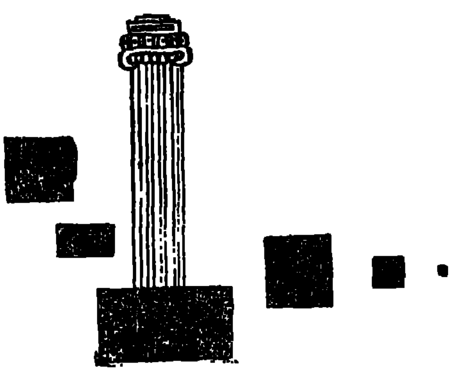
ذلك المرض اذا لم يعالج بالتربية ، تتضاعف أعراضه شيئا فشيئا ، حتى تموت فى النفس خاصة الذاتية ، خاصة الشخصية ، خاصة أن يقول الانسان «أنا» تلك الخاصة التى هى ضرورية لسلامته ، لازمة لان تجعل منه ذاتا تامة ، صالحة للدخول فى تكوين أمة سليمة قوية ، حقيقة بالحرية والاستقلال

متى انعدمت هذه الخاصة ، خاصة الشخصية فى رجل وصارت ذاته تتراوح بين الذوات الاخرى ، يسلم فى رأيه من غير اقتناع لارضائها ، ويسلم فى ماله لارضائها ، ويسلم فى مصلحته لارضائها ، ويتهاون فى مصلحة قومه ووطنه لارضائها ، فذلك انسان قد مات ، وانقطع وجوده ، واصبح من الحمق أن يعد على أمته فردا ، يوم الاحصاء .. بل هو أضر على الامة من الميت ، لان الميت تموت معه أمراضه ، فلا تصل عدواها الى غيره .. ولكن بقاء هذا المريض ، ينقل داءه الى أبنائه وأزواجه وخدمه ومن لهم به اتصال من

النفوس البريئة التى وضعها سوء الطالع تحت عنايته أو رعايته

قالوا فى المثل السائر عن السن العوام « أعوذ بالله من قولة (أنا) » هذا المثل باعتباره مقيدا بقيود عدم الخروج فى الشخصية الى حد اطراء النفس ، والتبجح بالافتخار بأعمالها ، الى هذا الحد هو مثل حسن ، منطبق على فضيلة التواضع ، وفضيلة الرفعة جميعا . أما اذا خرج معنى هذا المثل عن ذلك الحد ، الى درجة أن الانسان يجب أن يميت فى نفسه الشخصية ، فى موقف غير موقف الخشوع الى الله الاكبر ، كان هذا المثل المنتشر مرضا هو أيضا يجب استئصاله ومحوه من حوافظ الفلاحين

علاج الرياء فى الصغر التربية الحرة ، وفى الكبر الموعظة الحسنة ، وأبلغ ما تكون الموعظة ، الاعراض عن المرائى ، وجعله يلمس بيده نتائج ريائه السيئة



الرجل السعيد

لم تك بى حاجة الى مصباح ديوجين لابحث عن الرجل الطيب ، ولكن بنا حاجة الى نور الارض والسماء لنتعرف على الرجل السعيد

اذا كانت السعادة فى افراد الامم البادية قليلى الحاجة والهموم ، يلمع نورها فى عيونهم الجميلة السليمة من اذى الاجهاد ، ويترقرق ماؤها فى جباههم الواضحة ، وتنم خفة حركاتهم عن قلوب خفيفة من أوزار الحياة ونفوس طابت عن كثير من عرض الدنيا وشره المدنية ، رضيت من مزايا الحياة بالحرية . ونعم الحال تتقلب النفس على هواها فى مراتب العزة ، وتأخذ من العيش بنصيب صفا من كدر الاحقاد وغصص المزاحمة المستمرة وخلا من الهموم العامة لاهل الحاضرة ، الا مما كان من غارة يقتضيها العيش أو لقاء عدو للدفاع عن الوطن

وكلاهما قد يزول همه بانقضائه ، لا كأهل المدينة سلمهم حرب وحربهم حرب .. فهم فى السلم من خوف الحرب فى حرب شعواء ، أدهى وأمر من الرمى والطعن والضرب . وهم من خوف الفقر ومن المزاحمة على حاجات الحياة وكمالياتها فى حرب ، وهم من ثروتهم العلمية والفنية والمالية فى فتنة مستطيرة الشرر ، تقلق الملىء

* الجريدة فى ١١ من يناير سنة ١٩١٤ العدد ٢٠٧٧

والخالى ، وتكد ضمير العظيم والحقير على السواء

اذا كانت السعادة فى أفراد الامم البادية ، فاخلق بها الا تكون فى مدنيتنا . بعيد عـلى السعادة ، وهى أمنية الحى ، رضاء النفس وطمأنينة القلب ونور العين ، أن نلقاها فى حمأة الشهوات التى تزحف فيها النفوس وتتخبط فى ملاطمة القوى والملكات .. لا الذين صفت قلوبهم وتعرفوا الحياة بالعقل وبالمثل ، فعرفوها عن قرب . يضربون فيها لاشخاصهم هونا ويعملون لسعادة غيرهم جما ، ويكبر فى صدورهم حب الانسانية ، وتنمو فى نفوسهم طبائع الخير رضى الله عنهم ورضوا عن أنفسهم ، وحققوا سـعادتهم فى هذه الدار .. أولئك هم السعداء

اين الرجل السعيد الراضى بحاله فى هذه الحياة الدنيا؟ وقلب المرء بما أودع من الهموم الحقيرة والجليلة ، لايهدأ روعه ولا يسكن هياجه الا اذا أصاب اغراضه ووصـل آماله وبلغ أمانيه وما هو ببالغها .. وكلمـا انقضى منها سبب جاءه سبب جديد .. انه لا نهاية لاغراضه ونهاية حياته واقعة لاشبهة فيها وان حاول هو ان يؤجل هـذا الواقع .. وانه على ذلك ينفطر قلبه حسرات على مايفوته وتذوب نفسه شعاعا على فقد محبوب . ان أصابه الخير يزهيه فيركب متن الكبرياء وهو بركوبها شقى ، وان أصابه ما يقلقه الشر يتبرم بعدل الوجود ويتغير للجمعية ويركن الى الخمول أو يجرع كأس الذلة وهو بذلك ايضا شقى . ولو انصف الانسان لاعتقد انه لاقبل له بتغيير مجرى الحوادث ولا طاقة له على حسن تقدير الخير والشر . (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون)

لو انصف الانسان لمـا جعل له من غرض فى الحياة الا القيام بما يعتقده الواجب ، يخلص له النية والعمـل

جميعا . يعمل ثم يعمل ، فاذا جاءت النتيجة على وفاق ما يقدر فليرض وليقنع من الرضـا وليرض نفسه على أن لا يخدمها النجاح كيلا تجمح وتتعسر عليه فيضيع من يده زمامها .. وان جاء العمل بنتيجة عكسية ، فليرض ايضا وليرض نفسه على الا يخدعهـا الفشـل ، فتمل العمل وتقصر فى اداء الواجب

الا ان السعيد هو من يعرف أن يرضى بحاله ، فليست السعادة هى الثروة ولا الاستمتاع بها .. وليست هى الجاه ولا آثاره ، وليست هى الحب ولا لذاته ، وليست هى العلم ولا نوره ولا منافعه ، وليست هى الجهل ولا جموده وجرائره ، وليست هى النباهـة ولا كبرياؤها ، وليست هى الخمول ولا انزواؤه وتعطيله ، وليست هى الحكم ، ولا هى نظـام الاستبداد ولا قدرته ، وليست هى الجمال ولا شفاعته ، وليست هى الظرف ولا خفته ، وبعيد ان تكون هى العقل وحسابه ، أن لم تكن هى الخيال وأوهامه . ليست السعادة شيئا من ذلك ولا هى كل ذلك بجمعه .. بل السعادة ظن السعيد انه سعيد

جلت قدرة الله .. ان لم نتعرف السعادة بين البؤساء فنحن لا نعرف لها اثرا بين الاغنياء . واذا وجدناها من حظ الاغبياء ، فهيهات أن نجد فيها نصيبا كبيرا للأذكياء! . نؤكد أن السعادة لا يلقاها الا ذو حظ عظيم .. لا يلقاها الا من كان لا يعرف الهم . وهذا الصنف من الناس لا تنفعنا سعادته ، كما لا يعز علينا شقاؤه . ولا يلقاها الا رجـل ذكى القلب راض نفسه على الرضا ، فرضيت غير كارهة . عرفت الحياة فلم تبالغ فى تقديرها وعلمت قيمة الواجب وقدرت على القيام به حق قيام . واخـــذت الحوادث فاستقبلتها كما هى لا كما يجب أن تكون . ذلك هو السعيد الذى نرجو أن تكثر فى العالم صورته

الرجل الصريح

اذا كنت تقابل الناس بأكثر من المعروف هشا وبشا وتلطفا ، وتسوم طبعك المزاح الذى ليس من خلقك ليقول عنك الناس : ما ألطفه وما أرق حاشيته ، فانـك بذلك توشك أن تعد فى ضـمن المخادعين ، ومـا انت بالرجل الصريح

اذا كتبت أو خطبت فاخفيت ما تعتقد لتظهر مالا تعتقد مجاراة لرأى الناس ، فما أبعـدك عما يشخص الرجل الصريح

ان الخداع درع واه لا يستر الخادع الا ما دام الناس لا يبصرون .. فان أبصروا لا يلبث ستر الخداع أن يتمزق اربا ، ويتلاشى هباء عن الكذب عريان خجلا ، لا يستطيع بعدها أن يكون موضعا للثقة ولا محلا للمعاملات

كانى بالخداع لا يركب نفسا الا نزلت عن شخصيتها ، وضلت فى تقدير ماهية المنفعة الشخصية ، وجبنت عن احتمال المسئولية عن أعمالها ، فضعفت أن تبرز فى ميدان المعاملة الانسانية الا مقنعة بالزور مشتملة بثـوب كثوب الثعبان من النفاق .. فلولا رحمة من الله ، وعقل هاد الى الصواب ، وتسامح من طيبات النفوس لهلك المخادع لساعته ضعفا عن الحياة وأسفا على ما فرط فى حق نفسه وفى حق

---

* الجريدة فى ١٨ فبراير سنة سنة ١٩١٤ العدد ٢١٠١

الصراحة الانسانية

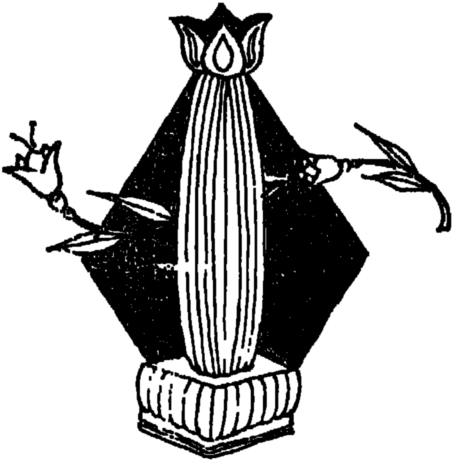
الصراحة ضمير حي ، وعزة تحمي من المداجاة وشجاعة تكفي لاحتمال مسئولية ما يكره الناس على الرجل الصريح . ذكرت جريدة « الاهرام » احد نوابنا ، فقالت : « .. حلو الدفاع ، عذب العبارة ، شديد المعارضة ، له ضمير حي لا يخالفه .. » ذلك هو المثل الصريح للرجل الصريح

كثرة الصرحاء في الامة امارة على عزتها ، فمتى تكثر فينا صورة الرجل الصريح ؟..



الفصل الثامن

في الحياة والجمال



زهرة الربيع

ليس كل الحياة شقاء للسعى الى مال ينفق أويدخر ، والى مباراة فى رفعة المناصب .. بل الحياة أيضا استمتاع بجمال الطبيعة . فكرة خفيفة الوزن تافهة القيمة عند أهل الوقار .. أولئك يرون ركض الدابة ينافى الوقار ، ولعب الكرة يذهب بالوقار ، ومعظم اسباب التربية البدنية لا يتفق على ما يجب الرجل من اطراق طويل وسكون عميق وجمود على المأثور عن السلف الصالح القريب .. كأن الامة يجب أن تكون لها من أهل الرياضة والكشف ، يضحون قوة البدن لصفاء الروح حتى تنزع بجهتها القدسية عن هذا العالم السفلى الى الملكوت الاعلى

ولو انهم أرادونا على احتباس النفس عن لهو الدنيا ولعبها الى العمل للآخرة ونعيمها ، لكان فيما يهدوناليه من التقليد مغنم .. ولكن الحال قد تبدلت الى صرف النظر من جمال الطبيعة ونعيم الحياة الانسانية الى أخس اطراف هذه الحياة ، الحرص على الخدمة فى الحكومة ، والحرص على فقد الحرية فى كل شىء حتى فى اللذات البريئة ، حتى فى الاشتغال بتربية ملكة الجمال ، حتى فى العناية بغرس الاشجار وتوليد الازهار . الحرص على فقد

---

* الجريدة فى ١١من ابريل سنة ١٩١٤ العدد ٢١٥٥

الصراحة فى كل شىء حتى فى الاعمال الشخصية . تقف عن الظهور بتعرف الجمال حيث كان ، وعن اعلان حب الجمال ، وعن الظهور بحب الازهار واستقبال الربيع بالتحية والارتياح .. بديل الاستغراق فى اللذات المخجلة بشرط ان تكون خفية حتى لا تجرح قدسية الوقار !

***

رب ! .. كل ما خلقت تابع لقانون التطور حتى المعانى والافكار ، فالذين تجردوا من مزايا السلف الصالح فى علم يفيد وجد ممتع وسيرة طابت ظواهرها وبواطنها قد اكتفوا من اسلافهم بتقليد شىء واحد لم يقدروا الا عليه وهو صورة ظاهرة من الاطراق لا فى التفكير والسكون ، بل هو مظهر يقتضيه الوقار ! .. فاذا تحركت النفس الانسانية فى هذا الجسم الوقور ، فانما حركتها الى الشهوات العالية من اغتباط حقيقى بجمال الطبيعة ، وتقدير صحيح لما أودع فى الفنون من كنوز الجمال

ذلك جيل ذهب بأهله .. ولنا جيل ناهض يجب أن يؤلف بين علمه وبين نزعات نفسه ، ويضيف الى تثقيف عقله تهذيب مشاعره . ويطرح جانبا كثيرا مما ورثناه من ماضينا القريب ، فيعمل للمزاحمة العالمية ليكسب قسطه تحت السماء من مال يسد الحاجة وقوة تحمى الوطن ولذة بجمال الطبيعة تعين على فهم الحياة .. فيعنى بمظاهر الجمال كما يعنى بزراعة القطن ، لان الحياة ليست شقاء خالصا بل هى يومان : يوم للشقاء ويوم للنعيم ، ويأخذ بنصيب من الالتفات للظواهر الطبيعية كما يحرص على الاستفادة من الظواهر الاجتماعية والحوادث الاقتصادية

ها نحن أولاء أمام الربيع .. أزهاره تنسم أنفاسها ،

وتأخذ بأبصارنا الوانها ، وتحرك جدتها عواطف الحنان في قلوبنا كأنها بعض ابنائنا ، ان مرآها ومظهرها ينقلان نفوسنا من عالم الشقاء الى عالم النعيم ، ومن ارض الحقيقة الواقعة الى سماء الخيال الجميل .. لا اظن هذا الانتقال لا وجود له . كلا انه صحيح واقع فاننا نشعر بوجوده في قلوبنا ونرى آثاره على وجوهنا .. ان خيال اللذة البريئة موجود واثره سعد ، ولعله هو نعيم الحياة .. فاهلا ومرحبا بازهار الربيع

ليس جديدا علينا ـ بني الانسان ـ أن نعلن مشاعر الاغتباط ، ونسدي عبارات الاعجاب الى الربيع وجماله .. فقد كان ذلك في كل زمان موضوع وصف شعرائنا، والمحرك الاول لعواطف المحبة في صدورنا .. وكان الزهر رسول المودة وهدية الحب بين الانفس الحساسة التي بينها وبين الجمال نسب متين

كنا ولا نزال نبتهل الى الربيع ونتغنى بالطبيعة ، فهل لها اذن تسمع تغنينا بجمالها ؟ أم هي صماء صادرة من قوانين ازلية سائرة الى مصير مرسوم ، لا تلقي نظرة على سكانها المفتونين بزخرفها الفانين في حبها ، وهم في الحقيقة ضحايا عدوانها .. ليكن كل ذلك ، ولكن ذلك غير مانع لنا من أن نستوفي قسطنا من الحياة على أكمل ما نستطيع .. نبلو مرها ونطعم حلوها ، ننسى آلامنا فيها بما يسحرنا من جمال ازهار الربيع

علموا ابناءكم حب الجمال ، ونموا في نفوسهم ملكته .. ليعلموا أن الحياة ليست جحيم الهموم ولكن فيها لمحات من النعيم . ان حب الجمال يرفع النفس الى لذائذ أطهر طبعا ، وأسعد أثرا ، وأبقى في العواطف ، نتيجة من كل ما عداه من لذائذ الحياة . وان ابسط موضوع لتعرف الجمال والمران به ، أزهار الربيع

الآثار القديمة

على الرغم من الضعف الذى وقعت فيه مصرنا ، فمن المحقق ان المصرى تاخذه هزة الارتياح ويلعب به شعور العزة أمام عظمة المصريين القدماء ، ويكون حظه من شعور الفخر أكبر من ذلك ، لو انه عالم بالحوادث المصرية المكتوبة على جدران المعابد والمحاريب وواجهات القبور أو قارىء ترجمة تلك النقوش فى إشعار ما سبيرو ، وماريت ، ونافيل ، ومحاضرات كمال بك .. اذ يعلم ان مصر كانت من العزة فى ذلك الزمن الغابر على قدر أن الملك كان له نحو اثنى عشر رجلا من الامراء وغيرهم يقومون بأمر التشريفات ، يصل اليه سفراء الممالك الاخرى راكعين ساجدين يرغمون انوفهم بالتراب ويجأرون له بالدعاء ، يقطع أصواتهم خوف الملك وجلالته ..

ان الملك لم يكن كل شيء فى مصر ، بل كان لامراء الأمة ووزرائها فى كثير من الاحيان إثر عظيم فى الاصلاح وفى الحكم ، وان المصريين لم يكونوا — على ما يصفهم عامة الاجانب — مخلدين الى السكينة كارهين السياحة والتنقل قانعين من الرزق بما تحت متناول اليد .. بل كانوا أمة جد واستعمار تجرى فى استعمارها على أحدث الطرق الاوروبية الآن ، اذ يخرج المرسلون من مصر الى

---

* الجريدة فى ٨ من ديسمبر سنة ١٩١٣ العدد ١٧٤٤

الاقطار المختلفة فى افريقية يجوسون خلالها حاملين الى أهلها العطر ذا الرائحة النفاذة والاقمشــــة الزاهيــة الالوان ، وغير ذلك مما يحمله الاوربيون فى هذا العصر الى سكان تلك الاقطار الشاسعة فى افريقية

ولم تكن اغراض المصريين من فن السياحة مقصورة على الربح التجارى ، بل كان أولئك السياح يكســبون بلادهم نفس الفوائد التى جنتها انجلترا من وراء الشركة التجاربة الانجليزية فى بلاد الهند قبل فتحها ، وسياحات سيسل رود ، وما كسبته فرنسا من بعثاتها فى الكونغو والسودان ، اذ كان السياح المصريون يدعون النـاس لاستماع اخبار مصر والسودان ودينهم ولغتهم ، ويبينون عظمة ملكهم وثروةبلادهم حتىيصوروا مصر فىأذهانالقبائل بصورة القوية القاهرة التى لايعجزها تحقيق شىء ممـا تريد

فاذا رجع أولئك المرسلون الى مصر وصـــفوا تلك البلاد ، وأفاضوا للحكومة بكل ما وصلوا اليهمن المعلومات، فتسير الجنود المصرية على أثر ذلك تفتح البلاد النائية التى صار فتحها بفضل معلومات السياح المصريين امرا هينا

ولقد كان المصريون اسمح الامم فى استعمارهم لانهم كانوا يسيرون فيه على مذهب اللامركزية ، يحفظون على الامة المغلوبة دينها وعاداتها وشكل حكومتها ، ويتركونها حرة فى بلادها مقابل الاعتراف بالســـيادة المصرية . . وكما ان مصر تحمى المستعمرة من الاعتـــداء الاجنبى ، كذلك كان يجب على المستعمرة المصرية ان تتعهد بدفع خراج سنوى وأن تنصر مصر فى حربهـــا مع أية دولة اخرى . .

لاشك فى أن علم المصرى بهذه الحقائق المسطورة فى نحو القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد ، يخرج من نفسه القنوط من ارتقاء مصر ويجعل آراء الذين يظنون بمصر عدم الاستعداد الطبيعى للاستقلال والسيادة من السخافة بمكان .. فان ما جاز عليه الكون فى الماضى ، غير ممتنع عليه أن يكون . ولا شك أن المصريين — حتى المتعلمين — قليلو الاهتمام بالعلم بمصر القديمة الى حد حرمنا لذة هذا الاغتباط بما كنا عليه . ولذة التشبث بالعمل الى استعجال القدر ليذهب بهذا الحاضر

قال لى أحد أصدقائى : سافرت فى الشتاء الى الصعيد لزيارة الآثار القديمة والاستراحة من عناء العمل ، فلاحظ على سائح المانى ان العجب يأخذ منى مأخذا كبيرا عند رؤية الآثار المصرية .. فسألنى اذا كانت هذه هى المرة الاولى لزيارتى اياها ؟ فقلت : نعم ، فضحك وقهقه ، فسألته عما اذا كان زار هذه المعاهد من قبل ؟ قال : زرتها سبعا وعشرين مرة وهذه الثامنة والعشرون ، وعلى أن أجىء كل عام فى المستقبل ايضا ، التعيس ، وليعيد مصرنا الى الماضى القديم

فضحكت منه أنا بدورى ، وقلت له : فهمت انك كنت فى المرة الاولى مستطلعا مستفيدا ، فأتممت فى المرة الثانية ما نقصك فى الاولى من الاستفادة ، ثم أعوزك الوقت لاتمام قصدك فجئت الثالثة وفيها مقنع لمستطلع وقضاء لبغية النفس من تكرار النظر للجميل . فما رأيت أعجب من تسويفى زيارة الآثار الى هذا اليوم الا اكثارك من رؤية الشىء الواحد ، واستزادتك من ذلك على غير جدوى

قال : أؤكد لك اننى كلما زرت هذه الآثار شعرت

بالرضا ، بل باللذة التي كنت اشعر بها في كل مرة سابقة ، وما رجعت مرة الا بفوائد جديدة لم اكن لاحصل عليها من قبل

هذا حديث له اثر ثابت في فهم هذا الاهتمام الذي يعرفه الالمان والفرنسيون والانجليز والامريكان في زيارة آثار مصر للوقوف على أخبار العالم الاول ، حتى ليضيفوا بذلك صفحة أو صفحات الى اسفار التاريخ القديم ، وليتنفعوا بذلك في معرفة قوانين النشوء والارتقاء التى صارت عليها العلوم والفنون والصنائع من نحو سبعين قرنا .. وليبحثوا في جوانب العالم عن الحلقات المفقودة من سلسلة الظواهر الاجتماعية والحركات السيكولوجية التى تطورت بها الامم حتى صارت الى ما هي عليه الآن .. فان الذى يجهل ماضي العالم حقيق به الا يصح حكمه على حاضره ولا على مستقبله . ومن لا يعرف تطورات الانسان ، لا يستطيع أن يضع له قوانين السلوك في الحياة

كتب الى أخيرا أحد اصدقائى نزيل الاقصر اليوم ، يقول : أكتب اليك بعد أن زرت معظم الآثار التى خلفهالنا أجدادنا زيارة داخلنى منها الزهو وتضاعف بها حبىلمصر وطنى ، ولكن الحب لم يصف من شوائب الحزن .. لماذا لاتدرس في مصر الايجبيتولوجية كما تدرس بانجلترا ؟

هذا الكتاب أيضا تدل عبارته على شعور كل مصرى متعلم يقف أمام الآثار المصرية لا يعرف منها الا ما يعرفه العامي .. يعرف من الأثر انه عظيم متقن دال على عظمة الملك الذىيخبر عنه .. هذا كل ما نعرف من آثار بلادنا

لا اطلب ان يكون كل رجل منا يطاول شامبوليون فيدقة ملاحظته وقوةاستكشافه ، أو يبارى ما سبيرو في احاطته

بالآثار المصرية ، أو يحاكى كمال بك فى معلوماته الاثرية ..
ولكن المطلوب هو محاضرة مستمرة ودرس دائم فى الجامعة المصرية أو غيرها من دور العلم ، يسهل السبيل على أبناء مصر أن يعرفوا ماضيهم لا على الوجه العلمى الدقيق ، ولكن على الوجه الذى يعرفه السياح الاوربيون من آثار وتاريخ أجدادنا الأقدمين

ليست أمتنا فى هذا الحاضر ذات وجود مستقل عن أمتنا الماضية ، ولكن الامة كل واحد غير منقسم وغير قابل للتجزئة .. انها امة خلق جسمها الاجتماعى من يوم أن استقلت بهذا الوطن المحدود ، وكانت ذات نظام اجتماعى معروف فصارت تنتقل فى حياتها من الصحة الى المرض ، ومن المرض الى الصحة ، حتى صارت الى ما هى عليه اليوم .. فبعيد على المصريين الذين يريدون ارتقاء بلادهم أن ينجحوا فى تحقيق ارادتهم هذه الا اذا عرفوا حقيقة أمتهم ..

وحقيقتها هى مجموع ماضيها وحاضرها .. فليست معرفة الآثار القديمة فرعونية وعربية ، ولو قليلا ، مقصورا نفعها على اغتباط النفس برؤية الآثار الجميلة وتحصيل شعور العزة بذكرى ماضى مصر المجيد ..
بل هناك نفع أعم اثرا وهو الوصول من معرفة الماضى الى معالجة الحال حتى يتبدل به مستقبل سعيد
عسى أن يقع ما نقول من مشاعر الشبيبة موقع القبول فيقبلوا على وسائل العلم بمصر القديمة .. وعسى أن يجيب علماء الآثار القديمة الفرعونية والعربية نداءنا فينفعوا الناس بمؤلفاتهم ودراساتهم ، وخير الناس أنفعهم للناس

آثار الجمال وجمال الآثار

لا أظن أنه يوجد انسان صحيح لا يشعر فى نفسه بتأثير الجمال ، أو لا تتحرك عواطفه حركة لذيذة أو مقبولة توجب الرضا برؤية الجميل . ولقد تختلف أذواق الافراد والأمم اختلافا قليلا فى تحديد جمال الاشخاص والاشياء تبعا لتربية الخاصة النفسية التى تتعرف الجمال .. فكلما كانت هذه الخاصة التى نسميها الذوق مصفاة من شوائب الخشونة بحكم التركيب الجسمانى والوراثة ودرس الفنون الجميلة ، كانت النفس أكثر احساسا بالجميل وأدق حكما فى الجمال

ومهما كان راى جماعة الزهاد فى الدنيا لا يقيمون وزنا للذائذ الانسانية ولا يحفلون بالصور الجميلة ، وجماعة الفانين فى كسب الاموال الذين يجدون ماعدا ذلك فى الحياة من سقط المتاع ، فان اجماع بنى آدم أصحاء الاجسام والعقول ، واقع على أن نفوسنا هى أيضا كأبداننا محتاجة الى الغذاء ، ومن أطيب غذائها الجمال .. فان مشاهدته حيث كان تلقى فى نفس الانسان سكونا يلطف آثار هموم المشاغل وينوع حال المشاعر ، فيحميها من الكلل والسآمة ويعيد قوتها سيرتها الاولى . فاذا كان

---

* الجريدة فى ١٢ من ديسمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٧٤٨

الجمال على هذا القدر من تغذية الروح الانسانية ، كان تعرفه بمرانة النفس على رؤيته حيثما كان ، من الامور الضرورية للعيشة المدنية والتربية الانسانية ، لا انه ــ كما يزعمون ــ امر كمالى صرف يتشبث به أهل البطالة واتباع الهوى وخفاف الهموم ..

زعم باطل واغـراق فى اعتبـار الحيـــاة حماة آلام يتمرغ فيها الأحياء لا يذوقون فيها من طعوم اللذة الا تنقلا من الم قديم الى الم جـــديد ! .. اذ ليس ذلك ما يشعر به عامتنا نحن الاحياء ..

نحن لا نعرف ماهية الجمال .. ولا يهمنا الآن البحث عن ذلك ما دامت تشعر به انفسنا من غير تعريف منطقى .. يقولون ان الجمال هو عبارة عن مظهر أسرار الكمـال فى هذا العالم المادى ، او انه مرآة حســن التاليف بين الصور والالوان .. ويقولون غير ذلك

ولست اظن انه يهمنا كثيرا أن نسبح فيما وراء الطبيعة لنرجع بتعريف للجمال .. وهو هو بعينـه ذلك الذى نشعر به فى أنفسنا عند رؤية ما نسميه الجميل ، سواء أكان هذا الجميل مخلوقا حيا أو جامدا أو فعـــلا من الافعال التى تهز عواطفنا ، او معنى من المعانى التى تقع من النفس موقع الجميل بالحس

واذا كنا حاصلين على معنى الجميل بالفعل داخــل نفوسنا فخير من تلمس حدوده فيما وراء معلوماتنا ، أن نستمتع بآثاره اذ الواقع ان الجمال معنى من المعانى القدســية التى لا تزال محجبة عن أبصارنا الكليلة ، مصونة عن التدهور فى هاوية أبحاثنا الوضعية ، رفيعة عن ادراكنا المحدود . ومع ذلك فان آثاره مادية نراهـا

باعيننا فى الصور الحية وفى التماثيل الجميلة ونسمعها فى أصوات الموسيقى ونشعر بها روحا تفيض على مشاعرنا رضى بمشهد الاعمال العظيمة أو بسماع اخبارها ..

ذلك الاثر السعيد ، أثر الجمال ، هو الذى يجب علينا ان ننمى مقداره فى انفسنا لنحصل به على اكثر ما نستطيع من العيشة الراضية

ان تربية الحس الصادق الذى يتعرف الجمال ويتأثر منه ، ليست على ما نظن خاضعة لقوانين معينة ، لانها هى تربيه الذوق . والذوق شىء ليس فى الكتب .. على ان نبوغ مصور التماثيل أو رسام اللوحات أو صانع التحف أو الموسيقى ليس نتيجة لازمة للعلم بأصول معينة ، بل هو الهام من الله وفيض من الفيوض ، أو كما يقولون استعداد خاص قد تفسده قوانين العلم وينميه فى نفس العبقرى خروجه فى صناعته عن حدود المألوف .

أجل .. أن أرباب الفنون الجميلة فى كل زمان لم يقيدوا حريتهم عمدا بأقيسة فنية ، ولكنهم كانوا دائما خاضعين لانفعالاتهم الذاتية المتولدة عن عقائدهم ومشاعرهم ومشاعر أهل زمانهم وحاجات البيئات التى نشأوا فيها .. ولذلك كانت آثار الفنون الجميلة فى كل عصر من العصور مؤتلفة غاية الائتلاف مع عقائد ذلك العصر ومشاعره وحاجاته واصطلاح الجمال فيه .. فترى من السهل على كل ذى المام بالتاريخ والآثار ان يعرف الأثر الذى تقع عينه عليه ، فى أى العصور صنع ، ومن أى البلاد هو .. فان هذه الآثار الصامتة تحدث الذى يعرف كيف يسمعها ، تحدثه بأهل زمانها صادقة ،

كما قيل ان اصدق الكتب هو ماكتب بالحجارة

ليس الحس الصادق الدقيق فى معرفة الجمال محلا لتربية معينة ذات اوضاع متفق عليها .. كذلك لا يعرف التاريخ أن أمة من الامم – مهما كانت آثار فنونها الجميلة ذات شخصية مستقلة عن غيرها – قطعت النسب بين فنونها الجميلة وغيرها ، ونبغت فيها .. بل التاريخ يدل على ان الفنون الجميلة الفرعونية ، انما كان اصلها من اثيوبيا ، ودخلت عند المصريين فأخذت طابع عقائدهم الخاصة ومشاعرهم وحاجاتهم ، فتغيرت عن اصلها وصارت ذات شخصية مستقلة

فلما اخذها اليونان عنهم تغير شكلها تبعا لعقائد اليونان ومشاعرهم ايضا .. فلما اخذها عنهم الرومان تغيرت تغيرا جديدا ، وان كان هؤلاء لم يتفوقوا فيها على اساتذتهم اليونانيين . وهكذا اخذت الفنون الجميلة العربية من غيرها ، وكانت فى بدئها خليطا ثم أفاضت عليها الروح العربية الاسلامية جمالها الخاص ، فأصبحت ذات شخصية مستقلة عن غيرها مميزة عما عداها ، سواء اكان ذلك فى الأنغام الموسيقية او فى تحف الآثار والصناعة الفنية والرسم والتماثيل .. وان كانت الصور والتماثيل قليلة فى الفنون الجميلة العربية ، الا ان الذى وجد منها فى بعض الآثار : كالحمراء بغرناطة والقصر فى اشبيلية وفى دار المستنصر وغيره من بعض الملوك والخلفاء ، قد دل أهل الفن على ان الرسم والتصوير فى الاسلام لهما طابع خاص

على هذا الاعتبار يمكننا ان نقول ان الحس الصادق الذى يتعرف الجمال فى الآثار لايجوز ان يهمل امره ويترك للمصادفة الصرفة ، اعتمادا على أن الذوق ليس فى

الكتب . .بل يجب أن تمرن النفس على رؤية الجميل من الصور واللوحات والمصنوعات ، وسماع الجميل من الغناء حتى يرق شعورها ، وتحصل لها هذه اللذة التى تأتى من معرفة الجمال وتقديره ، فانها لا تعدلها فى صفائها وعلو مكانتها لذة أخرى .. لذة ضرورية للفرد نافعة للمجموع

واقرب ما يكون هذا المران العملى فى زيارة دار الآثار المصرية ، ودار الآثار العربية ، وزيارة العمارات الاثرية الفرعونية والعربية كالهياكل والمعابد والمساجد القديمة .. ثم زيارتها فى كل فرصة تمكن من ذلك

يجد الانسان آثار الجمال فى الطبيعة ، فانه اذا صفت نفسه واتسع أفق بصره ، وعلت مرتبة ادراكه ، يرى الجمال فى الطبيعة حيثما ادار عينيه .. يرى فى الرياض جمالا ، وفى البحر الفسيح جمالا .. بل يرى فى الطبيعة الجدوب والجبل الاقرع والصحراء الجرداء جمالا من نوع خاص . كما يرى الجمال فى بعض الانسان وبعض الحيوان .. غير ان للجمال فى نفوس الناس قيدا خاصا يقيدون به معناه العام ، وهو جمال الخلقة فى بنى الانسان على الخصوص

فاذا أقبلت على احد الشبان تلقى عليه بغتة هذا السؤال : هل تحب الجمال ! تكيف هذا السؤال العام فى ذهنه بصورة امراة حسناء وكان جوابه عنه مقيدا عنده بهذه الصورة ، الا اذا وجهت ذهنه الى معنى الجمال على اطلاقه . ذلك امر مفهوم لا نعنى باستقصاء مصدره فى النفس ، ولكن يجب علينا ان نساير هذا الاصطلاح العام بعض الشىء فى تربية الذوق

ومن غير الممكن أن يوفق المرء الى رؤية امرأة مثل (زهرة روفائيل) فى الجمال .. بل قد يكون بين جسم المرأة الحية الجميلة وبين زوجها ، فوارق واضحة تنقص مقدار جمالها الى مادون المرأة العادية ، وكذلك الرجل. اما ذلك التمثال الصامت ، فانه لا يلوح عليه من الآثار المعنوية الا ما أراد المصور أن يجعله مثلا أعلى للمعانى التى تشف عنها اوضاع الجسم .. على أنه من كثير الوقوع ان المرء لا يقصر النظر الى الاجسام الحية المتحركة على مشاهدة الجمال المجرد ، بل قد يشارك معنى الجمال فى ذهن الرائى معان شتى تشوش على النفس استطلاع الجمال

وليس الامر كذلك فى رؤية اللوحات والتماثيل الجميلة، فان النظر اليها يكون دائما خاليا عن كل ما يزحم معنى الجمال فى خيال الرائى .. ولهذا الاعتبار نكاد نقول ان خير نموذج لتربية الذوق فى آدراك آثار الجمال هى استدامة النظر الى جمال الآثار . وربما كان هذا النموذج هو النموذج الذى اتخذه الناس من قبل عند التشبث بتعلم الفنون الجميلة ، لانه لو كانت الطبيعة كفيلة بتقديم نماذج الجمال لاكتفت كل أمة بما لديها من النماذج الطبيعية من غير أن تستعير نماذج الفنون الجميلة من غيرها كما ذكرنا

لا شك فى أن الامة الاولى أخذت نماذجها عن الطبيعة ، ولكن من خلفها من الامم قد رأى الاخذ عنها أقرب من الاخذ عن نماذج الطبيعة . فاذا كان شبابنا المتعلمون يجعلون من بعض همهم زيارة دور الآثار واستقصاء ترقى التصوير والصناعة الفنية فيها من عصر الى عصر ، واعتادوا على ذلك ، حصلوا على لذة لا يحلها الذين يصرفون وقت الفراغ فى غير لذة بريئة ، بل فى سكون وسآمة ، واستفاد منهم

المستعد فى صحة حكمه على الاشياء .. وزاد علمه بمصر وحبه لهـــا وتقديره تقديرا صحيحا مجدها فى المدنيتين الفرعونية والعربية ، واحترم قومه ونفسه تبعا لذلك .. اذ الواقع يشهد أننا لا نعلم عن قيمة وطننا ومجده ما يعلمه السائحون ..

فاذا نحن تتبعنا آثار الجمال وعنينا بجمال الآثار ، حصلنا على بذور جديدة تنفعنا فى تمصير المدنية الغربية الحالية لان أذواقنا تكون بعدئذ خليطا مما تعلمنـــاه من المبادىء الغربية وما كسبته مشاعرنا من التربية الغربية ، ومن ذوق مصرى ونزعات مصرية مصدرها مشاعر جنسنا الوراثية مضافا اليها المشـــاعر المصرية التى تتكيف فى نفوسنا تكيفا مصريا حقيقا بالايغال فى تعرف الآثار المصرية فرعونية وعربية

لا شك فى أن آثارنا جميلة ورؤيتها تبعث فى النفس الرضا الذى يحصل برؤية الجميل .. وخير الفوائد ما وجد منه المستفيد رضى ولذة ، فلا يغلو الذى يقول ان الوقت الضائع هو ذلك الوقت الذى يصرفه ابناؤنا وبناتنـــا المتروضون فى غير مواضع الآثار

لئن قام عذر علمائنا الاثريين فى أنهم لا يظهرون حبهم لنشر معلوماتهم الاثرية بالمحاضرات ، فما هو عذر الشبان فى هجر دور الآثار التى ان لم يجدوا من يعلمهم فيها ، ويوضح لهم جمالها ، ولم يستطيعوا ان يســـتفيدوا مما كتبه العلماء من وصفها ، فلا أقل من أن يدركوا جمالهـــا ويحصلوا لذة رؤية الجميل .. انه لا تتم وطنية المرء الا اذا عرف أمته قديمها وحديثها ، فان من جهل قديمها فهو مدع فى حبها ، لان من جهل شيئا عاداه

آمالنا

املنا فى المستقبل هو الخير ويطمعنا فى ذلك ان مصر هى ، أول ما سقط من دول الشرق وهى كذلك أول ما نهض الى الاخذ بالتربية والتعاليم الحديثة، وتنفيذ النظم البيروقراطية على طريقة اقرب الى العدل والرفق، فأصبحت بذلك أغنى الامم الشرقية ثروة وعلما واشدها رابطة جنسية ، وقد كانت ولا تزال اوغلها رسوخا فى الصفات المدنية .. كل ذلك يشجعنا على الاعتقاد بأننا سائرون الى الامام ، وانه لا ينقصنا لحل مسألتنا المصرية حلا يتفق مع مصلحتنا من جميع الوجوه الا العمل الجاد والوقت الكافى

لدينا كل وسائل العمل لمصلحتنا ، فلا يعوزنا الذكاء ولا الوطنية ولا الاستعداد ، ولكن يعوزنا شيوع الاعتقاد بأن مصر لا يمكنها أن تتقدم اذا كانت تجبن عن الاخذ بمنفعتها وتتواكل فى ذلك على اوهام وخيالات يسميها بعضهم الاتحاد العربى ويسميها آخرون الجامعة الاسلامية .. فقد اعذرنا العقل وأبان لنا أن مصر لا تنجو من خطر التأخر والفوضى الا بقواها الذاتية ، وأعذرتنا الحوادث اذ أنذرتنا بأن الاتكال على غير المصريين فى تحقيق آمال المصريين ضرب من اللعب بالمصالح ، وحال من أحوال

(*) الجريدة فى ٢ مارس سنة ١٩١٣ العدد ١٨١٥

العجز والقنوط

لم يات لنا الماضى بمثل واحد يدلنا على أن أمة من أمم العالم ساعدت مصر وحمتها من المصائب التى كان يجرها عليها طمع الاقوياء فى ثروتها ، وفى مركزها الجغرافى النادر المثال .. كذلك لم يات لنا الماضى - فى غير مقتضيات الموازنة الاوربية - أن أمة تنظر من سماء قوتها الى أمة ضعيفة تأخذها بها الرحمة فتطعمها وتسقيها وتدفع عنها مغارمها لوجه الله تعالى

ولكن الذى نعرفه من الماضى أن العالم فى حال حرب مستمرة يصلى نارها الاحياء على السواء والغلبة فيها للاقوى .. والاسر ثم الرق للضعيف

ومن الخطأ أن يكون مقياس الضعف والقوة فى الامة هو مقدار عدد النفوس أو الثروة .. انما مقياس عظمة الامة هو صفاتها العامة الضرورية للنجاح فى الزمان الذى تعيش فيه . كان عدد أهل أثينا فى أوقات مجدها هو بعينه عددها عند سقوطها ، ولم يتغير فيها الا الصفات التى هى ملاك القوة فى الامم . ولسنا فى حاجة الى استحضار التاريخ القديم فان الحاضر المشاهد فى النسبة بين عدد النفوس فى الامم المستعمرة وبين عدد النفوس فى مستعمراتها لا يدع للشك مجالا فى أن الكثرة والثراء ليسا هما العلة الاولى فى عظمة الامة وقوتها . ولكن القوة والعظمة فى عدد الرجال المهذبين أو الصفات السامية والعقول المنتجة

لكل زمان ، ولكل مدنية ، خواص فى الاخلاق والميول تكون هى علل النجاح . ولقد دلتنا الامثلة على أن الامة التى لا تسير فى تيار عصرها ، بل تقف جامدة على قدميها لا ينتظرها العالم فى سيره الى الامام ، بل يتركها منقطعة

لا تتجدد فيها قوى الحياة ، ولا تستطيع ان تأخذبخواص النجاح فى الزمن الجديد ، فتقع فيما يشبه الفناء وذلك حظ الضعيف

وقد رأينا ـ نحن انفسنا ـ ان كل ما وقعنافيه من شر الذل وفقد الاستقلالمن عدة قرون ، انما كان سببهتفريط المصريين فى الاستمساك بالصـــفات التى كانت يومئذ ضرورية لبقائهم أحرارا ٠٠ وها نحن اولاء أصبحنا بالتربية الجديدة والافكار الجديدة نسمع فى قلوبنا دبيب الطمع فى استقلالنا ببلادنا ، وتأخذنا الغيرة من الشـعوب التى شبت فى هذا الزمان الحاضر ورفعت رأسها بين الامم ، ولم تكن من الشعب المصرى ولاقلامة ظفر .. فمنالطبيعى ان يكون نهوضنا متناسبا مع اطماعنا ، وان يكون اول ما يجب علينا ان نتحرى فى انفسنا صفات الضعف نتخلص منها ونحل محلها صفات القوة أو اسباب الرقى

اننا مهما كان مقدار حبنا للصـــفات التى ورثناها من الماضى ، يستحيل علينا أن نظن ان علة تأخرنا هى شىء آخر غير تلك الصفات

ومن المستحيل أن يكون الضعف والقوة كلاهما معلولا لسبب واحدفى آن واحد باعتبار واحد ٠٠ فرقينا أو قوتنا رهينة بنفى أسباب الضعف عنا ، مهما كانت هذه الاسباب أو تلك الصفات داخلة فى مشخصاتنا وممتزجة بعاداتنا وأخلاقنا

سيقولون هل تريدوننا على أن ننزل عن أفكار آبائنا فى تكييف المصالح المصرية ، انترك عاداتنا فى حب الاتكال على غيرنا والتباهى بجيراننا واعتبارنا فى نظر انفسنا أقل الشعوب مما يجرى على السنتنا فى الامثلة وفى المجالس ، وما يظهر على حالنا من معاملة غيرنا ، ونأخذ بصفات التمدين

الجديد .. هذا التمدين المادى تمدين المنافع والمبالغة فى حب الكسب واستخدام العقل البشرى والعلوم المختلفة فى تحصيل اللذائذ الشخصية والاطماع الاستعمارية .. انكم تريدوننا على أن نتغير وفى التغيير نزول عن الشخصية وفناء للامة

نعم .. فاننا جربنا أفكار سلفنا الصالح فى هذا الماضى القريب ، فما كانت النتيجة الا ما نحن فيه .. فلم يبق الا أن ننزل عن الافكار والصفات التى كانت سببا فى تأخرنا ، ونأخذ فى التغير والتطور حتى نستطيع المزاحمة فى معترك هذه الحياة المدنية ، أوبعبارة أخرى حتى يرجع الينا ما فقدناه من صفات القوة أو من قوة الاخلاق محـــافظين دائما على عقائدنا الدينية الاولى التى كان عليها علماء الدين الاولون ، قانعين من مشخصاتنا الحالية بما يكفل التمييز بيننا وبين الامم الاخرى .. تلك المشخصات التى لم يثبت لنا انها كانت ســـببا فى تأخرنا ، ولن تكون مثل لغتنا العربية وعاداتنا فى حب الضيافة والمواساة وأريحية الجود وبقية الصفات التى امتزنا بها فى حسن العشرة والعادات البريئة التى لها طابع يميزها عما عداها كعاداتنا فى شهر الصوم وكيفية احتفالنا بالاعياد والموائد العلنية فى المآتم والافراح الخ الخ !!

ولكن الذى يجب علينا ان نساعد المدنية الحاضرة على نفيه عنا هو الصفات التى تولدت من نقص الاعتقـــــاد بمصريتنا ، أى بأن لنا وجودا خاصا ومنافع خاصة يجب علينا تحصيلها بصرف النظر عما اذا كان هذا السعى يأتلف مع أفكارنا القديمة أو يختلف عنها ، وأن نتشبث بحقوق الشعب المصرى واحترامه .. فلا نسمح للخواص منا ان يسبوه باظهار اليأس منه والقنوط من رقيه ، ولا لعوامنا ان يجرى على ألسنتهم تفضيل غيره عليه .. وان نحارب

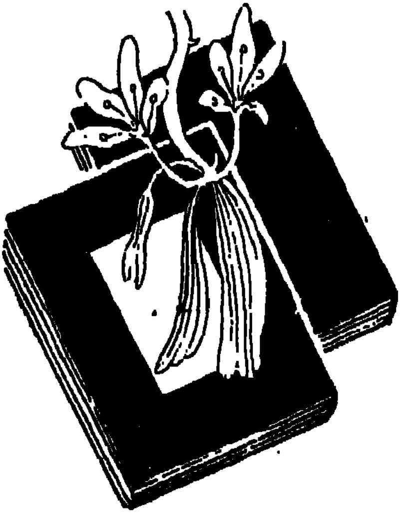
الجمود على الماضى فى امساك المرأة المصرية على اتبـــاع المعروف فى الماضى القريب ، بل نسهل لهـــا العمل هى أيضا لمصلحتها ومصلحة المجموع وأن نأخذ أسباب القوة عن التمدن الجديد ، طائعين لا كارهين ، والزمان وحده كفيل بأن يصبغ الواردات الاوربية بصبغتنا المصرية ٠٠ لا شيء من ذلك يأتى بالنتيجة التى يخاف عقلاؤنا منها ، نتيجة أننا نفنى فى غيرنا أبدا ٠٠ ولكن قديمنا يفنى فى حاضرنا وحاضرنا يفنى فى مستقبلنا كما هى سنة التطور فى الوجود

أقدم كل هذه المقدمات لاقرر أن آمالنا من المســتقبل شعب جديد ، يكون أقدر منا بصفاته على تحقيق أطماعنا القومية

وعلى هذا الجيل الحاضر ، أو الشعب الحــاضر ، أن يسهل للجيل الآتى سبل القوة وأسباب التطور ليحقق صبغتنا القومية وهى مصر للمصريين

الفصل التاسع

نظرات فى الأدب



الأديب وعلم الأدب والأخلاق

لا يزال المعنى المدلول عليه بالادب معنى عاما شائعا غير محدود الجهات حدا واضحا في الاذهان ، بل ان هـذا المعنى تأخذ منه النفس صورة لا تزال مبهمة حتى يأتيها المثل الجزئي فيحددها تحديدا ما ..

فاذا قرأت قطعة من الشعر في الغزل أو في الوصف أو في الانتقاد ، قلت أن هذه القطعة من الادب . كذلك اذا وقفت على مقالة من النثر في غير موضـوع العلوم الدراسية البحتة ، روعى في كتابتها الفصاحة والبلاغة وقواعد اللغة الصحيحة ، قلت انها قطعة من الادب . فاذا وقع لك كتاب في التاريخ أو في الارشاد مهما كان مساسه باللاهوت ، فذلك من الادب أيضا

يتعلم المرء فروع الطب فيصير طبيبا ، وعلوم الهندسة أو الحقوق فيصير بذلك مهندسا أو مشرعا .. أعرف ذلك ولكنى لا أعرف بالضبط بم يصير المرء أديبا ، الا أنى أعرف أن الاديب يجب عليه أن يكون قد قرأ كثيرا مما كتب في التاريخ والنقد والشعر ، وما وقع الاجماع على بلاغته من كتب السير أو القصص ، وما وضعه الـكتاب

(*) الجريدة فى ٤ من مارس سنة ١٩١٢ العدد ١٥١٣ وقـد كتب هذا البحث بمناسبة صدور كتـاب مصطفى صادق الـرافعى : « تاريخ اداب العرب »

والشعراء السالفون والحاضرون وبلغ الشهرة العـــامة وأطرافا من نكات محاورات الادباء الاقدمين .. الخ

من اجتمع له ذلك قلة أو كثرة ، فهو اديب مع مراعاة البيئة التى هو فيها أو التى سمته أديبا ، ولو كان هذا الاديب لايعرف نظام المجموعة الشـــمسية من الفلك ولا قاعدة عكس مربع البعد في علم الطبيعة ، ولا مسـاحات المستويات الهندسية العادية ، ولا شيئا من أوليات العلوم!

نعم .. الذى قرأ بامعان ما نسميه عادة كتب الادب ، واستظهر بعض القصائد ، واستطاع أن يقول عن فكرة بعينها لاحد الكتاب انها فكرة ساقطة ، أو عن تركيب لغوى انه تركيب سمج .. الخ ، هذا هو الأديب . لذلك نجد المزاحمة على لقب « اديب » أكثر من المزاحمة على أى لقب من الالقـــاب العلمية الاخـرى كالطبيب والمهندس والمحامى .. الخ

بل تكاد تكون المزاحمة عليه عامة حتى بين العـوام ، لانه ليس للاديب شهادة بعينها ولا كمية معينة من الكتب يقرؤها ، ولا شرط ظاهر لحسن البيان غير مراعاة قواعد النحو البسيطة .. بل مع عدم مراعاة تلك القواعد في بعض الاحيان . وعلى هذا ليس لجماعة الادباء حدود خاصة، بل قد يكون الطبيب أديبا ، والمهندس أديبا ، والفيلسوف أديبا

من أجـــل ذلك ترى التفـــاوت بين الاديب والاديب كالتفاوت بين السماء والارض .. أى الادباء أشمل احاطة بضروب الفصاحة وأسرار البلاغة ، وعلما بأطراف العلوم المختلفة ، وأوسع حافظة للمعانى ، وأقدر على نقد الاساليب وأشد ذكاء ، وأدق نظرا ، وأرق عاطفة ، وأصح ذوقا . وأكثرهم أستحقاقا للقب الاديب وان لم يكن خط قطعـة

واحدة طول حياته .. فالاديب فى عرف الادباء ليس هو المعنى بذلك اللقب الذى نجعله فى مراسلاتنا اليومية قاطرة تجر وراءها ألفاظ التفخيم وعنوانات الشرف فتقول (حضرة الاديب الفاضل المحترم ..) خطابا لذلك الذى لم يقرأ من موضوعات الاولين الا الابجدية وتوابعها

ولكن اسرافنا فى التلقيب بالاديب ، وتصدقنا بعضنا على بعض به ، وتحاشينا أن يلقب بالطبيب أو بالمهندس من لم يكن فى الحقيقة طبيبا أو مهندسا .. ذلك الاسراف دليل آخر على أن ماهية الاديب فى أذهاننا غير مستقرة وصورتها غير محدودة بحدود تميزها عما عداها ، الا أن يكون المقصود بالاديب هو الرجل المهذب الطاهر الاخلاق. وهذا المعنى غير ملحوظ ، لان لفظ الاديب يقرن عادة بالفاضل ، ولا يستعمل الا للقارئين دون الاميين

الادب فى عرف الجماهير

قد يكون الانسان فى بعض الازمنة أديبا اذا حفظ شيئا من المواليا أو المواويل الحمر والازجال وجعلها أقيسة له يزن على منوالها ، وان لم يكن ليعرف مما ذكرنا عن الادب شيئا .. حتى لاتند يطلق على ذلك الذى يرتجل كلاما مقفى أغلبه فارغ خال من المعانى التامة التى من شأنها أن ترتاح لها النفس ، ومن ذلك البيان الذى يسحر النفس وان من البيان لسحرا ، من أولئك المرتزقة بالدف وضروب الكلام فى الموائد والاسواق . فان هؤلاء كانوا يسمون أيضا أدباء ، ولعل هذه التسمية قد جاءت من أنه لم يكن يوجد غيرهم أكثر استحقاقا منهم لهذا اللقب ، كما كان يسمى بعض المشعوذين ومدعى الطب ، أطباء وحكماء وكما سمى بعض البنائين مهندسين معماريين .. لان الظاهر أن الاسماء لا تعطل فى هذا الوجود ، فان لم تجد مسمى

تلبسه ، لبست أقرب المعانى اليه وأكثرها له مشابهة ، ومن أولئك الادباء أميون من البـــدو يرتجلون ضربا من الشعر ذا وزن خاص من غير ان يتكلفوا مراعاة الاعراب ولا قواعد اللغة ، يودعونه خيالاتهم وتشـــبهاتهم التى من انحطاطها لا تخرج عن كونها مقدمات شعرية تلذ اسامعيها من البدو ، كما قال أحدهم :

جملهـــا تحت اللى ميسور بها
ويثور • فنار وولع فى بابور
جملهـــا وبن يحبـــك بخط
وهى فوقه عين الشــــهان
تركى شـــــارب ومليط
يطير مخ جابين السيســـان
اللـــه عليم انه مشــــلط
مرض لا فى لى لى زمــــان
هوى بى مولى الشـــال يغط
يسحب كيف رياح الجـــان

أو كقول بعضهم فى وصف معركة :

حبك ســـوقها دار رنـــه
وفرس الردى بـــه غـــارت
وان رأيت قرعات الحصـــنة
مقـات هوروهـــا وبـارت

وكقول الآخر فى وصف تلك المعركة أيضا :

يوما ياهنـــا من غاب عنــــه
والا حاضره وكاسب ثنــــاه
يوما فيـــه قرعات الحصـنة
كانايات بيت السبل جـــاه

وانما ذكرنا مثل هذه الامثلة ليعرف القـــارىء بعض التفاوت بين الادباء ، سواء أكان في العصور المختلفة أو في عصر واحد • فمن هؤلاء الادباء الأميين ــ الا شوقى وحافظ والمطران وحفنى بك والمويلحي والمهدى والمنفلوطى والرافعى ٠٠ الخ الخ ــ كل أولئك أدباء فى عرف الجماهير وانما جاء ذلك من أن صـــورة علم الادب فى النفوس لم تأخذ حظها من الظهور ، ولم تستوف حدودا مرسومة كبقية طوائف المعلومات الانسانية الاخرى

اطلنا الشرح فيمن هو الاديب ، لاننـــا نحب أن ناخذ تعريفات الاشياء من الوجود الحسى لا من التصوير المجرد، ولان تعريف الادب في لسان العرب هو (ما يتأدب به الاديب من الناس) فمن اللازم أن نتعرف من يســـميه العرف أديبا حتى نستطيع أن نحدد ماهية الادب

الادب فى اللغة

واذا جرنا الحديث الى الادب فى اللغة فانا لا نجد مناصا من القول بأن ماهية الادب لغة ليست بأظهر منها اصطلاحا بل هى مثلها مترامية الاطراف قلقة فى ذاتها ٠٠ اذ يقول علماء الفقه ان الادب هو من مادة الادب وهو الدعاء ، ومنه قيل للصنيع يدعى اليه الناس مدعاة ومأدبة . وسمي الادب بذلك لانه يؤدب الناس الى المحامد وينهاهم عن المقابح • ولاشك فى أن هذا التعريف اللغوى لايتمشى تماما مع ما نريده من الادب المسمى بالفرنسية litterature لان الذى يؤدب الناس ويدعوهم الى المحامد وينهـــاهم عن المقابح مباشرة ، انما هوعلم الاخلاق . ولايؤاخذنى أصحابنا الادباء اذا قلت ان الادب ، أدب اللغة ، لم يكن من آثاره الدعوة الى تلك المحامد مباشرة ، بل قد يكون ذلك بالواسطة لان الادباء فى كل زمان لم يكن فى سلوكهم من التحرج ما

للاخلاقيين الذين قد لا يعرفون من قطع الادب شيئا كثيرا ولم يقراوا خزانة الادب للبغدادى ، ولا الكامل للمبرد ، ولا الجمهرة ولا دواوين الشعراء وكلام الخطباء

اعلى أننا باطلاقنا الادب على هذه الماهية التى فى انفسنا منها صورة ما ، أقرب تناســـبا بين اللفظ والمعنى من الفرنسيين .. لان لفظ الادب عندهم مأخوذ من بعض لوازم معنى الادب وهو lettre حرف الهجاء ، أما عندنا فان من معانى الادب التعليم .. ادبه اى علمه بالاطلاق ، فالذى علينا هو أن نقيد هذا الاطلاق بالقيود التى ناخذها من اصطلاحنا ، فيما يتعلق بمعنى الادب

وعلى هذا يمكن رسم الادب بانه مجموع الآثار الجميلة من النظم والنثر والتاريخ فى الموضوعات العلمية الجافة فى زمن بعينه أو فى حياة أمة بعينها ، فالادب بالنســـبة للموضوعات الكتابية أو الخطابية كالفنون الجميلةبالنسبة لموضوعاتها .. فكما ان سماعك للموسيقى يحرك العواطف ويدعو الى الرضا ، ورؤيتك لرسم جميل او صورة جميلة او بيت جميل .. الخ تبعث فى نفسك حركة مقبولة .. كذلك قراءتك قطعة من الشعر الجيد او النثر البليغ أو قصة خيالية أو تاريخية ، تؤثر فيك ذلك التأثير

وكما ان موضوعات الفنون الجميلة هى الموسيقى والغناء والرسم والتصوير بجميع انواعه .. كذلك موضوعات الادب أو الآداب هى القطع من المنظوم والمنثور ولو كانت هجائية . ولا شك فى ان قوام هذه الموضوعات هو اللغة من حيث فصاحة الكلمة وبلاغة المعنى وصحة التركيب ومتانة الارتباط وجمال الاسلوب .. فالبحث فى الادب وفى تاريخ الادب ، يدعو حتما الى البحث فى اللغة التى هى مادة نسجه ، فقد أحسن السيد مصطفى الرافعى اذ قدم

بين يدى بحثه فى « تاريخ اداب العرب » بحثا مستفيضا فى تاريخ اللغة العربية ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك، ثم اردفه ببحث فى تاريخ الرواية ، وهذا هو ما أفرد به الجزء الاول الذى طبع من الكتاب ، وهو الذى بين يدينا الان

تاريخ اداب العرب

قرانا هذا الجزء .. فاما نحوه فعليه طابع الباكورة فى بابه ، يدل على ان المؤلف قد ملك موضـــــوعه تماما .. واخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسنا . وليس من السهل أن تجتمع له الاغراض التى بسطها فى هذا الجزء الاول الا بعد درس طويل وتعب ممل ، لم يتأخر هو عن وصفه فى مقدمة كتابه . وأما أسلوب الرافعى فى كتابته فانه سليم من الشوائب الاعجمية التى تقع لنا فى كتاباتنا نحن العرب المتاخرين ، فكانى وانا اقرؤه اقرأ من قلم المبرد فى استعماله المساواة والباس المعانى الفاظا سابغة مفصلة عليها لاطويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداهاتودى ببعض اجزائها

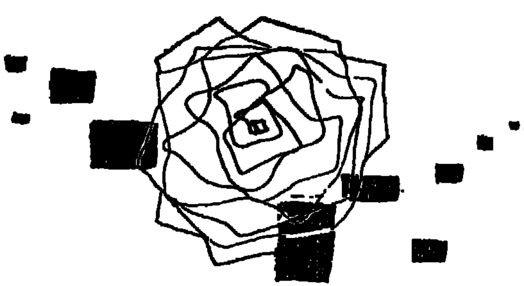
وان هذا الجزء ، بل هذه المقدمة ، تدل على انالمؤلف سيخرج لنا من تاريخ أدب العرب مايجمع شملها بعـد التشتت فى كتب متعددة ، ويكون بذلك قد ادى للأمة أعظم خدمة يؤديها اشد الادباء غيرة على الادب

نقول ذلك ونكرره لان الادب ليس كما يراه أهل العجلة فى النظر الة مجردة لسمر الادباء ، وقصصا جميلة مضيعة للوقت الثمين .. بل الواقع أن الادب وتاريخ الادب ، مشخصان من أقوى مشخصات الامة يربطان ماضى اجيالها بحاضرها ويحددان ماهيتها ويميزانها عما عداها ، فتستمر

شخصيتها ، وتتسع بذلك دائرة التشابه بين افرادها ، وتقوى روابط التضامن بينهم . غير ما يكسب الباحث فى الادب من رقة العاطفة وحسن الذوق والقدرة على جمال التعبير عما فى نفسه من العواطف والافكار وحمل الناس على الاصغاء اليه وقبول مذاهبه قبولا حسنا .. فالادب فى كل زمان هو الصانع الوحيد لآلات شيوع المذاهب من الكتابة والخطابة

فمن الغفلة أن يغمط حقه بين المعلومات الانسانية الاخرى ، وفيه ماذكرنا من نفع الافراد والامم

لهذا النظر أيضا نكبر غرض الرافعي ونشكره على ما حققه من هذا الغرض ، ونحسن الظن من الآن بما سيأتى به من تحقيق غرضه الكامل ، ونقترح عليه أن يتحرى تاريخ العباقرة من الشعراء والكتاب السالفين ، ويطيل فيه بقدر الامكان وان كان ذلك يدخله فى غمار الكاتبين قبله فى تاريخ الادب .. لان عمله لايأتى بأكمل ما ينتظر منه من الفائدة ، الا اذا كمل من هذا الطرف أيضا ، وانه على ذلك بعد ما رأيناه من قلمه لقدير



فهرس

صفحة

الفصل السادس : المراة والمجتمع

الفصل السابع : فى الاخلاق وتربية النفس

الفصل الثامن : فى الحياة والجمال

الفصل التاسع : نظرات فى الادب